# الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العدد 123 صيف 2005 السنة الثلاثون



عدد
خاص
بالأدب
الأرمني

# الآداب الأجنبية


مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد 123 صيف 2005 السنة الثلاثون



المدير المسؤول

أ.د.حسين جمعة

رئيسة التحرير:

د.بثينة شعبان

أمينة التحرير:

د.ناديا خوست

هيئة التحرير:

- عدنان جاموس
- لطيفة ديب
- خالد حداد



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com رابط بديل

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الاجنبية »

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي .

* توجه جميع المراسلات باسم امانة التحرير .

* المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة .

* المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .

الاشتراك السنوي

داخل القطر ١٠٠ ل.س

الاقطار العربية للافراد ٢٠٠ ل.س او ١٠ دولارات امريكة

خارج الوطن العربي ٣٠٠ ل.س او ١٥ دولارا اميركيا

الدوائر الرسمية داخل القطر ٢٠٠ ليرة سورية

الدوائر الرسمية في الوطن العربي ٢٥٠ ل.س أو ٢٠ دولارا أميركيا

الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي ٥٠٠ ل.س أو ٢٥ دولارا أميركيا

أعضاء اتحاد الكتاب ٥٠ ل.س

المراسلات :

باسم أمانة التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب.

دمشق ـ المزة أوتستراد ـ ص.ب : 3230

هاتف : 6117240-6117243-6117242

6117243

البريد الإلكتروني :

Email : unecriv@net.sy

aru@net.sy

الانترنيت :

http://www.awu-dam.org

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

# تنويه

تعتذر هيئة تحرير الآداب الأجنبية عن قبول أية مادة غير مرفقة بالأصل الأجنبي؛ كما ترجو الهيئة من السادة المترجمين كتابة اسم المؤلف والمترجم وعنوان المادة والمرجع باللغة الإنكليزية أو اللغة الأصلية التي كتب بها النص.

وترجو هيئة التحرير أن تكون المادة المترجمة مطبوعة على وجه واحد من الورقة، وأن تثبت المصطلحات الأجنبية في هامش مستقل ملحق بالنص. علماً بأن المادة المقدمة لا تعاد سواء نشرت أم لم تنشر.

**ترسل مواد "الآداب الأجنبية" إلى العنوان الآتي حصراً:**

**مجلة الآداب الأجنبية اتحاد الكتاب العرب ص. ب (3230)**

# دعـوة

**إلى السادة المترجمين:**

تـــنوي مجلـــة "الآداب الأجنبية" نشر ملف خاص عن "الأدب الأندونيســـي" وإصدار سلسلة من "المحاور" المكرسة لأنواع أدبية معينة، يرجى من السادة الباحثين والمترجمين الراغبين بالمساهمة فـــي ملف "الأدب المذكور وفي محوري "أدب الأطفال المترجم" و"دراســـات فـــي الرواية" إرسال موادهم وترجماتهم إلى المجلة مشفوعة بالأصول.

□□

الافتتاحية:

# القيمة العظيمة لآداب الأمم

▪أ. د.حسين جمعة▪

يتوقف هذا العدد عند الأدب الأرمني محاولاً الكشف عن مظاهر التأثر والتأثير في ما ينتمي إلى الأدب المقارن، أو في ما يقال: إنه يدخل في باب الاستشراق. فهو أدب ينتمي إلى شعب يعيش في الجوار الجغرافي القريب من القطر العربي السوري وبخاصة محافظة حلب ومدينتها التي حظيت بقدر كبير من عناية المؤرخين الأرمن مثل ماطيوس الرهوي في كتابه (الحوليات)، وهو أحد أبناء القرن الحادي عشر الميلادي.

ولما كان للأدب الأرمني عناية كبرى بالتراث العربي والإسلامي فقد حظيت بعض الكتب العربية بمنزلة خاصة لدى الأرمن مثل كتاب "ألف ليلة وليلة" و"قصة الملك بهلول" وغيرهما كما عنوا بالشعر العربي الجميل وأخذوا مصطلحاته مثل تسمية القصيدة لديهم باسم (كافا) أي القافية..

فإذا كانت آداب الغرب قد عنيت بالتراث العربي والإسلامي خاصة من وجهة نظر استشراقية حتى غلب على بقية الآداب الأخرى

فـــلا يعنـــي هـــذا أن مفهوم الاستشراق كان حكراً على الغرب فمعهد الاستشـــراق الروســـي أشهر من أن يشار إليه، وهذا هو الاستشراق الأرمنـــي يكشـــف لـــنا عـــن ذاته من خلال الأقلام التي تناولته في هذا العدد.

ولعل إلمام الدارسين بتاريخ الآداب العالمية وخصائصها الإبداعية الفنـــية يجعلهـــم يدركون أن قيمة الاتصال بين الشعوب إنما تكمن في الأدب قبل غيره من أنماط الاتصال الأخرى ليس في باب الاستشراق وحده وإنما في باب التفاعل الحضاري بين الشعوب..

فـــالأدب ثمـــرة فنـــية لمعطيات كثيرة فكرية وثقافية واجتماعية وغيرها في الوقت الذي يعد ثمرة من ثمرات المبدعين المتميزين وبهذا فهـــو لا يقـــل قـــيمة عـــن الإنـــتاج الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعـــي لأمة من الأمم لأنه تعبير فني مواز عن ذلك كله.. فأية مؤلفات أدبية أو فنية وإن انطلقت من ذوات إنسانية متنوعة إنما مآلها إلـــى القـــارئ أيـــنما كان مكانه وزمانه وإذا كان لكل عصر ومجتمع أدبهمـــا الخاص بهما فإنه ينبغي علينا أن نتعرف إلى حقائق ذلك كله ونحـــن نمضـــي إلى غايتنا في بناء نهضتنا في إطار الحراك الثقافي والفني والأدبي والاجتماعي لإحداث عملية التطوير والإصلاح..

ولهـــذا فإن هذا العدد الخاص بالأدب الأرمني يعد إحدى ثمرات مجلـــة الآداب الأجنبية المهمة لتعريف القارئ العربي بآداب الشعوب علـــى مخـــتلف انـــتماءاتها وهـــي مهمـــة جليلة تناط بهيئة تحريرها قبل غيرها.

□□

# المقال

# مساهمة علم الاستشراق للإنسانية
## (من خلال الدراسات الأرمنية)

▪ شاهان سركيسيان[1] ▪

*إنَّ الهدف من هذه المحاضرة هو تقديم لمحة وصفية (ليست تحليلية) موجزة عن مساهمة الدراسات الأرمنية لعلم الاستشراق عامة وللدراسات العربية خاصة، لاسيما ضمن نطاق العلاقات العربية ـ الأرمنية.*

*ولابدَّ أن ننوّه هنا، بأن التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعوب يمكن أن يحقق السلام العادل والتقدم المبدع للبشرية جمعاء.*

فالعلوم بعامة ضرورية لمعرفة الحياة الإنسانية وتطورها، وتمكننا العلوم الإنسانية من سبر أغوار فكر الإنسان ونفسه. وهكذا فالتراث الثقافي الذي وصلَنا من الماضي يسلط الضوءَ على فكر وتفكير "الإنسان القديم" من جهة، ويُفصح عن مستويات تطور "الإنسان العصري" وعن أسباب أزماته المختلفة من جهة أخرى، بغية ضمان الرقي عن طريق المجتمع الإنساني الصالح.

الشرق هو مهد الثقافات الإنسانية ويأتي الاهتمام به منذ الأزمنة الموغلة في القدم. ولما كان الشرق يحتل منطقة مركزية حافلة بالإبداعاتِ من النواحي الثقافية والاقتصادية والدينية، فقد ألقى الإنسان الشرقي نظرةً إلى نفسه أولاً واهتمَّ بماضيه، ومن ثمَّ نظر نحو الآفاق البعيدة وأبدى اهتماماً مماثلاً للمستجدات المعاصرة.

إن علم الاستشراق (orientalism)، هو نظام علمي لدراسة تاريخ ولغات وآداب ونفسيات وأديان وثقافات وفنون واقتصاد مختلف الشعوب في الشرق. لقد نشأ هذا العلم مع النهضة الأوروبية (في القرنين السادس عشر والسابع عشر)

---

(1) مطران الأرمن الأرثوذكس لأبرشية حلب وتوابعها.

في هولندا وإنكلترا وفرنسا، واهتم العلماء في البداية بدراسة اللغات، كوسيلة مهمة للاتصال والتواصل بهدف الاستيلاء على البلاد الشرقية. في هذه الفترة، نقل التجار ورجال السياسة والمبشرون العديد من المخطوطات والأعمال الفنية إلى الغرب، ثمَّ فُتحت أبواب كنوز الأدب الشرقي عن طريق الترجمات. ففي سنة 1771، ترجم الكتاب المبجّل عن الدين الفارسي القديم المسمى (أفستا) إلى اللغة الفرنسية، وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ العلماء بدراسة اللغة السنسكريتية، ثمَّ تمَّ حل رموز الكتابات الأورارتية والآشورية والبابلية والفارسية والمصرية، تبعتها اليونانية والسريانية والعبرية والعربية.

ولما كانت أرمينيا تقع على مفترق الطرق بين الشرق والغرب، تأثر شعبها بثقافتين مختلفتين. وكانت بلاد الأرمن تقع في آسيا الصغرى، وأما لغتهم فتنتمي إلى المجموعة الهند-أوروبية، بينما تحمل ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية الطابعين الشرقي والقفقاسي. إضافة إلى ذلك كانوا على مفترق اتجاهين دينيين مختلفين هما: اليوناني ـ الروماني والفارسي ـ السامي.

لذلك فإن دراسة الشرق بالنسبة للأرمن كانت حاجة طبيعية وحيوية في الوقت نفسه. إلا أنه من الناحية العلمية، كانت الدراسات والأبحاث تجري بالتوازي مع التوجهات الأوروبية. ولسد هذه المتطلبات افتتح معهد لازاريان من قبل بعض الأثرياء الأرمن في موسكو في سنة 1815 لدراسة اللغات الشرقية.

• • •

علم الدراسات الأرمنية هو جزء لا يتجزأ من علم الاستشراق. فقد اهتم علم الاستشراق الأرمني بدراسة تاريخ الشعوب المجاورة، وبالتالي تقدم المصادر الأرمنية معلومات هامة وقيّمة عن تلك الشعوب. ويعد إرميا جلبي كومورجيان (القرن السابع عشر) وكيفورك تبير بالاديتسي دير أوهانسيان (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) مؤسسي علم الاستشراق الأرمني. وتجدر الإشارة إلى أن العلماء الأرمن استفادوا من المصادر العربية أثناء دراستهم، ففي سنة 1806 استند العالم الأرمني إنجيجيان في مؤلفه عن الآثار الشرقية إلى كتابي الإدريسي (القرن الثاني عشر الميلادي) وأبي الفداء (القرن الرابع عشر الميلادي). ثمَّ تبعه سان مارتن

الـــذي طـــبع بين العامين 1818- 1819 مصادر عن تاريخ أرمينيا وجغرافيتها انطلاقـــاً مـــن بعض المصادر العربية كالمسعوديْ (القرن العاشر الميلادي) وابن حوقل والإدريسي (القرن الثاني عشر). ثمَّ ما لبث العلماء أن اهتموا بدراسة النقود المسكوكة في أرمينيا، وكذلك الكتابات العربية على الصروح المعمارية الأرمنية. وقامــتَ نخــبة مـــنهم بترجمة بعض المصادر العربية إلى الأرمنية، مثل آ. دير أوهانيسيانتس ("تاريخ تيمورلنك" للمؤرخ عربشاه)، والأب غيفونت آليشان (كتاب أبـــو الصـــلح الأرمني حول الأديرة في مصر وعن الوزراء الأرمن في العصر الفاطمـــي). وقام ب. خالاطيانتس بترجمة مقاطع من أعمال المؤرخين العرب عن الأرمن وأرمينيا كالبلاذري وياقوت الحموي والطبري وابن مسكويه وابن الأثير. ووردت في الموسوعة الإسلامية (بالإنكليزية ــ المجلد الأول) دراسة مفصلة عن الأرمـــن وأرمينـــيا بناءً على العديد من المصادر العربية. وفي النصف الأول من القـــرن العشرين تُرجمت إلى الأرمنية مقاطع من مؤلفات ابن الميسّر وابن خلكان وابـــن بطوطـــة، وفي النصف الثاني منه ترجمت نُبَذٌ من مؤلفات ياقوت الحموي وأبـــي الفداء وابن شداد وابن الأثير، وغدت موسكو وسانت بطرسبورك وتبليسي وإيتشـــميادزين والقســـطنطينية وفيينـــا والبندقية وكلكتا ومدراس ويريفان مراكز مـــرموقة لعلـــم الاستشـــراق الأرمني. ففي يريفان بدأ العلماء سنة 1923 ببعض الدراسات عن الآداب الشرقية، ثمَّ أنشئ معهد اللغات والآداب الشرقية سنة 1940، وفـــي سنة 1958 تأسس قسم الأبحاث الاستشراقية، وفي سنة 1968 تأسست كلية الاستشراق، والتي تحولت سنة 1971 إلى المعهد العالي للاستشراق. وفضلاً عن المجموعـــة الكبـــيرة من المقالات والمؤلفات التي تبحث في الدراسات الأرمنية، صـــدرت سلسلة من المجلدات أيضاً، ومنها على سبيل المثال: "ديوان الاستشراق" و"بلدان وشعوب الشرقين الأدنى والأوسط" و"المصادر الأجنبية عن أرمينيا والبلاد المجـــاورة" و"الشـــرق القديم" و"القفقاس وبيزنطة" و"علم المصادر الشرقية". ومن العلماء الأرمن الذين نبغوا في الدراسات العربية نعلبنديان وديرغيفونتيان، فقد كان لهمـــا باع طويل ليس في مجال علم الاستشراق الأرمني فحسب بل في مجال علم الاستشراق العربي أيضاً من خلال دراساتهم العلمية العديدة.

* * *

ليست العلاقات التاريخية بين الشعبين العربي والأرمني وليدة القرن العشرين كما يظن البعض، وهي لا تبدأ مع هجرة الأرمن إلى سورية وخاصة إلى حلب هرباً من المذابح التي وقعت في تركيا ضد الأرمن من قبل الإمبراطورية العثمانية سنة 1915. لقد غدت العلاقات العربية- الأرمنية متميزة ابتداءً من منتصف القرن السابع الميلادي، وتحديداً أيام الفتح العربي لأرمينيا، لذلك ينصبّ الاهتمام المتبادل بين مثقفي الشعبين إلى تلك الفترة. فالمؤرخون والرحالة العرب في القرون الوسطى كتبوا الكثير عن أرمينيا وكذلك فعلَ الرحالة الأرمن.

ولا مجال هنا لذكر جميع هؤلاء، لكننا سنتطرق إلى بعض الذين كتبوا حول حلب التي حظيت بنصيب وافر من الاهتمام من المؤرخين الأرمن لكونها مدينة قريبة جغرافياً من بلادهم ولأنها لعبت دوراً هاماً في تاريخ المنطقة.

يؤرّخ المؤرّخ الأرمني ماطيوس الرهوي، الذي عاش في القرن الحادي عشر، في كتابه "الحوليات" مرحلة زمنية تمتد من منتصف القرن العاشر إلى سنة 1137م. وكان شاهد عيان على العديد من الحوادث التاريخية الهامة ويقدم الرهوي في كتابه تفصيلات هامة عن حروب الفرنجة والوضع السياسي والعسكري في منطقة الشرق الأوسط، ويصف حصار الفرنجة لمدينة حلب سنة 1125م. وكيف أن بعض القوات ساندتهم بحيث اجتمع جيش كبير حول المدينة وبدأت حلب تعاني من خطر المجاعة حتى وصل أمير الموصل البرسقي واستطاع فك الحصار وإعادة الأمور إلى طبيعتها.

ومن الرحالة الأرمن الذين زاروا حلب سنة 1617 وكتبوا عنها ووصفوها وصفاً دقيقاً سيمون ليهاتسي. وقد أكد سيمون أن في المدينة ثلاثمائة وخمسة وستين خاناً، وكل واحد منها أجمل من الآخر، مستطرداً بأن هناك العديد من المحلات والحوانيت والمتاجر التي تحتوي على كل ما تطلبه في تلك الأسواق، لأنّ حلب مدينة تجارية كبيرة. وتكلّم الرحالة أيضاً حول الحركة التجارية في الخانات وعن بيع الأطلس والجوخ والحرير والقماش فيها، ثمّ تطرق إلى وصف الحمّامات مشيراً إلى أن مياهها وفيرة وصحية كما وصف بعض العادات والتقاليد الشعبية الحلبية.

فضـــلاً عن مؤلفات المؤرخين الأرمن هناك العديد من حواشي المخطوطات الأرمنـــية التـــي حفظت معلومات تاريخية هامة عن حلب لا نجدها في المصادر التاريخـــية الأخـــرى، وعلـيـــنا ألا ننســـى مواد الأرشيف والمراسلات والمقالات الصحفية وغيرها من الكتابات، ويا حبذا لو قام أحد الباحثين بجمع كل ما كتب عن حلـــب باللغة الأرمنية ثمَّ ترجمها إلى العربية ونشرها في كتاب خاص خدمة للعِلم ولمحبي التاريخ.

إن كتاب "ألف ليلة وليلة" الشهير لم يترجم إلى الأرمنية كاملاً إلا في النصف الثانـــي من القرن التاسع عشر، لكننا مع ذلك نجد ترجمات عديدة لبعض قصصه في المخطوطات الأرمنيةِ التي انتشرت انتشاراً كبيراً في الأوساط الأدبية الأرمنية ونسخت مرات عديدة وطُبعت مراراً خلال القرنين السابع عشر والتاسع عشر. من هـــذه القصـــص نذكـــر "قصة مدينة النحاس" و"قصة الفتاة والشاب" و"قصة الملك بهلول". لقد نُقلت هذه القصص إلى الأرمنية في القرن العاشرَ الميلادي بطلب من الأمـــير الأرمنـــي تافيت كوراغاباد، وابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي قام الشعراء الأرمن بإضافة بعض القصائد الجميلة إلى هذه القصص التي عرفت فيما بعد بتسمية عربية هي "كافا" أي "القافية".

علينا ألا ننسى كتاب "أقراباذين في علم طب الخيل" الذي يبحث في علم طب الخـــيل وتربيتها. تجدر الإشارة إلى أن الملك الأرمني هيتوم أتى بالنسخة العربية الأصـــلية لهـــذا الكتاب من بغداد ـــ عندما زارها لعقد معاهدة تحالف وصداقة مع الخلـــيفة العباســـي ـــ إلى مدينة سيس عاصمة المملكة الأرمنية في كيليكيا، حيث تمّـــت ترجمـــتها إلى الأرمنية لما فيها من معلومات هامة تخدم الجميع، ولكن بعد فـــترة فقـــدَ النص العربي للكتاب وترجم ثانية ولكن من الأرمنية إلى العربية في هذه المرة.

لقد قام أحد الباحثين في أرمينيا بطبع النسخة الأرمنية من هذا الكتاب الشيّق، وأما النص العربي فلا يزال في حالة مخطوط.

وهـــناك ترجمات أخرى لأعمال أدبية من كلتا اللغتين في القرون الوسطى، مـــنها كتـــب تاريخـــية وعلمية وطبية ودينية وأدبية، ومن هذه الكتب نذكر كتاب "تـــاريخ الأرمـــن" للمـــؤرخ الأرمني آكاتانكيغوس الذي عاش في القرن الخامس

الميلادي و"كتاب الثعلب" وهو مجموعة أمثال وحكايات شعبية على غرار كتاب "كليلة ودمنة"، فضلاً عن بعض الكتب الطبية والعلمية العربية وبعض المعاجم اللغوية.

نعتقد بأن مجموعات المخطوطات الأرمنية الموجودة في يريفان وجلفا الجديدة والقدس ولبنان والبندقية وفيينا تتضمن مفاجآت كبيرة حول علوم الاستشراق. فالنسخ الأصلية لكثيرٍ من الأعمال الأدبية في القرون الوسطى زالت مع الزمن وبقيت ترجماتها الأرمنية التي لها قيمة علمية كبيرة الآن وهي تترجم من الأرمنية إلى تلك اللغات خدمة للعلم.

واليوم، هناك فيض من الموضوعات المتنوعة يجب دراستها وفق اتجاهين هما: المصادر الشرقية ـــ لا سيما الموضوعات العربية، والمصادر الأرمنية التي يمكن أن تسلط الضوء على علم الاستشراق العربي. والمسيرة طويلة كي يتمكن الطرفان من تكوين أفكار صائبة عن بعضهما البعض قدر الإمكان.

* * *

وهنا، نودُ أن نتطرق بشكل سريع إلى مساهمة المصادر العربية في الدراسات والأبحاث الخاصة بالشعب الأرمني. ولابدَّ أن نذكر بأن أرمينيا منذ انتشار الدين الإسلامي خضعت للخلافة العربية ـــ مع الأخذ بالاعتبار كل سلبيات وإيجابيات هذا الأمر ـــ، وكانت تتمتع باستقلال ذاتي ويحكمها "أمير أرمني". كانت اللغة العربية آنذاك لغة دولية، ومن المرجح أن الأمراء الأرمن ورجال الدين تلقوا علومهم بها. نذكر زيارة الكاثوليكوس أوهانس أوتسنتسي للخليفة العربي في دمشق الذي اعترف وقدم مساندته للإمارة الأرمنية البقرادونية. كذلك تأثرت اللغة الأرمنية بالعربية، حيث دخلت إليها مئات الاستعارات العربية. وتقدم المصادر العربية معلومات وافرة عن نشأة الأرمن وأجدادهم ـــ ابن الكلبي ـــ القرن التاسع، ياقوت الحموي ـــ القرن الثالث عشر، الدمشقي ـــ القرن الرابع عشر)، فضلاً عن التسميات الإدارية والاقتصادية في أرمينيا وعن أوضاعها وأساليب حكمها ووضعها الإداري وعن العادات والتقاليد الشعبية الأرمنية (ابن المهلهل ـــ القرن العاشر الميلادي). ومن المؤلفات العربية الهامة التي تتكلم عن جغرافية أرمينيا،

كتاب المؤرخ العربي اليعقوبي (القرن التاسع الميلادي) الذي زار أرمينيا وكتاب "المسالك والممالك" للأصطخري ومؤلفات ابن حوقل والمقدسي (القرن العاشر الميلادي) التي تتضمن معطيات مثيرة عن جبل آرارات مثلاً. ويعد مؤلف ابن الفقيه (القرن التاسع الميلادي) المرجع العربي الوحيد الذي أمدّنا بمعلومات وفيرة عن الثروة الطبيعية في أرمينيا.

أول ترجمة من اللغة العربية إلى الأرمنية تمت في سنة 1222 وكانت كتاباً حول تفسير الأحلام من تأليف السلطان خلف (سلطان سيسيان وخراسان).

باختصار، إن التطورات الحديثة التي طرأت على علم الاستشراق العربي ضمن نطاق علم الاستشراق ككل، ساهمت وسوف تساهم في المستقبل في تطور الدراسات العائدة لعلم الاستشراق الأرمني.

* * *

علينا بالمقابل أن نلتفت إلى مساهمة المصادر الأرمنية لعلم الاستشراق عند دراسة تاريخ كلٍ من إيران والإمبراطورية العثمانية والقفقاس والهند وبلاد الشرق الأقصى وأثيوبيا، وبخاصة بعض الدول العربية كسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق. وترجمت مؤلفات العديد من المؤرخين الأرمن وأبحاثهم إلى العربية، منهم المؤرخ آكاتانكيغوس وسيبيوس وغيفونت وتوما آردزروني وأوهانس تراسخانا كردتسي واستيفان دارونتسي ـ آسوغيك وصموئيل وفارطان آريفلتسي وماطيوس الرهوي. ومن الأطباء الأرمن في العصور الوسطى الذي خلّد اسمه في تاريخ الطب العربي مخيتار هيراتسي، فقد كان يتقن العربية واليونانية والفارسية والأرمنية ومؤلفه المشهور بعنوان "تفريج الحمى". والعديد من الأدوية التي كانت تستعمل في أرمينيا انتقلت إلى الطب العربي والأوروبي، كالأرجَل الأرميني وبولوس أرمينيا... وتوجد كتابات وفيرة حول الإسلام وردت في مؤلفات بعض المؤرخين الأرمن.

**وأخيراً، نلخص أفكارنا كما يلي:**

**1 ـ إن الإنجازات الاستشراقية العربية ـ الأرمنية هي مصدر غنى لكلا الطرفين وتسلط الضوء على بعضهما البعض.**

2 ـ تتوفر مصادر كثيرة عن حياة وتاريخ الشعبين في كل المستويات، ومن الضروري أن نقوم بدراستها وترجمتها بالتعاون مع بعضنا البعض.

3 ـ بقي علم الاستشراق ملك العالم الغربي لمدةٍ طويلة. لقد قام علماء الغرب بإنجازات قيِّمة ولكنهم في غالب الأحوال قدموا استنتاجات مختلفة، بل وحتى قدموا صورة خاطئة عن الشرق أحياناً.

4 ـ يجب أن لا يخضع علم الاستشراق للمصالح السياسية والدينية. ومن الضروري إبراز القيمة العالمية لتاريخ الشرق وثقافته باتباع المبادئ والأصول العلمية المعاصرة، وفي بعض الأحيان بترجمة المؤلفات الهامة في هذا المضمار إلى اللغات الدولية.

وانطلاقاً من كل هذا، من الحيوي إنشاء ملتقى دولي ومركزي ومنبر للدراسات الأرمنية كأحد فروع علم الاستشراق في مدينة حلب، بغية دراسة اللغة الأرمنية والأدب الأرمني دراسة اختصاصية كمصدر لا يُستغنى عنه في العالم العربي. بل ومن الضروري أن يتابع الجيل الجديد والشبيبة علم الاستشراق والدراسات العربية والأرمنية بجديةٍ تامةٍ باعتبارها جسراً فكرياً ثابتاً يربط الشعبين العربي والأرمني.

5 ـ لقد اتسم التعايش الأرمني ـ العربي بنقلة جديدة في بداية القرن العشرين، إبان التهجيرات الأرمنية الكبيرة من أرمينيا التاريخية، فاستقرّ الأرمن في البلاد العربية وهم يكنّون لها وللشعب العربي كل الحب والوفاء، ومستعدون للتضحية والفداء من أجلها ومن أجل حقوقها المشروعة، ذلك لأنهم يقيمون وجودهم بحضور مبدع وخلاق في هذه العائلة الكبيرة التي تضم العديد من الشعوب وبكلمة واحدة تسمى "الشرق".

□□

# لمحة موجزة عن الشعر الأرمني القديم

## (العصور القديمة ـ القرن الثامن الميلادي)

■ إعداد: هوري عزازيان ■

إنّ الفترة التاريخيّة المذكورة ليست بالقصيرة، كما أنّ هذه اللمحة الموجزة ليست بدراسة شاملة عن تطوّر فن الشعر الأرمني في هذه الفترة، ولكنّها أشبه ما تكون بالنافذة على الإبداع الأرمني في جنس أدبيّ متقدّم، تكشف الأسلوب الذي فكّر به الشعراء الأرمن القدماء معبّرين فيه عن أنفسهم ومجتمعهم ورؤيتهم.

والتنوّع الوارد في هذا الموضوع يعبّر عن الطاقة الشعريّة لديهم، وبأنّهم لا يخضعون لقوانين مدرسة واحدة. لقد علّمتهم الطبيعة وجغرافية بلاد الأرمن وتاريخهم وثقافتهم المميّزة الشيء الكثير، فضلاً عن تأثير الثقافة الإنسانيّة عليهم. فالنتاج الشعري القديم يعطي صورة صادقة عن عاطفيّة ووطنيّة جيّاشة وانتماء صادق للبيئة والعصر واتكاء ملحوظ على الميثولوجيا (علم الأساطير)، مما قد يجد القارئ نفسه مألوفاً مع أبطال وحوادث هذه المختارات الشعريّة، فأولئك الشعراء كانوا أكثر التصاقاً بواقع الشعب الأرمني وانتماءً لتاريخه وقيمه ومعاييره وأرضه، والذين رصعوا صفحات تاريخه الحافل بالمآثر والبطولات والمآسي.. بلآلئ كوّنتها الحروف وحفظتها الأيام.

• • •

# مدخل

الشعب الأرمني هو من أقدم شعوب العالم وتعود جذور ثقافته الفكريَّة والروحيَّة إلى الأزمنة الموغلة في القدم. ويشكّل الوطن الأمّ ـ **أرمينيا**، والتراث الشعبيّ أساس الأدب الأرمني بمجمله. في الواقع، يُعدّ التراث الشعبيّ في جوهره الأدب الأرمني غير المدوّن الذي يتميّز بمضمون قومي وإنساني، ويضمّ الأساطير والملاحم الشعريَّة والحكايات والأمثال والمعتقدات... أبدعها الأرمنَ قبل عدّة آلاف من السنوات مِن ابتداع الأبجديَّة الأرمنية مِن قبل (القدّيس ميسروب ماشدوتس)(1) في القرن الخامس للميلاد، سنة (406م).

تجدر الإشارة إلى دور المثيولوجيا الأرمنية في الأدب الأرمني غير المدوّن، نتاج فكر الأرمَن وخيالهم. ولمّا كانت ميثولوجيا كلّ شعب مِن الشعوب تتصف بصفات خاصّة بها تختلف عَن غيرها، فإنّ الميثولوجيا الأرمنية تتميّز بخصوصيتها. ففي تلك الأزمنة الغابرة، خضع الإنسان الأرمني بدوره إلى الطبيعة وخلق مِن عناصر قوّتها الخيّرة والشرّيرة آلهة عبدها.

ومع المثيولوجيا تتكوّن اللغة والشعر أيضاً، ذلك لأنّه في الأدب تظهر شخصيَّة الشعب وخصائصه. وبالرغم مِن أنّ الميثولوجيا الأرمنية كانت غنيّة جداً، إلاّ أنّه لم تصل إلينا سوى مقتطفات شعريّة وردت في مؤلّفات المؤرّخين الأرمن القدماء، أمثال: (آكاتانكيغوس ـ AKATANKEGHOS) و(موسيس الخوريني ـ MOTSES KHORENATSY) و(بافسطوس البيزنطي ـ PAVESTOS PUYZANTATSY) و(غازار باربتسي ـ GHAZAR PARBETSY)، وتكشف عن تنوّع موضوعاتها وأشكالها وأساليبها الشعريَّة.

ويؤكّد بعض العلماء الأرمَن وجود أدب أرمني مدوّن في المعابد الوثنيَّة في أرمينيا وفي بلاط الملوك الأرمَن القدماء ولكن بلغات أُخرى غير الأرمنية، لربّما باللغة اليونانية، انتقلت أفكاره عبر العصور وتعبّر عن نظرة الشعب الأرمني ومشاعره وعاداته وتقاليده....

وينطلق الأدب الأرمني المدوّن بطابعه القوي ومضمونه العلماني مِن مختلف الإبداعات الشعبية. ومنذ أن ابتدع (القدّيس ميسروب ماشدوتس ــ ST. MESROB MASHDOTS) الأبجديّــة الأرمنية، بدأ الشعب الأرمني يكدّس خبراته وتجاربه في لغته الخاصّة، التي تحمل حصيلة تفاعله مع الكون والطبيعة والأمم والأحداث، وهي تشكّل أهم مقوّمات شخصيتّه الثقافيّة التي تميزه من سواه. ففي نسيجها يتناقل خصوصــيتّه ويحمــيها، وفــيها تلتقــي شــتاته، ومنها يقدّم شيئاً مِن ثقافته وأدبه وحضارته للشعوب الأخرى.

• • •

## الشعر الأرمني القديم غير المدوّن

إنّ أقــدم ما وصل إلينا من الشعر الأرمني القديم هو مقاطع مِن الشعر الملحمي الخاص للإله (فاهاكن ــ VAHAKN).

يذكر المؤرخ الأرمني (موسيس الخوريني)(2) في القرن الخامس للميلاد في مؤلّفــه "تــاريخ الأرمن" ــ حيث اعتمد في تأليفه على الأساطير الأرمنية القديمة وكلمته غنية بالمدخلات الفنية ــ أنّ القصيدة الشعرية: "**كانت الأرض والسماء في المخــاض...**"، كانــت منتشرة في القرن السادس قبل الميلاد، أيام الملك الأرمني (ديكــران يروانتيان ــ DIKRAN YERVANTIAN)، تكريماً وتمجيداً لولي العهد الأمير (فاهاكن)، زوج الإلهة (آسدغيك ــ ASDGHIG)(3)، وهي تخبرنا عن ميلاد الإله (فاهاكن) وعن أعماله البطولية.

لقد سبق وذكر المؤرخ الأرمني (آكاتانكيغوس) في القرن الخامس للميلاد في مؤلفــه "**تــاريخ الأرمن**"، أنّ الإله (فاهاكن) كان يهب البطولة والشجاعة للأرمن ولوطــنهم. وتجدر الإشارة إلى أنه وردت في هذا المؤلف التاريخي، الذي يتميّز بقــيمة تاريخــية وفنيّة وأدبية كبيرة، براهين كثيرة عن الميثولوجيا الأرمنية، وأنّ المؤرخ استند على الأساطير الأرمنية القديمة إلى حد بعيد.

فضـــلاً عن ذلك، يشرح (موسيس الخوريني) أنّ الإله (فاهاكن) كان معروفاً بلقــب "**قــاتل التنين**"، لأنّه قاتلهم بشجاعة فائقة وانتصر عليهم. ويشهد بأنه سمع بنفسه مقطعاً من هذا الشعر كان الأرمن يغنونه بمرافقة آلة موسيقية تسمى "بانتير" (PANTER) (4).

لكــنَّ كــلَّ هذا لا يعني أنَّ هذا الشعر الملحمي يعود إلى القرن السادس قبل المــيلاد. فالتحلــيل العلمــي الدقيق للغة وللنظام التصويري فيه، ثمّ المقارنة مع الرسوم التصويرية الواردة على الصخور في أرمينيا، يدلان على أنه ظاهرة ثقافيّة وأدبية قديمة جداً.

**كانــت الأرض والســماء فــي مخــاض**
**وكذلـــــك الـــــبحر الأرجوانـــــــي**
**وكانـــت تـــتمخضُ فـــي الـــبحر**
**القصـــــــبة الحمـــــــــــراء**
**وكـــان يـــنطلق الدخـــان مـــن القصـــبة،**
**ويـــــرتفع اللهـــــب مـــــنها،**
**ومـــــن خلالـــــه كـــــان يـــــركض**
**صـــــــــبي أشـــــــقر**
**كـــــان شـــــعره مـــــن الـــــنار،**
**• • •**
**وذقـــــــنه مـــــــن اللهـــــــب،**
**وكانـــت عيـــناه تـــسطعان مثل الشمس.**

فــالملاحم الشــعرية الروائية التي تروي عن الإله (فاهاكن)، هي من أروع ما كان يتغنى به الشعب الأرمني. كانت شخصيته رمز الخير والبطولة فقد حاربت القــوى الشــريرة وأعــداء الوطن، وأمّا هو فيُعدّ أقدم تعبير عن الشجاعة والنور

والشمس والرعد والبرق. واحتفظ الإله (فاهاكن) بمكانته الخاصّة لدى الأرمَن وغدا فيما بعد رمز النهضة الوطنيّة وشارك مشاركة حيّة في مسيرة تاريخ الأرمَن إلى القرن السابع الميلادي، حين ذكره عالم الفلك الأرمني (آنانيا شيراكا تسي ــ ANANAIA SHIRAKATSY) في دراساته العلمية عن الكون.

وتتّفق المصادر الأرمنية كلها على أنّ النموذج الآخر للشعر الأرمني القديم هو قصيدة (الولد فارتكيس ــ VARTKES DEGAH) فوفق (موسيس الخوريني) أُلّفت قصائد ملحميّة طويلة عن (الولد فارتكيس) لم تصل إلينا سوى خمسة أبيات منها فقط. وتقول الحكاية بأنّ الأمير الأرمني (فارتكيس) ــ الملقّب بـ "الولد" بسبب قوته الخارقة وثقافته البليغة ــ ، قدم برفقة شعبه إلى ضفاف نهر (كاساغ ــ KASAGH) قرب مدينة (آردِميت ــ ARDIMED)، وتزوّج من الأميرة شقيقة الملك الأرمني.

وهذه القصيدة هي إحدى القصائد الروائية الأولى التي قطعت مسافة ألف سنة تقريباً ووصلت إلى القرن الخامس للميلاد، حيث دوّنها (موسيس الخوريني) لقيمتها الاجتماعية والفنية والأدبية وأنقذ صفحة قيّمة من أقدم صفحات التاريخ والأدب الأرمني.

**ذهب الولد فارتكيس**
**من إقليم دوهاتس عبر نهر كاساغ**
**واستقرّ في هضبة شريش**
**قرب مدينة آردميت، وهو**
**ينوي أن يدقّ باب الملك الأرمني**
**كي يطلب يد شقيقته.**

حافظ الشعب الأرمني على أساطيره وأغنياته وفنّه وأدبه، وعلى تراث الملوك والآلهة، وعلى التقاليد الشعبية التي ترتبط بالطبيعة الخلابة لبلاده وبنمط معيشته.

ولعل أجمل الأمثلة هي تلك الأغنيات التي وصلتنا مِن إقليم (كوغتان KOGHTAN) الأرمني، الذي اشتهر بتراثه الغنائي الفريد. لقد كان الأرمن يعشقون القصائد الشعرية الغنائيّة التي كانت تروي الحكايات عن الملك الأرمني (أراداشيس الأول ــ ARADASHES I) (190 ق. م ــ 1م)، وعن الحوادث التي كانت تقع في البلاط الملكي.

يحدّد (موسيس الخوريني) بأنّ المختارات الشعرية التي وصلتنا من هذا الأدب غير المدوّن التي تُدعى "**أغنيات كوغتان**"، تُعدّ صفحة أدبية حقيقية وتعبّر عن حقبة تاريخية معيّنة عاشها الشعب الأرمني.

**"وامتطى الملك المقدام جواده الأسود الجميل..."**

تظهر من البيت الأول شخصية الملك الأرمني البطولية، تغلب عليها مشاعر الوطنية وحب الوطن. فقد كان يعشق طبيعة أرمينيا والاحتفالات والتقاليد الشعبية الحافلة.

وتروي "**أغنيات كوغتان**" أنّ الملك الأرمني حارب جيوش شعب (الآلان) (أو الأغوان) الذي كان يغزو أرمينيا بين حين وآخر ويخرّب قراها ومدنها العامرة. وفي إحدى المرّات جمع الملك (أرداشيس الأول) جيشه العرمرم والتقى بجيش الأعداء على ضفاف نهر (كورا آراكس ــ KURA ARAKS)، وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً، وأسر الأمير ابن الملك. وطلب ملك الآلان عقد صلح يعده بدفع الجزية والابتعاد عن الأراضي الأرمنية. ولكنّ الملك الأرمني رفض ذلك، عندئذ تقدّمت الأميرة الحسناء (ساتينيك ــ SATENIG) إلى ضفة النهر وخاطبت الملك قائلة....

**أتوسّل إليك أيّها البطل أرداشيس**

**أنت الذي انتصرت على شعب الآلان الشجاع.**

**تعال واسمع كلام ابنة شعب الآلان ذات العيون الجميلة،**

**وافرج عن الصبي.**

**فليس للأبطال الأسطوريّين قانون،**

يسمح بأسر سليل الأبطال الأسطوريين الآخرين
أو الاحتفاظ به كالخدم في عداد الأسرى،
وتثبيت العداء الأبدي
بين الشعبين الشجاعين

وتستمر الحكاية مؤكّدة أنّ الملك الأرمني عشق الأميرة الحسناء إثر سماع أقوالها فقرر الاقتران بها وعقد الصلح مع الأعداء. إلاّ أنّ أباها الملك أثارته الشكوك في عدم قدرة الملك الأرمني على دفع المهر المطلوب. فدفاعاً عن كرامته، خطف الملك الأرمني الأميرة الجميلة.

وامتطى الملك المقدام جواده الأسود الجميل
ورفع سوطه الذهبي الذي كان يشع نوراً ولهباً،
وعبر النهر كالنسر الجانح
ثمّ رفع السوط المتلألئ
ولفّ به خصر الأميرة الحسناء
التي شعرت بالألم،
وجاء بها طرف جيشه.

ويعبّر هذا المقطع الشعري عن شخصية الملك الأرمني التي تتّسمُ بالشهامة والإباء وحبّه للسلام. وأما حفلة العرس فكانت فخمة لا مثيل لها.

في عرس أرداشيس كان الذهب ينثر كالمطر الغزير،
وفي عرس ساتينيك كانت اللآلئ تمطر...

وتتميّز "أغنيات كوغتان" ببساطة اللغة وواقعية المشاهد التصويرية، على نحو يبرز براعة الشعراء وذوقهم الرفيع ومبادئهم الأدبية المميّزة.

وتبلغنا هذه الأغنيات ـ فضلاً عن أعمال الملك البطولية ـ عن مأساة الأسرة الملكية ورغبات الملكة (ساتينيك) التي لم تتزوّجه عن حُب، وعن أمنيات الملك الأخيرة وهو على فراش الموت.

**من يستطيع أن يقدّم لي الدخان الأرجواني**
**وصباح يوم عيد النافاسارت (5)،**
**حيث تركض الوعلان**
**وتكردح الآيائل،**
**حيث كنّا نعزف البوق**
**وندق الطبل،**
**على عادة الملوك.**

يُذكر بأنّ ألحان هذه القصائد كانت رائعة أيضاً ويغنيها الأرمن بمختلف طبقاتهم لأنّها كانت تروي الحوادث التاريخية وقصص أبطالها بأمانة كبيرة.

* * *

## الشعر الأرمني القديم المدوّن

مع إعلان المسيحية ديانة رسميّة في أرمينيا سنة (301م) من قبل الملك الأرمني (درطاد الثالث DERTAD III ـ 252 ـ 330م)، وتنظيم الكنيسة الأرمنية الرسولية من قبل (القدّيس كريكور المنوّر ـ KRIKOR LOUSAVORITCH (302 ـ 325م)، بدأت تتراجع مفاهيم الوثنية لتحلّ مكانها مفاهيم الدين الجديد، ثمّ فقدت أرمينيا مكانتها التاريخية وانقسمت سنة (387م) بين (بلاد الفرس) و(بيزنطة). وأثناء هذا المأزق السياسي الحرج، الذي كان يهدّد الهوية الأرمنية، ابتدع (القدّيس ميسروب ماشدوتس) الأبجدية الأرمنية سنة (406م)، تبعتها حركة الترجمة والتأليف وتأسيس المدارس في كلّ أنحاء البلاد بقيادة الملك الأرمني

(بهرام شابوه ــ VERAM SHBOUH) (392 ــ 414م) والكاثوليكوس (ساهاك بارثـيف ــ SAHAG BARTHEV) (387 ــ 438م) و(القدّيـس ميسـروب ماشـدوتس) ونخـبة من طلابهم. فعمّت البلاد نهضة ثقافية وأدبية وروحية لم يسبق لها مثيل.

توازيـاً مـع هذه المستجدّات، تطوّرت القداديس الكنسية بدورها، وظهرت مجموعـة من الشعراء الذين كتبوا قصائد دينية ومدائح وترانيم روحية. وهكذا بدأ عهد الأدب الأرمني المدوّن وسميت هذه المرحلة **بالأدب الروحي**، وكان من رواده الكاثولـيكوس (سـاهاك بارثـيف) و(القدّيـس ميسروب ماشدوتس) والمؤرخ (موسيس الخوريـنـي) والكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني ــ HOVHAN MANTAGOUNY) (478 ــ 490م).

اتّصـفت هـذه النخبة من الأدباء بعبقرية الإبداع، وأفلحت في التوفيق بين مؤلفاتهـا ومتطلبات العهد الجديد، وسميت إبداعاتها الشعرية بـ **"التراتيل"**. وهي قصائد شعرية ملحّنة، تستخدم في القداديس الكنسية المختلفة، وتتميّز بتنوّعها وبأنّ المفاهـيم الدينـيّة فيها أكثر تطوراً من الكلمة الفنية والمشاهد التصويرية. أي أنّها تتضـمن أفكاراً وأحاسيس علمانية ضمن نطاق المفاهيم الدينية على نحو لا يمكن الفصـل بيـنهما إلاّ بدراسة تاريخية وعلمية. أما من الناحية الفنية والأدبية، فإنّها تتّصف بلغتها البسيطة وأسلوبها المؤثر فضلاً عن ألحانها الشعبية الأصيلة.

ولابـدّ أنْ ننوه بأنّه توجد دراسات علمية تحليلية واسعة عن "التراتيل" تؤكّد بأنّها لم تتخذ شكلها النهائي في القرن الخامس للميلاد بل مرّت بمراحل تطوّر في القرون التالية.

ويـتّفق المؤرخون والنّقاد الأرمن بأنّ الكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني) كان رائد التيار المحافظ في الأدب الروحي الأرمني في القرن الخامس للميلاد.

فقـد كان من أبرز الشخصيات الدينية والوطنية وقد تميّزت مؤلفاته الشعرية بالوطنية أيضاً فضلاً عن الطابع الديني ــ الأخلاقي. ومن المختارات الشعرية تلك المهداة إلى المترجمين الأرمن الأوائل الذين أضاؤوا أرمينيا بنور العلم والمعرفة، وتتألف من (24) فقرة.

فلتبتهج اليوم كلّ الأمم والشعوب،
بأنّنا نحتفل بذكرى المعلمين القدّيسين،
الذين يشع منهم النور السماوي. (الفقرة 1)
إنّهم بقوة الحكمة الإلهية
أسسوا كرسي القدّيس كريكور (6)
مع تفسير حروف الأبجدية،
فلتباركوا الله بأغنية عذبة رقيقة. (الفقرة 13).

ونؤكد هنا أنّ ابتداع الأبجدية الأرمنية كان نقلة قومية فاصلة في تاريخ الشعب الأرمني، وقد غدا موضوع مؤلفات العديد من الأدباء والمفكرين في القرنين الخامس والسادس للميلاد بخاصّة.

كذلك، من أجمل مؤلفات الكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني)، قصيدة شعرية تتألف من (12) فقرة، يمجّد فيها "**العذارى هريبسيمياتس**" (7) (HRIPSIMYANTS GOUYSER) ويعظّم روح التضحية لديهنّ.

بالدفاع عن القديسين
ضد أصنام العبادة
كان أولئك العذارى المنتصرات أبداً
يجدن السعادة في الكفاح،
لأنّهن أحببن الله كثيراً
وباتباع مثال الربّ المتجسد؛
نلن إكليل الفخر. (الفقرة 2)

• • •

ثـمّ مـرت "التراتيل" بمراحل تطوّر تبلورت في القرن السابع للميلاد، حيث برز على مسرح الأدب الروحي الكاثوليكوس (كوميداس الأول ــ COMIDAS I) (615 ــ 628م)، وكـان بعـيد الشهرة بإنجازاته العمرانية والثقافية والأدبية. يُذكر بأنه فضلاً عن كونه شاعراً مبدعاً كان موسيقاراً فذّاً، وأجمع العلماء الأرمن على أنه كان أبرز شعراء العصر.

مـن أشهر مؤلفاته قصيدة شعرية تتألف من (36) فقرة وتكاد تكون ملحمية، وصـف فيها جمال "**العذارى هريبسيمانتس**" وإيمانهن وشجاعتهن. وتتميّز بلغتها السهلة المعبّرة والأوزان الشعرية المحددة والخصائص الفنية المتكاملة مع أسلوب موسيقي أخّاذ.

**مكرّسـات لمحـبة المسـيح،**
**شـهيدات سـماويات وعـذارى حكـيمات،**
**فخـراً لكـنّ، تحـتفل الكنيسـة الأم مـع الملائكـة**
**بعيدكـنّ بابـتهاج. (الفقـرة 1)**
**مـلأت الأصـوات السـماوية الأرض،**
**ولقـد انتشـرت رائحتكـنّ الزكـية قـرب المسيح.**
**أنتـن ضـحيات الإيمـان والخـلاص،**
**وحمـلان طاهـرة مهـداة للـرب. (الفقـرة 2)**
**لقـد لعـب الوثنـيون لعبـتهم**
**على لؤلؤة كريمة،**
**فوصلن من الغرب إلى الشرق**
**ليعظن علناً عن منظره (المسيح) الرائع. (الفقرة 11)**

فـي المرحلة الثانية بدأ المديح الديني بالانحسار تدريجياً ليحل مكانه المديح العلمانـي. ولمعـت فـي القـرن الثامـن للميلاد شاعرتان هما: (خسروفيوخت كوغتناتسي ــ KHOSRIVITIOUKHD KOGHTNATSY) و(ساهاكتوخت

سيونتسي ـ SAHAGTOUKHD SUYNETSY).

سـارت الأولـى على خطى الكاثوليكوس (أوهان مانتاكوني) والكاثوليكوس (كوميداس الأول)، وأغنت تراثها الشعري بقصيدة مميّزة تتألف من خمس فقرات، ألّفـتها في ذكرى استشهاد شقيقها الأمير (فاهان كوغتناتسي) سنة (737م). كانت القصيدة مديحاً تبنّتها الكنيسة الأرمنية وصنفتها في عداد "التراتيل". تجدر الإشارة إلى أنّ الشاعرة كانت بعيدة الشهرة في مجال التلحين أيضاً.

**إنّ رنيـن أصـوات رثـائك**
**يـبدو لـي عجيـباً**
**أكـثر مـن الألحـان الموسـيقية،**
**أيهـا الطوبـاوي السـيد فاهـان،**
**يـا مَـنْ اخـتارك الـرب. (الفقـرة 1)**
**إنّ نسـكك يـبدو رهيـباً**
**لطبـيعة جسـدي.**
**وأمـا أنـت ففضّـلت ذلـك**
**أيهـا الطوبـاوي السـيد فاهـان،**
**يـا مَـنْ أحـبّ الـرب. (الفقـرة 3)**

بيـنما اخـتارت الثانية الأدب الروحي. إنّها أخت الشاعر الأرمني (استيبان سيونتسي)، وكانت ملحّنة أيضاً، تنسّكت منذ نعومة أظفارها وألّفت قصائد شعرية روحية تركت أثراً ملموساً على مسيرة تطوّر "التراتيل".

من مختاراتها الشعرية، قصيدة تتألف من (10) فقرات تمدح فيها السيدة العذراء.

**أيـتها القديسـة مـريم، أنـت كنيسـة طاهـرة**
**أنـت أمّ ووالـدة خلـيقة حـية،**

مـــباركة أنـــت بيـــن النســـاء،
أيـــتها العـــذراء وأم الـــرب البهـــيجة. (الفقـــرة1)
لقـــد ظهـــرت علـــى هـــذه الأرض
مـــع أســـمى الملائكـــة الســـماوية،
وحملـــت فـــي حضـــنك
صـــاحب الجـــيوش الســـماوية.
مـــباركة أنـــت بيـــن النســـاء،
أيـــتها العـــذراء وأم الـــرب البهـــيجة. (الفقـــرة 4)

* * *

لقد خلّف الشعراء الأرمن القدماء في الفترة التاريخيّة الممتدّة ما بين العصور القديمـــة والقـــرن الثامـــن للمـــيلاد تراثاً أدبياً عريقاً، تميّز بقيمته الفنية والأدبية الأصيلة، فترعرع عليه العظماء من الشعراء الأرمن في القرون الوسطى، أمثال: (كريكور ناريكاتسي ــ KRIKOR NAREGATSY) و(نرسيس شنورهالي ــ NERSES SHNORHALY) وغـــيرهما، ولا يـــزال هؤلاء الشعراء الأوائل يلهمون الأجيال الجديدة بعبقرية وجمال إبداعاتهم الشعرية.

## الحواشي

(1) يعدّ (القديس ميسروب ماشدوتس) من أهم شخصيات التاريخ الأرمني، إليه يعود الفضل في إرساء أُسُس النهضة الثقافية والدينية التي شهدتها أرمينيا في القرن الخامس للميلاد والذي سمي بحق بـ "العصر الذهبي".

(2) يُعدّ المؤرخ (موسيس الخوريني) من أعظم المؤرخين وأبا التاريخ الأرمني، كما يلقّب بـ "هيرودوت الأرمن".

(3) الإلهة (أسدغيك) كانت إلهة الجمال لدى الأرمن.

(4) بانتير: هي آلة موسيقية أرمنية وترية قديمة جداً.

(5) أعياد النافاسارت ـ NAVASART: كان الأرمن يحتفلون برأس السنة في موسم الخريف أي مع موسم الحصاد الأول من شهر (نافاسارت) ـ الموافق 11 من شهر (آب) من التقويم الحالي ـ ، وكانت تعدّ من أهم الأعياد الأرمنية الشعبية.

(6) يعني تأسيس الكرسي الكاثوليكوسي في أرمينيا، وكان أو ل الجثالقة الأرمن (القديس كريكور المنوّر).

(7) "العذارى هريبسيميانتس": هي مجموعة من الفتيات المسيحيات كانت (هريبسيمة) أجملهن، قدمن من (روما) إلى أرمينيا هرباً من اضطهادات الإمبراطور الروماني (دقلديانس) 284 ـ 308م). لقد أراد الملك الأرمني درطاد الثالث أن يقترن بـ (هريبسيمة)، ولكنّ الفتاة رفضت الزواج من الملك الوثني، مما أثار غضبه، فلَقِيَنْ الشهادة على يديه.

## أهم المصادر والمراجع

1 ــ آبيغــيان، مــانوك، تصانيف (بالأرمنية)، المجلد الأول، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان (أرمينيا)، يريفان ــ 1966.

2 ــ آكاتانكــيغوس، تاريخ الأرمن (بالأرمنية)، الترجمة من اللغة الأدبية القديمة إلى اللغة الأرمنية الحديثة: آرام دير ــ غيفونتيان، منشورات جامعة يريفان، يريفان ــ 1983.

3 ــ بابايــان، لــيفون، مختارات من تاريخ العصر الإقطاعي المتقدّم في أرمينيا (القرن الرابع ــ القرن الثامن للميلاد) (بالأرمنية)، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان، يريفان ــ 1981.

4 ــ خوكاســيان، أنترانــيك، أســاطير أرمنية (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "لويس"، يريفان ــ 1985.

5 ــ سانطريان، فانيك، أبناء ماشدوتس (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "الكاتب السوفيتي"، يريفان ــ 1985.

6 ــ سركيســيان، الأب كاركين، لاهوت الكنيسة الأرمنية وفق التراتيل الأرمنية (بالأرمنية)، كندا ــ 2003.

7 ــ مكرديجيان، آشود، الأدب الأرمني في القرن الخامس (بالأرمنية)، منشورات دار النشر "هايستان"، يريفان ــ 1985.

8 ــ موســيس الخوريني (خوريناتسي)، تاريخ الأرمن (بالأرمنية)، الترجمة من اللغة الأدبية القديمة إلى اللغة الأرمنية الحديثة والحواشي: استيبان ملخسيان، منشورات جامعة يريفان، يريفان ــ 1981.

9 ــ تاريخ الشعب الأرمني (بالأرمنية)، المجلد الأول، منشورات أكاديمية العلوم في يريفان، قسم التاريخ، يريفان ــ 1971.

# أدب الأمثال الشعبية عند الأرمن

■ بقلم: كتّاب أرمن ■

■ ترجمة: أكوب ميخائيليان ■

*القصص أو الأمثال الشعبية هي من أقدم فروع الأدب الشعبي ذات الانتشار الواسع وهي جنس أدبي صغير الحجم له مضمون وعظي غايته حث الناس على التحلي بالأخلاق الحميدة والابتعاد عن الرذائل والخطايا.*

*هذا النوع من الفن الأدبي أبدعته الشعوب للتعبير عن فلسفتها في الحياة مدافعة دائماً عن الخير ومنكرة الشرّ وذلك لتوعية الناس وتوجيهها إلى الدرب الصحيح.*

*إلى جانب الإنسان تقوم الحيوانات والنباتات وحتى الأشياء الجامدة بأدوار البطولة، وهذا طبعاً بشكل مجازي لإخفاء المعنى الحقيقي وخاصة عند التعبير عن شكواها وسخطها على حكامها أو انتقادها لهم.*

هذه القصص تشبه في قالبها قصص الأطفال، ولكنها تخفي بين سطورها فلسفات يستمتع بها القارئ ويتأثر بمعانيها.

لقد اشتهر الأرمن كاليونان بين القدماء والهنود والعرب بالأمثال الشعبيّة منذ العصور الغابرة والتي كانت إما موضوعة أو مقتبسة من شعوب أخرى.

من أشهر مبدعي هذه الأمثال وجامعيها بين الأرمن "مخيتار كوش" Mekhitar Gosh و"وارطان ايكيكتسي" Vartan Aykegtsi.

## 1. مخيتار كوش

ولد العالم والمفكر ورجل القانون الأرمني مخيتار كوش حوالي عام 1120م فـــي "كانتساك: في أرمينيا. دخل في سلك الكهنوت وهو شاب، وسافر إلى كيليكيا ليكمل دراسته لدى علماء الجبل الأسود ثمَّ عاد إلى موطنه.

ذاع صـــيته في حقل الفلسفة فتتلمذ بين يديه الكثير من طالبي العلم وذلك من شـــتى أطـــراف البلاد. أطلقوا عليه تسمية "الراهب الكبير" لمكانته المرموقة بين الناس وفي حقل اختصاصاته.

عمـــل مستشـــاراً في بلاط الأمراء. له العديد من المؤلفات في تفسير الدين والمواعـــظ، كما اشتهر مؤلفه "كتاب القوانين" (كتاب الأحكام) ومجموعة قصصه وأمـــثاله الشـــعبية التي كانت تهدف إلى هداية الناس إلى الطريق القويمة للمعاملة ومعاشـــرة الناس والابتعاد عن العداوات والمؤامرات وذلك من أجل خلق مجتمع يسوده الوئام والتآخي. كان ينصح الناس بإطاعة الحكام ويشير إلى الحكام بمعاملة الناس بالعدالة والدفاع عنهم أمام الأعداء والمستغلين.

تـــتألف مجموعـــة قصصه وأمثاله الشعبية من 190 قصة وضعت في ثلاثة أقسام وهي:

1 ـــ أمـــثال حـــول الأخلاق، 2 ـــ أمثال حول الأساطير، 3 ـــ أمثال حول الإبـــداع، وهـــي جميعها منتظمة حسب موضوعاتها أو حسب أبطالها من الأجرام الســـماوية والنـــباتات والطبـــيعة والحيوانات والطيور والإنسان. ففي أمثاله عن الأســـاطير والإبـــداع يـــتحرك الأبطال بحيويّة كبيرة خلافاً للنباتات، فهنا الأمثال مستقاة من حياة الحيوانات والإنسان.

تعتـــبر مجموعـــة قصص وأمثال مخيتار كوش أول عمل أدبي وضع نثراً خلافـــاً لمـــا ســـبق من الأعمال الأدبية الأرمنية التي كانت جميعها مكتوبة شعراً موزوناً، لذلك اعتبر مخيتار كوش مؤسس الأدب النثري الفني عند الأرمن.

طبعـــت أمثال مخيتار كوش لأول مرّة عام 1790 في مدينة البندقية بإيطاليا وترجمت إلى الفرنسية والروسية.

وإليكم بعض هذه الأمثال الشعبيّة:

اجتمعت النجوم مرّة. فقالت أكبرهن سناً:

ـ إنـنا كـثر وعددنا كبير، فلماذا لا نستطيع أن نضيء النهار والليل مثل الشمس والقمر؟

فأجابت إحداهن: لأننا لا نضيء بتوافق ووئام.

فقـررت أولاً مطـاردة الشـمس وطردها، ولكن عندما طلع القمر وتغلب عليهن، قلن:

ـ إذا بهـت ضـوؤنا مـن شـدّة ضوء القمر، فماذا سيحدث عندما تشرق الشمس؟

خمدت النجوم وأعلنت عن فشلها...

• • •

سأل أحد الحكماء الأشجار:

ـ لماذا تمتد جذوركن في باطن الأرض كلّما ازداد طولكن؟

فأجابت الأشجار:

ـ كـيف لا تعرف وأنت الحكيم بأننا لا نستطيع مقاومة الرياح ونحن نحمل كـل هـذه الأغصان إذا لم تكن جذورنا في أعماق الأرض. ألا ترى تلك النباتات كيف تقتلعها الرياح لأنها لا جذور غائرة لها في الأرض.

• • •

أرسـل الفـيل ولده إلى أفلاطون ليتعلّم الحكمة، فحاول الفيلسوف في بادئ الأمر أن يعلمه كيف يركع في قاعة الدرس، ولكنه لم يقدر على ذلك. ثمَّ طلب منه أن يحني رأسه فلم يستطع أيضاً. فأرجع أفلاطون الفيل الصغير إلى والده قائلاً:

ـ يحق لولدك أن يكون واقفاً دائماً في البلاط الملكي وليس في قاعة الدرس عندي لأنه لا يعرف أن يركع أو يحني رأسه.

• • •

ضرب الرجل الجمل فغضب هذا الأخير وقال:

ـ لا تضربني أنا الحزين وإلا فإنني سأقتلك. وقال الرجل:

ـ كيف لي أن أعرف أنك حزين؟ ما هي العلامات؟

فردّ الجمل: عندما ترى شفتي السفلية متدلية وقوائمي الأربع لا تصدر صوتاً أثناء المشي، فاعلم بأنني حزين.

فقال الجمّال: وكيف لي أن أعرف ذلك، ما دامت شفتك السفلية متدلية دوماً وقوائمك الأربع لا تصدر صوتاً أثناء المشي أبداً؟...

## 2. وارطان ايكيكتسي

أمّا وارطان ايكيكتسي فقد ولد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. وهو يذكر بأنه ولد في قرية "مارات" أو "ماراتون" القريبة من مدينة حلب وكانت آنذاك إحدى أقضية حلب.

وهذه القرية التي يسميها أهلها اليوم بـ"معرات" أو "مرعات" تقع إلى الشمال الغربي لمنطقة عفرين بحوالي 5 كيلومترات والتي تبعد عن مدينة حلب قرابة 60 كيلومتراً. هي قرية صغيرة جميلة تحيطها التلال الغنيّة بالمغاير التي كان الرهبان يستعملونها كصوامع للتنسك للابتعاد عن الدنيا، كما تزدان هذه القرية بأشجار الرمّان والزيتون.

لو سألت أهلها حول تاريخ قريتهم، لردّوا عليك بكل فخر واعتزاز بأنها قديمة تعود إلى عهد الرومان والبيزنطيين، وهناك دلائل تثبت ذلك كالقبور والأحجار المنقوشة والمزخرفة والصلبان والكتابات اليونانية واللاتينية، كما أن بعض كبار السن في القرية يذكرون ما تناقلوه أباً عن جد، بأن حكيم قريتهم كان يسمى "وارطان وارطانوس" الذي كان يحكم هذه المنطقة قبل 800 سنة.

كان من المنطقي أن يسمى أديبنا بـ"وارطان الماراتي" نسبة إلى مسقط رأسه ولكن الرهبان في ذلك الوقت كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأديرة التي كانوا يقيمون فيها، لذا سمي بـ"وارطان ايكيكتسي "نسبة إلى دير" آيكي" أو "آيكيك" ومعناها بالأرمنية البستان أو الكرم، حيث أمضى الكاتب فترة من حياته.

انتقل وارطان من "مارات" إلى دير "أركاكاغين" في كيليكيا ليكمل دراسته ثمَّ رحــل إلى مدينة "آمد" ولكنه لم يجد هنا الهدوء الذي كان ينشده فقرر ترك الدنيا وملذاتهــا واللجــوء إلــى الدير. وبمساعدة أمير كيليكيا آنذاك "ياغدين" انتقل إلى نواحــي الجبل الأسود القريبة من أنطاكية، حيث كان الرهبان يمضون حياتهم في التنسك.

نقرأ في إحدى رسائل وارطان إلى الأمير باغدين...

"أنا وارطان المغفور له، الجاهل بين العلماء... كتبت هذه الكلمات إلى الأمير باغدين سائلاً:.... في سنة الأرمن (ر.ك.أ) أي (1212) وكان ملك الأرمن ليفون روبينيانس يحكم كيليكيا..."

في عام 1220 يظهر وارطان في دير "ترازارك"، حيث بقي مدّة من الزمن وكتب الكثير من أمثاله وقصصه.

إن تــاريخ وفاة وارطان ايكيكتسي غير معروف أيضاً، ولكنه يذكر في كتابه عــن "غــزو شعب غريب شرّير لأرمينيا" ويعني المغول "الذين دخلوا أرمينيا في أوائــل عــام 1220م. ثــمَّ يتابع قائلاً "الشيخوخة والآلام الطويلة أعمت بصيرتي وبصري" فإذا قبلنا بفكرة عيشه حتى الشيخوخة البغيضة كما يصفها، فهناك أساس للافتراض بأنه توفي حوالي العام 1240م.

لــيس من المستبعد أن تكون قصص وأمثال "إيسوب" اليوناني معروفة لدى الأرمــن منذ القديم إلى جانب قصص الفيلسوف "فولبيانو" وذلك نسبة إلى المؤرخ الأرمنــي "توفما آرذروني" لذلك فمن المعقول جداً أنه كانت هناك كتب لمجموعة الأمــثال والقصــص الشعبية مثل مجموعات وارطان التي إما اختلطت فيما بعد بأمثال وارطان، أو بقيت على حالها ونسبت إليه.

كتــب وارطان أيكيكتسي أكثر من 400 مثل وقصة. والشعب هو مؤلف هذا الــنوع مــن الأدب قبل أي كاتب، ولذلك تبقى شخصية الكاتب في المرتبة الثانية، ولكــن قــيمة هــذا المؤلف كبيرة قبل كل شيء كجامع لهذه الأمثال وكمفكر قام بتفسيرها وتدوينها بأسلوب بسيط وجميل وصياغة أدبية بليغة.

حتّى وإن كانت أمثال ايكيكتسي تحتوي على الكثير من المواعظ الدينية، إلا أنها تعتبر فلسفة دنيوية لا روحانية قبل كل شيء.

كتب وارطان ايكيكتسي يقول: "يا ويلي يا أبنائي الذين ستأتون إلى الدنيا من بعدي، لأنني أرغب برؤيتكم لكنني لن أستطيع، لأنني سأكون قد تحولت إلى تراب في قبري، لذلك سأتحدث إليكم بواسطة هذا الكتاب حتّى خمسة أجيال أو سبعة وسأبقى معكم بروحي دائماً.

لقد صدق وارطان ايكيكتسي وبقي ذكره أكثر ممّا كان يُتكهن ولاشك بأنه سيبقى أجيالاً وأجيالاً أخرى...

كان ايكيكتسي جريئاً في مواعظه، يوبّخ نسوة المدينة من فوق منبر الكنيسة قائلاً "إنهم يحببن التبرّج والتزين ومسح أعينهن ووجوههن بأنواع العقاقير والمساحيق لإثارة الشبان. إنهن يمنعن أنفسهن عن إنجاب الأولاد بأدوية شيطانية ويصفن هذه الأدوية لغيرهن من النسوة.

كان وارطان ينذر الذين يعطون الأموال بالفوائد ويستغلون الفقير والفلاح ويغشون في الأوزان ويخلطون الحليب بالماء... بنار جهنم.

لقد صدر هذا الكتاب تحت عنوان "كتاب الثعلب" لأول مرّة في أمستردام (هولندا) عام 1668، ثمّ في مرسيليا (فرنسا) عام 1676 وعام 1683، وهكذا ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر طبعت مجموعة الحكايا هذه أربع مرّات، بينما نشرت في أرمينيا السوفيتية مرّات عديدة.

عندما نقارن وارطان ايكيكتسي بالكاتب الفرنسي المعروف "لافونتين" نجد أنفسنا أمام لغز!... لأنّ أمثال وارطان كما أشرنا آنفاً قد طبعت في أمستردام بهولندة عام 1668 بعد أن قام اثنان من الرهبان الأرمن بترجمتها، ونحن نعلم من الأدب الفرنسي بأن لافونتين نشر أمثاله لأول مرة في نفس العام أي في 1668 وبعد ذلك وفي عامي 1678 و1694 طابع أمثالاً جديدة.

هناك الكثير من أوجه الشبه بين أمثال وقصص هذين الكاتبين. إنه من غير المعقول أن يكون وارطان قد استفاد واقتبس من قصص وأمثال لافونتين أنه ولد قبل لافونتين بأربعمائة عام على أقل تقدير.

لذلك فهناك أسباب للاعتقاد بأن العكس هو الصحيح، أي أن لافونتين هو الذي اقتبس ونقل من أمثال وقصص وارطان ايكيكتسي.

إن فرضيتنا هذه تتأكد وتتعمق ببرهان آخر ففي عام 1891 وصل إلى أرمينيا ولفترة بضعة أشهر، المستشرق الفرنسي الضليع في علم اللغة الأرمنية (أنطوان ماية) ومن هناك كتب بعض الرسائل إلى ابنة عمه في باريس. لقد طبعت هذه الرسائل مؤخراً (في عام 1987) باللغة الفرنسية في فيينا. وفي إحدى تلك الرسائل يقول "أنطوان ماية":

"استغربت حين سمعت من أفواه القرويين الأرمن في أرمينيا الأمثال الشعبية التي سمعناها وتعلمناها من لافونتين".

فمن غير المنطقي أن يكون القروي الأرمني قد تعرّف إلى لافونتين قبل مائة عام ولكنه من المعقول أنه سمعها من آبائه.

ترجم العلامة خير الدين الأسدي بعض هذه الأمثال إلى اللغة العربية وطبعت في أوائل الخمسينات من القرن الماضي في مدينة حلب. وإليكم مجموعة من قصص وأمثال "كتاب الثعلب" لوارطان ايكيكتسي.

* * *

## سبب الحرب قطرة عسل

كان لرجل حانوت يبيع فيه العسل فوقعت قطرة من العسل على الأرض فجاءت ذبابة وحطّت عليها وهنا قام الهر وضرب الذبابة بقائمته، فجاء الكلب وضرب الهر فقتله فقتل صاحب الحانوت الكلب، وكان الكلب من قرية مجاورة، فعندما سمع صاحبه ما أصاب كلبه جاء وقتل صاحب الحانوت، عند ذاك خرج الفلاحون من القريتين وتحاربوا وقتل بعضهم بعضاً وبقي رجل واحد على قيد الحياة، وكان سبب كل هذا قطرة عسل.

* * *

## الليث والثعلب والدب

مــرض الليــث، فجاءت الحيوانات جميعها لزيارته، ولكن الثعلب تأخر عن الحضور، فاستغل الدب فرصة غياب الثعلب وأخذ يتكلم عنه بالسوء ولكن الثعلب ســمع كلمات الدب من فتحة الباب فأسرع بالدخول وألقى بنفسه عند قدمي الليث الذي سأله: لماذا تأخرت أيها البغيض. فقال الثعلب: لا تغضب أيها الملك العادل، أقســم برأسك على أنني كنت في زيارة كبار الأطباء بشأن مرضك، تعبت وشقيت كثيراً ولكنني عرفت دواءك.

أهــلاً وســهلاً بــك أيها الحيوان الذكي ــ قال الملك، مهلاً ــ وما هو ذلك الدواء؟. فقال الثعلب: إنه ذو فائدة كبيرة ومن السهل الحصول عليه. فقد نصحني الأطباء أن تقوم بسلخ فروة الدب وتلف به جسمك وهو ساخن فتشفى فوراً.

أمــر الملــك، فأمسكوا بالدب وأخذوا يسلخون فروته وهو يصرخ من شدّة آلامه. أمّا الثعلب فقد قال للدب: هذا جزاؤك وجزاء المرائين أمثالك.

• • •

## الجندي الذكي

ذهب جندي ذكي إلى الحرب وهو يعرج برجليه. فقال له أحدهم: أيها البائس إلى أين تذهب؟ ألا تعلم بأنهم سيقتلونك لأنك لا تستطيع الهرب.

فقال الجندي: أيها الساذج، إني لا أذهب إلى الحرب كي أهرب بل كي أقف وأقاتل وأنتصر.

• • •

## الملك والثعبان

كـــان للملك ثعبان يحبه كثيراً. ورزق بولد فأخذ يداعبه فوق العرش كل يوم ويرمي الثعبان على ولده وهكذا كان الطفل والثعبان يلعبان.

وفـــي أحـــد الأيام وعندما كبر ابن الملك أخرج سيفه أثناء اللعب وقطع ذيل الثعبان ورماه على الأرض، فغضب الثعبان ولدغ ابن الملك الذي مات. أمَّا الثعبان فقد ترك القصر وذهب إلى بلاد بعيدة.

عــندما جاء الملك ورأى ابنه ميتاً، مسوداً من لدغة الثعبان وإلى جانبه ذيله، أدرك بـــأن ولده كان السبّاق في قطع ذيل الثعبان حتى لدغه الثعبان، فحزن كثيراً ودفنه في المقبرة.

بعـــد مضي زمن طويل، بعث الملك يطلب إلى الثعبان ويرجوه أن يعود إلى القصـــر قائلاً: أعرف أن ابني هو المذنب فقد قطع ذيلك ومن ثمَّ قُمت أنت فلدغته وقتلته، فتعال ننسى الموضوع وما جرى قد جرى فلنعش كالسابق على المحبة.

أجابـــه الثعبان: ليس الأمر كما تقول، لأنه كلّما نظرت أنا إلى ذيلي المقطوع ورأيـــت أنـــت قبر ولدك بقيت العداوة بيننا لذلك فمن المستحسن أن نبقى بعيدين أحدنا عن الآخر كي لا تكبر العداوة بيننا.

* * *

## الأمير والأرملة

كـــان هـــناك أمـــير شرير يحكم مدينة تعيش فيها أرملة بائسة. وكان الأمير يضايق الأرملة مطالباً إياها بالضرائب الكبيرة، أمَّا الأرملة فقد كانت دائماً تصلي وتدعو إلى الله أن يطيل عمر الأمير.

ذهبـــت جماعة الأمير وقالوا له إن الأرملة تصلي من أجله بدلاً من الشكوى تجاه أعماله الشريرة ومضايقته لها. فذهب الأمير إليها وقال لها: لماذا تصلين من أجلي أيتها المرأة وإني لم أعمل خيراً لك؟

قالت الأرملة: كان والدك رجلاً شريراً لقد لعنته فمات فجئت أنت في مكانه فكنت أكثر شراً منه. وأخاف الآن أن تموت ويأتي ابنك من بعدك ويكون أكثر شراً منك ومن أبيك لذلك أصلي من أجلكِ.

• • •

## اللصان الساذجان

صعد لصان سطح دار رجل غني وأرادا النزول إلى البيت وكان القمر يضيء في السماء. عرف صاحب البيت أن هناك لصوصاً على سطح المنزل فسألته زوجته: من أين لك كل هذه الثروات والذهب والأقمشة يا زوجي؟ فقال الزوج: كنت أذهب لسرقة بيوت الأغنياء في الليالي المقمرة كهذه الليلة وكنت أنزل من السطح إلى البيت محتضناً أشعة القمر ثمَّ أنطق بكلمة فتظهر لي كل الأقمشة الموجودة في الدار فكنت أجمعها وأربطها بأشعة القمر وأرفعها.

عندما سمع اللصان هذه القصة فرحا كثيراً ثمَّ احتضنا أشعة القمر وسقطا في فناء البيت وتكسرت أطرافهما.

• • •

## الخيزرانة والأشجار

خرج الملك للتنزه في الجبال والوديان فرأى أشجاراً كبيرة مكسَّرة ومقلوعة من جذورها متناثرة على الأرض. وكانت هناك خيزرانة واحدة تقف منتصبة في مكانها، فسألها الملك: أيتها الخيزرانة كيف بقيت منتصبة في الوقت الذي تكسَّرت فيه كل هذه الأشجار الشامخة. فقالت الخيزرانة: أيها الملك عندما هبّت الرياح العاصفة وقفت الأشجار أمامها بكبرياء فكسرتها الرياح، أمَّا أنا فقد انحنيت وطأطأت رأسي أمامها ولم أزل منتصبة في مكاني.

• • •

## الخمر

كان لملك ابن وحيد فأمر نوابه باصطحابه بالتناوب وتكريمه. وذات يوم كان الابن بصحبة أحد النواب. وعند المساء أعاده النائب إلى القصر وتركه ورحل وكان ابن الملك مخموراً جداً فوقع في المزبلة ومات.

فأمر الملك بإغلاق بساتين الكروم في مملكته وتحطيم كافة الدنان. ففعلوا كما أمر.

وكان لأرملة ولد وحيد وقد أخفت محصولها وكانت تقدم صباح مساء كل يوم طاسة من الخمر لابنها بعد الطعام.

وفي ذات يوم خرج ابن الأرملة ليلاً وقتل سبع الملك فأعلن الملك في صباح اليوم الثاني أن الذي قتل سبعه إذا جاء إليه وروى له كيف قتله فلن يعاقبه. جاءت الأرملة مع ابنها إلى الملك فسأله كيف قتل السبع. فرد الصبي قائلاً أنه خرج ليلاً وصادفه وقتله. أمّا الأرملة فقد أضافت أنها كانت تسقيه الخمر وروت له كيف كانت تسقيه.

حينذاك أمر الملك بغرس الكروم وبشرب الخمر على أن يقتل شاربه السباع ولا يموت في المزابل.

• • •

## حساب الشعير

كان رجل ينقل الشعير على حمارته إلى بيته وكان الجحش الصغير يمشي إلى جانب أمه ويلتفت إلى الوراء بين الحين والآخر.

وفي البيت الذي كانوا ينقلون إليه الشعير كان هناك خنزير مربوط يطعمونه ليسمن بالشعير المتوفر أمامه دائماً سأل الجحش أمه: لماذا يأكل هذا الخنزير الشعير الذي ننقله بمشقة دون أن يعمل ونحن الذين نتعذب ونشقى يطعموننا مرة واحدة في اليوم؟

فقالـت الأم: اسـمع يـا بنـي انتظر أسبوعاً واحداً وسترى بعينيك ثمَّ أردَّ على سؤالك.

بعد أسبوع وبينما الحمارة وصغيرها يعودان إلى البيت بالحمل وكان الصغير يسـبق أمـه، سـمع صوتاً، فقد كانوا يذبحون الخنزير، فارتعد الصغير وركض فاقترب من أمه، فسألته أمه: ماذا جرى لك يا بني فخفت وأصابك الذعر؟ لا تخف من الخنزير، إنهم يطالبونه بحساب الشعير.

وذات مـرة.... عـادت الحمارة وصغيرها من الحقل بعد نقل الشعير ولما وصلا إلى البيت رفع الجحش حافره وقال: انظري يا أمي إلى حافري، أخاف أن تكون حبة شعير عالقة به فيطالبونني بها كما فعلوا بالخنزير.

• • •

## القاضي الحكيم

كان لرجل زوجة شريرة، تشاجرت معه ذات يوم قائلة: هل تظن أن أولادك الـثلاثة مـنك؟ الواحد فقط منك أمَّا الاثنان الآخران فإنهما غير شرعيين. فسألها الرجل: أي واحد منهم ابني؟ ولكن الزوجة لم تجبه على سؤاله.

وفـي أحد الأيام عندما كان الزوج على فراش الموت قال: أترك كل ثروتي لولدي الحقيقي، ومات.

فـأخذ الأخـوة الـثلاثة يـتقاتلون وكل واحد منهم يدَّعي أنه الابن الحقيقي والوريـث الشرعي. ذهبوا إلى قاض حكيم ليحكم بينهم بالعدل فأمر بإخراج جثة أبيهم من قبره وإطلاق السهام على الجثة ومن يستطيع أن يصيب الجثة فهو الابن الحقيقي.

استطاع اثنان إصابة الجثة بسهامهما أمَّا الابن الثالث فقد استل خنجره وهجم على أخويه ليقتلهما ثمَّ بكى وأعاد الجثة إلى القبر.

عند ذاك عرف الجميع أنه الابن الحقيقي فأعطوه ثروة والده.

□□

# لقاء صحفي مع الروائي الأرمني وليم سارويان

## (1908 - 1981)

■ بقلم: زوري بالايان ■

■ ترجمة: نبيل المجلي ■

من هو وليم سارويان WILLIAM SAROYAN؟

*- ولد في مدينة (فريسنو) Fresno بولاية كاليفورنيا عام 1908*

*- هاجر أبواه من أرمينيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبيل ميلاده بفترة قصيرة.*

*- توفي أبوه وهو في الثالثة من عمره فألحق بمؤسسة للأيتام، مكث فيها خمس سنوات.*

*- اضطرت أمه للعمل كي تدبر نفقات معيشته هو وأخوته.*

*- ألحق بالمدرسة حتى سن الخامسة عشرة.*

*- مارس في صباه مهناً عديدة كبيع الصحف وجني العنب ثم عين موزعاً للبرقيات.. أغرم بالقراءة منذ الصغر، وثقف نفسه بنفسه، مما هيأ له العمل في الصحافة فيما بعد.*

*- صدرت أول مجموعة قصصية له عام 1934: (الفتى الجريء على الأرجوحة الطائرة.)*

❑ **من مؤلفاته القصصية:**

- الأطفال الصغار (1937).
- يا حب.. هاك قبعتي (1938).

- السلام.. شيء رائع (1938)
- اسمي آرام (1939).

☐ **من مؤلفاته المسرحية:**

- قلبي في الأراضي المرتفعة (1939)
- الناس الحلوين (1941).
- رازل دازل (1941).

☐ **من مؤلفاته الروائية:**

- الملهاة الإنسانية (1943).
- مغامرات ويلزي جاكسون (1946).
- روك وإجرام (1950).
- أمي.. أحبك (1956).
- أبي.. أنت أحمق (1957).
- هنا يأتي، هنا يذهب، وأنت تعرف من يكون (1961).
- منح جائزة (بوليتزر) عن مسرحية (أيام حياتك) ضمن مجموعة المسرحيات (قلبي في الأراضي المرتفعة). لكنه رفض استلام الجائزة لأنه يكتب من أجل الفن والإنسان لا من أجل أي اعتبار آخر.
- توفي عام 1981.

تحت عنوان "حوارات من أجل قوة السوفييت..." نشرت مجلة الأدب السوفيتي "Soviet Literature" في عددها الصادر في الشهر 12 من عام 1977 مقابلة مع الروائي الأرمني الأصل والذي ولد وعاش جل حياته في الولايات المتحدة الأمريكية وتوفي فيها، أجريت خلال إحدى زياراته لأرمينية. أجرى المقابلة زوري بالايان ZORI BALAYAN وفيما يلي نص المقابلة القيمة:

**بالايان: أيها المعلم، زرتم الاتحاد السوفيتي لأول مرة في 1935. ورحلتكم التالية إلى هذا البلد جاءت بعد ربع قرن. وهاأنتم مرة أخرى. إن الفترات الزمنية التي تفصل بين كل زيارة من زياراتكم عن الأخرى كانت طويلة فعلاً. أود بالتالي أن أسألكم السؤال التقليدي: ما هي التبدلات التي لاحظتموها؟**

**ســـارويان:** أود بادئ ذي بدء أن أقول إنني لاحظت أيضاً تبدلات في نفسي. ولســت أخشــى أن أتهم ثانية، كما جرى من قبل، بكوني ذاتياً زيادة عن الحد أو بكونــي أنــزع إلى رسم الذات. لأنه في مثل هذه اللحظات تحدث التبدلات داخل المــرء. فكــر فقط في ذلك: لقد جئت أول مرة إلى أرمينيا حين كنت في السابعة والعشــرين من العمر. في المرة الثانية كنت في الـ 52، والآن أنا في الـ 68. رجل عجوز إنها تماماً مثل اللوحة الذاتيّة الفلسفية الشهيرة التي لا تنسى لساريان ــ أعمــار الفــنان الــثلاثة علــى لوحة واحدة. إنها من كلّ النواحي لوحة لثلاثة أشــخاص مختلفين. لكن توجد بالنسبة لوليم سارويان في كلّ رحلة من الرحلات الــثلاث عــامل رابط: الانفعال المفرح الذي شعرت به حين وضعت قدمي فوق ترابــي الأرمني. عموماً، يصعب التعامل مع التبدلات باختصار. أستطيع أن أقول فقــط إننــي وجــدت في رحلتي الأولى أن الأدب الأرمني مجسد في تشارينتس، وإســاكيان، وديميرتشــيان، وفي الثانية ــ بماري، وكوتشار، وزاريان، والآن قدْ أستلم للتو جيل شاب. هناك شعور بالتعاقب. وهذا ليس فقط في حالة الكتاب. فلقد حدثــت الــيوم مــثلاً، أن لدى أحد بنائي الحجارة بالوراثة والذي يبلغ الستين من العمر، وهو صانع الألواح الحجرية المنحوتة المذهلة خاتشكار، ثلاثة أبناء يعملون معــه. إن تقاليد معلمي نحت الحجارة الأرمن يجري الحفاظ عليها. أجل أنا أرى، وأراقــب، وأحــس بالتبدلات. قبل واحد وأربعين عاماً مضت رأيت للمرة الأولى لــيس يــريفان فقط بل وموسكو، أيضاً. في هذه الرحلة أيضاً أتيت إلى هنا عبر موســكو وصــدمت بحقيقة أن الكثير قدْ تغير في هاتين المدينتين. فكلتاهما نمت بصورة هائلة وأصبحت أنيقة في نفس الوقت.

**بالايــان:** قابلــتم مارتيروس ساريان الذي حفلت لوحاته، مثل كتبكم بالضوء والأحلام، أكثر من مرة. رسم ساريان صورة لكم...

**ســارويان:** ساريان حي مع رسومه في ذاكرتي. كنت أنظر إليه وأفكر: كم هو مدهش أنه في الثمانين من العمر! كنت مسروراً أنه في هذه السن الوقور مفعم بالحــياة ويمــتلك ذهــناً صــافياً ويداً ثابتة. جعلني هذا آمل أنه يمكنني أن أكون أنا أيضاً قادراً على الاستمرار في العمل لوقت طويل. إنه من الصعب الحديث عن فــنان. بالأمس زرت المتحف المنزلي للمعلم وكنت طوال الوقت الذي بقيته هناك أجد نفسي بحاجة لأن أفعل شيئاً واحداً فقط ــ أن أبقى ساكناً. لأنني، كما تعلم، لا

أعمــل في اللوحات بل هي التي تعمل فيّ. وللإيجاز، إنه ذات الشيء القديم الذي كان نقادي يوبخونني من أجله دائماً.

**بالايان:** ما يسمى بذاتيتك؟ هل تعتبر ذلك منصفاً؟

**ســـارويان:** إن نقـــادي باتهامهم لي بهذا، لا يخامرهم الشك أبداً أنهم كانوا، عامديـــن أو صـــدفة، يصفونني بدقة أنني كاتب الرواية في الاعتبار الأخير، هي الروائي والقصة هي القاص. نحن نتعرف إلى الكاتب لا من خلال أسلوبه وحسب وإنمـــا من خلال عمق مشاعر المؤلف كشخص، وكفرد. أنا، مثلاً، لن أصدق أبداً أن كـــل الضيق النفسي الموجع الذي نراه في أبطال دوستوييفسكي يمكن أن يكون قدْ ابتدع أثناء جلسة المرء على مقعد، كما يقال. مرة لفت نظري عنوان: ربما كان حكايـــة معاناتـــي أو ربمـــا قصة ما مررت به. شعرت أن على المرء ألا يعطي لكتاباته مثل تلك العناوين لأن الكتاب يكتبون دائماً عما عانوه أو مروا به. لهذا أنا لا أقبل تعبير "ذاتية". إن حياة همنغواي الشخصية كلها موجودة في كتبه. أنا أحب وأقـــدر توماس وولف كثيراً وأذكر أنني ابتهجت، حين اتهم هو أيضاً بنفس الكلمة سيئة السمعة.

**بالايـــان:** حدثتنـــي، يا معلم، أنك وثني بطبيعتك، وأن لديك كثيراً من الآلهة التي تحميك حينما تكتب. سمّ لنا بعضها من فضلك.

**سارويان:** الصدق، والإخلاص، والسخرية...

**بالايان:** منحتم جائزة نقاد نيويورك على كتابكم "وقت حياتك". ما هو موقفكم من النقد هذه الأيام؟

**سارويان:** أنا شخصياً، لا أستطيع فقط أن أعمل بدون النقد، وإنما أستطيع أن أقوم بهذا بسعادة فعلاً. أظن أن الأدب أيضاً بمعنى محدد، يستطيع أن يحيا بدونه، الأمـــر الـــذي لا يمكن أن يقال عن النقد بما أنه لا يمكن أن يوجد من غير الأدب ســـابقاً فـــي الماضي البعيد حين كانت الإلياذة والأوديسة تكتبان، لم يكن هناك نقد رســـمي ولم يكن ثمة مشكلة: ولا أظن أن هوميروس أصيب بالعمى في شيخوخته لهذا السبب. فيما يتعلق بي، يجب أن أعترف أنني أحب أن أمدح لكنني لا أنزعج كثيراً جداً حين أطرق بالمطارق. في هذه المسألة كما في كثير من المسائل، أشعر بقـــرب لا نهائـــي وتعاطف مع تشيخوف العظيم الذي تعلمت منه ـــ كيف أصوغ هذا؟ ـــ ربما الثقافة. كان يعتقد أن على المرء ألا يستجيب للنقد. ذاك مبدأ مدهش.

لــيس كــلّ شــخص لديه الشجاعة الكافية وعزة النفس لأن لا يستجيب للنقد. إذا تدبــرت هذا، فإن الناقد إما مصيب وإما مخطئ. إذا كان مصيباً، فمن الحماقة أن ترد عليه وإذا كان مخطئاً، عندها لا معنى لأن تشتبك معه لأنه في ذلك الحدث لا بد أن يكون إما أحمق أو غير شريف. شعور، مع ذلك، يحفزني لأن أقول إن النقد جنس أدبي مستقل. أو على الأقل، أنا أرى، أنه هكذا يجب أن يكون.

**بالايــان:** من هم الكتاب الروس والسوفييت الآخرون، فضلاً عن تشيخوف، الذين تشعر أنك، كما قلت، قريب منهم ومتعاطف معهم؟

**ســاوريان:** فضلاً عن تشيخوف؟ حسن، تشيخوف يأتي في المقام الأول. لقد رافقني خلال حياتي. وحتى هذا اليوم كثيراً ما أقرؤه. كل ما عنده يثير حسدي — بالمعنى الجيد للكلمة... إن له روحاً رقيقة، وغنائية مرهفة، وإخلاصاً صافياً. حتى عــناد تشيخوف وشجاعته رائعان. في مقدمة مختارات من أعمالي، وضعت قائمة الكــتاب الذين أثروا فيّ. بينهم تشيخوف، وتولستوي وغوركي. هذه القائمة، على أي حــال، يمكــن أن تتابع. أنا لا أعيد فقط قراءة تشيخوف وتولستوي؛ كلّ عام تقريــباً أجد أنه من الضروري أن أقرأ المعطف لغوغول. غير ناس دوستويفسكي وتورغينــيف. من الكتاب المعاصرين، أستطيع أن أسمي شولوخوف، وسيمينوف، وإهرنــبورغ، وفآغن دافتيان. لقد ذكرت للتوّ غوغول وما حدث لي أنني في هذا الــيوم بالذات كنت أفكر فيه. هذا الصباح وقبل الشروع، وجدت حوالي 20 إنساناً في غرفتي في الفندق... كلهم، أناس طيبون، ولطيفون، حضروا ليحيوا ابن بلدهم. مراقباً وجوههم، للحظة أو نحو ذلك تذكرت لا إرادياً غوغول. أنا دائم الذهول من مقدرتــه على وصف أناس متنوعين، ورسم لوحات متنوعة، وشخصيات متنوعة. وكل ذلك بضربة أو ثلاث ضربات دقيقة من ريشته. وهناك أمامي كانت كلّ هذه الوجــوه المختلفة، كلها فريدة، بعضها ذو مظهر جيد وبعضها ليس كذلك. وعلى الــرغم مــن حقــيقة أنهــا لم تكن لحظة مناسبة، لنقل بصراحة، ورغم الضجة، والصخب، والضحك، والدعابات، أردت فجأة أن ألتفت إلى تصنيف هذه الوجوه.

**بالايــان:** أعتذر لمقاطعتك لكن هذا الصباح كان في غرفتك في الفندق كثير من الضجيج والصخب. وكنت أنت أكثر أولئك الموجودين مرحاً. متى إذن وجدت الوقت لــ "تصنيف" وجوه ضيوفك؟...

**ســاروبان:** ذاك عملــي. لــنقل هذا بطريقة مختلفة: عن هذا الأمر كان كلّ

عملـــي. أنا لا أصبح كاتباً بمجرد أن أجلس إلى آلتي الكاتبة. إن النقر على الآلة الكاتبة هو جزء واحد من عمل المرء، هو جزء من العملية. لا يستطيع الكاتب أن يجلس على مقعده ما لم يكن مشحوناً، وممتلئاً بانطباعات وخيالات جديدة وطازجة دائماً.

**بالايان:** هل تحب الشعر؟

**ساروبان:** قدْ سئلت ذات السؤال من قبل غرانت ماتيفوسيان. طرحه وبدأ في الحال الإجابة عليه نيابة عني. قال إنني شاعر يكتب النثر. أدرك أن ما يلمح إليه هو غنائية معينة في كتاباتي. على أي حال أنا أكتب الشعر أيضاً.

فقـــد بـــدأت مهـــنة الكتابة بالشعر. ومازلت أكتب قصيدة المناسبة. لكنني لا أنشـــرها أبداً. ليفعل ذلك من أجلي بعد موتي. أفترض، أن سبب كتابتي للقصائد، هـــو أنـنـــي أحـــتاجها. وربمـــا أحتاجها لكي أشعر بقوة "الكلمة الصحيحة"، وقوة الإيجـــاز، وازدراء الدوران الطويل، وطبعا، لكي "أحس" بالمجاز. باعتقادي، إن الصـــور واللغـــة المجازيـــة هي التي تميز، في نهاية المطاف، الشاعر من غيره والفـــنان مـــن الحرفي. وجلّ الأمر أن شخصاً لا يكتب أبداً أيّ شعر يستطيع أن يكـــون شاعراً وفناناً. خذ مثلاً، غريغور غورزاديان. الذي أخبرت أنه بنى جهازاً وضـــع في الفضاء. كنت سأشعر أنني غبنت لو لم أحظ بمقابلة غورزاديان. ليس واضـــحاً بالنســـبة لي ما الذي يعمله. رأيت بعض ترجمات لمقالاته على مقعده: قرأت العناوين ولم أستطع أن أفهم شيئاً. إن موضوع بحثي هو الروح البشرية في حيـــن يدرس هو الفضاء الخارجي والنجوم. يمكنه أن يمضي مئة سنة وهو يشرح لـــي، مـــاذا يعمـــل وسأظل غير قادر على أن أفهمه. لكنه بدأ فجأة يستخدم اللغة المجازيـــة. وفهمـــت أن طاقتـــنا علـــى تطبيق ملاحظاتنا للمجرّة من الأرض قدْ استنفدت. ما أنجزناه أننا الآن نملك في أيدينا قطعة من ذيل حيوان ضخم ومجهول ومن خلال هذه القطعة نحاول أو نستجمع انطباعاً عن الحيوان ذاته. تزداد بإخراج العالم لتلسكوبه إلى الفضاء، قدرته على المراقبة مرات عديدة أكثر.

وكـــم تكلـــم غـــريغور بروعة عن نجومه! كم كانت عيناه تشعّان! تكلم ولم أســـتطع أن أفهم شيئاً. تحدث عن حياة وموت النجوم ـــ ومرة ثانية لم أفهم شيئاً. أنـــا أعرف فقط حياة وموت الناس، والأشجار، والبحيرات. وبدأ، كما لو أنه يقرأ أفكاري، يتكلم عن شجرة التفاح. لن أنسى في حياتي شجرة غورزاديان. وأستطيع

أن أرى شـــجرة تفـــاح حقيقية، حقيقية بشكل تام تنمو هناك في الفضاء. تكلم هذا الرجل اللطيف الذي أغرمت به كثيراً عن كيفية امتلاكنا لأفكار مختلفة عن النجوم لا لأنهـــا مخـــتلفة كثيراً بعضها عن بعض وإنما لأننا نراها في أزمنة مختلفة من حيواتها. وملاحظاً بوضوح أنني أجهد ثانية وأعاني من غلظة فهمي، قال إن علي أن أتخيل أننا ننظر إلى شجرة في الشتاء. إنها جافة كما لو كانت ميتة. في الربيع هي، مع ذلك، شيء آخر تماماً: تبدو بطريقة ما وكأنها تغني وهي مغطاة بسحابة مـــن الأزهار القرنفلية والبيضاء. وهي مع ذلك شجرة أخرى في آخر الصيف أو بدايـــة الخريف. ثمة الآن شيء له علاقة بالكتاب المقدس بالنسبة لها تتدلى الفاكهة مـــنها مثل دمى تتدلى من شجرة عيد الميلاد. طبعاً، لو أن شخصاً رأى شجرات الـــتفاح المخـــتلفة كثيراً هذه في نفس الوقت، فإنه لن يظن أنها واحدة وأنها ذات الشـــجرة. شجرات تفاح ونجوم... أمر رائع! إنها ببساطة معجزة وشيء يجب أن أكتب عنه. أنا شخص بعيد ليس فقط عن السياسة وإنما عن العلم أيضاً. ومع ذلك أحيـــي العلمـــاء وخصوصـــاً أولئك الذين هم في أرواحهم شعراء. إذا كان العالم شاعراً في روحه، فإن هذا يعني أنه سيبدع الجيد فقط.

مـــن حســـن حظنا، أن غورزاديان فنان علاوة على ذلك. حين أستخدم هذه الكلمـــة أستدعي دائماً ميناس أفاتيسيان. إنه فنان عظيم. وإصراره على مغادرتنا مبكراً هكذا هو مأساة كبيرة للفن الحديث. ميناس شاعر أيضاً. أنا أحب الشعراء، أحب الشعر.

**بالايان:** هل عندك أي نوع من الشعارات؟

**سارويان:** لا أظن ذلك، لا. أفضل أن أقول إن لدي مبدأ أجهر به في نفسي: "لا تجعل نفسك تابعاً لأحد ولا تجعل أحداً تابعاً لك أيضاً."

**بالايـــان:** أنت مسافر بالفطرة. لا تستطيع أن تجلس ساكناً. أخبرت أنك ذات مـــرة اعتـــبرت الدراجة الهوائية أفضل وسيلة للانتقال من مكان إلى مكان آخر: يســـتطيع المرء أن يحظى برؤية جيدة لما حوله. من الواضح أن السفر يؤدي إلى ملاحظات، وانطباعات، ومعارف جدد، وبكلمة واحدة، إلى كل ما يحتاجه الكاتب. والســـفر الـــذي لا ينتهـــي، هـــو على أي حال، يتطلب لياقة بدنية، وهو مرتبط بالرياضة. لذا أود أن أسألك، ما هو موقفك من الرياضة؟

**ســارويان:** إن عــالم الرياضة مادة مدهشة للكاتب. في هذا المجال يستطيع المرء أن يغبط جاك لندن وهمنغواي. من الروس يجب أن أذكر كوبرين. الرياضة شباب. والشباب لا يستطيعون العيش بلا أبطال. وحين ينظر الشاب إلى بطله، فإنه يناضــل ليحسّــن نفســه: وهــذا هام. أنا بالذات لم انخرط أبداً في أي نوع من الرياضــة. رياضتي المفضلة هي السفر. أول شيء فعلته حالما حصلت على مال كــاف أدخــره، أن أقــوم بــرحلة إلى العالم القديم. كان هذا بعد طبع مجموعتي القصصــية الفتى الجريء على الأرجوحة الطائرة في الولايات المتحدة. حالما دفع لي، عبرت المحيط وقدمت إلى أرمينيا. وقتها قابلت وتصادقت مع يغيشة تشارينتس. كنــت فخــوراً ليس فقط لأنني ابن بلده بل لأنني كنت كاتباً تماماً مثله. أتذكر حينئذ، قال لي تشارينتس: "أنت تكتب بالإنجليزية. لكنك مع ذلك كاتب أرمني. وكان، طبعاً، محقــاً على طريقته. فيما بعد كتب شخصياً أن كل ما أفعله ينهض على ثلاثة أحجار أساس هي: اللغة الإنجليزية، والتراب الأمريكي، والروح الأرمينية.

**بالايان:** ما الذي تكرهه أكثر من غيره؟ وما الذي تحتقره؟

**سارويان:** الجبن. الغدر. دعاية الحرب والعنف. إن مما يدعو للأسف أحياناً أن أناســاً موهوبيــن أيضــاً، إمــا بسبب قصر النظر أو لأنهم منتشون بالنجاح والشــهرة، يســمحون لأسمائهم أن تستغل، غير مدركين، ربما، أن هذا يؤدي إلى النكــبة. إن الحروب لا تبدأ صدفة، إنها لا تبدأ بصورة مباغتة كلياً. تبدأ الحروب قلــيلاً قلــيلاً حين يجيز الناس لأنفسهم الجبن والغدر، ورغبة في التلاعب بالمثل والمبادئ ويذعن الآخرون لهذا.

**بالايان:** ما الذي تعتقده فيما يتعلق بروح هيلسينكي، "الانفراج"؟

**ســاوريان:** أعــتقد أن اتفاقيات هيلسينكي والانفراج كلاهما رائع. إن صون السلام والتفكير بمستقبل كوكبنا هما في المحصلة ما يدعو إليه الفنان الحق أيضاً. هنا الشيء الكثير يعتمد علينا، أنا لست سياسياً، ولا رجل دين لكنني أبشر بالطيبة والصــدق. ومــن التبشير أستطيع أن أنتقل إلى الدعاية الفاعلة. وأعتقد الآن أنني سأقوم بدعاية لأرمينية السوفيتية. أقول "سوفيتية" لأنني رأيت، إذا جاز لي التعبير، عدة "أرمينيات" في العالم ــ مستعمرات أرمينية في دول مختلفة. وحتى بلدي الأم فريسنو (كاليفورنيا)، يمكن أن يعتبر نوعاً من أرمينية ــ كان هذا صحيحاً بصورة خاصــة في بداية القرن. أنا أقول كل هذا لأبين أنني حظيت بالفرصة لكي أقارن.

وأنا أقول إن أرمينية السوفيتية هي، في نظري، واحدة من أفضل البراهين لصالح الاتحاد السوفيتي. أنا أعرف كيف كانت أرمينيا ذات مرة؛ رأيتها بعينيّ قبل نصف قرن تقريباً مضى وأراها اليوم. أنا مقتنع بعمق أن إنساناً فخوراً فقط، إنساناً حراً، إنســاناً ممتلئاً بالإحساس بكرامته ـ وأود أن أضيف، بالكرامة القومية ـ استطاع أن يــرفع نصباً رائعة في أرضه لكل كتابه الكلاسيكيين تقريباً. قيض لي أن أرى نصــباً لضــحايا الإبادة الأرمن وتوقفت لأفكر بامتنان للشعب الروسي الذي أنقذ الأرمــن مــن الذبــح عن بكرة أبيهم. بعد كل هذا، أنا أيضاً، ضحية من ضحايا الإبادة. أنا ولدت فوق تراب أجنبي.

**بالايــان:** يــا معلــم، أنتم كتبتم ما ينوف عن 2000 قصة، ناهيك عن العدد الكبير من الروايات والمسرحيات...

**ساوريان:** بما أننا اتفقنا على أن هذه ليست ببساطة حديثاً في سيارة بينما هي تــرجّ بمــرح على طريق غارني وإنما هي مقابلة حقيقية، هذا يعني أنك ستسألني الآن ما الذي أعمله وما هي الخطط المستقبلية عندي. لن أخبرك. ليس لأن الأمر سر ولا لأنه أمر خرافي. الأمر ببساطة، أنني أعمل دائماً، أكتب دائماً. فأنا كاتب. أنــا أكتب عن الناس. ولكي أخبرك ماذا أعمل الآن، فإن علي أن أعطيك موجزاً عن الحبكة. وما الحبكة إلا حكاية.

أنــا أفضــل أن يعلم قراؤك أن وليم ساروبان في نهار ضبابي جميل انطلق خصيصــاً ليشــاهد مكان عبادة وثني. سيفهم كل شخص أن المرء لا يستطيع أن يــزور أرمينيا دون أن يذهب ليرى غارني. أنا في الواقع رأيت غارني من قبل. فــي الطريق من لينينغراد إلى يريفان، أراني رازميك دافويان وليفون مكرتشيان صــورة لغارنــي في البرافدا بصورة طارئة، دعني أضيف شيئاً لما قلته تواً. إن اســتعادة هذا المعبد الوثني القديم، هذا الصرح الذي لا يقدر بثمن للثقافة العالمية، لهو أيضاً برهان على قوة السوفييت.

**بالايان:** كوننا ذكرنا بعض الأجناس التي تعمل عليها أردت أن أسألكم بعدئذ مــا الــذي تقولونــه في السينما والتلفزيون بما أن هاتين الوسيلتين الجماهيريتين تتنافسان بنجاح مع الأدب؟

**ســاروبان:** أنــا أحب السينما. اعتدت أن أفعل الكثير من أجلها. ثم ولوقت فضلت أن أنقطع عنها. فيما يتعلق بالتلفزيون، فذاك سؤال أكثر تعقيداً. فأنا، مثلاً،

لــيس عــندي تلفزيون في البيت. التلفزيون طبعاً هو أقوى منافس للأدب. لكن له بعــض المنافع. فبعض الكتاب الذين لا موهبة لديهم، ومهووسو النسخ الذين لولاه لانــتزعوا طريقهم بنجاح إلى الأدب، وجدوا ملجأً تحت سقف التلفزيون. في نفس الوقــت عدد كبير من المجلات والصحف أفلست في حين أن حجم طبعات الكتب تدنـــى وارتفعــت أسعارها. يكلف الكتاب اليوم حتى 10 دولارات. حتى أنني أجد نفسي أحياناً غير قادر على شراء كتاب. في هذا المجال أنتم، هنا، مجانين تماماً: أكثر كتبكم، كما رأيت بنفسي، تكلف أقل من روبل....

شخصــياً أحب أن أطبع في الصحف. والعديد من قصصي رأت نور النهار في الصحف. هذا يجمع فضيلتي الطبعات الكبيرة مع قدرة الوصول إلى عدد كبير مــن الــناس فوراً. تقرأ الصحف عادة كلها في المحاولة الأولى، دون أن تضعها جانــباً ــ خلافــاً للكتــب. لا أظــن أن التلفزيون سيخلق صعوبات جدية للكلمة المطبوعة. "في البدء كانت الكلمة" ــ وهذا لن يتغير. إن أولئك الذين يعتقدون أن الــناس يقــرؤون أقــل فـــي هذه الأيام مخطئون. وعلى المرء أن يخشى لا من الــتلفزيون وإنما من الوسطية في الجودة، والسوقية، ونقص الموهبة. يبدو لي أن اختصاصـــيي المســتقبل المعاصرين يضيعون وقتهم في بحث مسألة مكان الأدب والــتلفزيون فـــي المستقبل. لا شيء ــ لا الآن ولا بعد ألف عام ــ سيحل محل معطف غوغول بالنسبة لي.

**بالايان:** ماذا تقول بشأن الشعبية الواسعة لما يسمى أدب الإمتاع الجماهيري في الغرب؟

**ســارويان:** إن عبارة "أدب امتاع" ذاتها فيها شيء غير طبيعي. الأدب ليس كرة قدم أو مصارعة أمريكية. سألتني مرة الشاعرة الرائعة، سيلفا كابوتيكيان، من هـــي النماذج الأصلية لقصتي ومسرحيتي قلبي في الأراضي المرتفعة. سميت كل الشخصيات، متضمنة النساء، وأضفت أنني كنت النموذج الأصلي لهم جميعاً. أي نـــوع مــن الإمــتاع حين يحيا الكاتب أولاً حيوات أبطاله ومن ثمّ يبلغ هذه الحياة المركــبة لقــرائه! تتكون المهمة الأسمى للكاتب ليس من قدومه بذاته إلى أبواب جمــاجم قــرائه وإنما من جعلهم جميعاً يدخلون حياته، وبيته، وقلبه. أي نوع من الإمــتاع هــو ذاك! الأدب الحقيقي وحده من يستطيع أن يبشر بالطيبة والإنسانية. دوستويفسكي، مثلاً.

**بالايان:** هل تعتبر نفسك كاتباً ذا شعبية؟

**ســارويان:** هـناك من هم أكثر شعبية، وحولهم يصنع ضجيج أكبر. لكنني شخصـياً أحـب نوعـية شعبيتي. إنها هادئة تماماً، والناس يستقبلونني لا بنشوة مَرَضيّة وإنما بابتسامة.

**بالايــان:** هـل ترتبط رحلتكم الحالية في أرجاء أرمينية بأي أهداف ملموسة في عملكم؟

**سارويان:** أجل. بكتاب. ولقد باشرت به للتو.

**بالايــان:** كـان في إحدى مجلاتنا الأدبية قسم يدعى "كيف تكتب؟" ماذا كنت ستجيب على سؤال كذلك؟

**ســارويان:** لا أعـرف. يمكـن للمـرء أن يسأل خبازاً، مثلاً، "كيف تخبز الخـبز؟". وإذا ســألت، هل تعتقد حقاً أنه سيكون قادراً أن يشرح لك كيف يخبز الخـبز؟ أنــا لا أعرف كيف أكتب. أنا أستطيع أن أقول شيئاً واحداً: أنا أكتب كل يـوم. لا أكون أبداً ولا في أي مكان دون آلتي الكاتبة. كل يوم ـ هذا هام كثيراً. لأنـك إن كتبت كل يوم، فلا يمكن إلا أن تقول شيئاً واحداً ذا قيمة مرة في السنة على الأقل.

**بالايــان:** ليس من الأدب أن نذكر ضيوفنا بتاريخ مغادرتهم. أود بالتالي أن أسألكم متى تنوون أن تأتوا إلى الاتحاد السوفيتي مرة أخرى؟

**ســارويان:** أنا لست ضيفاً على الإطلاق هنا. في كلّ مرة آتي فيها إلى هنا، فإلى بلدي، وإلى أبناء بلدي. ربما آتي خلال سنة.

**بالايان:** خلال سنة ستكونون في السبعين....

**ســارويان:** خلال سنة، ستكون السنة المئة والخمسون منذ انضمت أرمينية الشرقية إلى روسية. أحب أن احتفل بهذا اليوم العظيم مع أبناء بلدي. لست أعمى وأستطيع أن أرى إلام صار وطني. أعرف كيف كان ذات مرة. ولد وليم سارويان على أرض أجنبية. أريد للناس أن يولدوا على أرض أجدادهم.

□□

# القصة

# الرسام فاروجان أرتونيان

■ بقلم: كابرييل تاكفوريان ■

■ ترجمة: د. هاروتيون قهوجيان ■

*الفصـل الأول المعنون ( الحيّة في الجنّة) من القسم الأول والفصل الثاني المعـنون (محـاولات الـنهوض من جديد- معرض فريد من نوعه ) من القسم الثانـي مـن روايـة عن حياة الأرمن في المهجر تحمل عنوان ( الحارس خلف الستارة ) للكاتب الأرمنيّ كابرييل تاكفوريان والحائزة على الجائزة الأدبيّة الأولى لجمعـيّة زافاريان، طبع في مطبعة أريفيلك في حلب عام 1956 ضمن السلسلة رقم 28 لجريدة أريفيلك اليومية.*

## (الحيّة في الجنّة)

كان غروب خريفيّ رائع يرخي سدوله ببطء على أرض فسيحة،تتنفس هواء الـبحر النقيّ في ضاحية كليوباترا،إحدى ضواحي مدينة الإسكندريّة. كان ذلك في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول من عام 1924.خففت سيّارة أنيقة من سرعتها وتوقفـت فجـأة أمـام فيلا جميلة، محاطة بالبساتين الخضراء، معزولة نوعاً ما وتستند بجلاء على مرتفع.

خـرج مـن السـيّارة على عجل رجل قويّ البنية تبدو عليه علامات الغنى والهيـبة. إنه آرام أرتونيان، هكذا كانوا يسمّونه وبكلمات فيها نبرة الإنسان، الذي سعد بتحقيق أمنيته التي طالما حلم بها توجّه إلى الصبيّ الذي قفز بعده خارجاً من السّيارة كالسنجاب فقال:

ـ" فاروجان! هذا هو بيتنا" قالها وهو يشير إلى ذلك البناء الفخم المحتجب خلف الأغصان الخضراء الكثيفة. كانت لكلمة "بيتنا"، ذات المعنى والنبرة اللطيفة وقــع على فاروجان الذي أحسّ بشعور وكأنّه أعطي الحقّ في أن يكون أحد أفراد ذلك البيت الرائع.

ارتسمت على وجه الصبيّ ابتسامة الفرح وأشعّت عيناه كبحيرة ينعكس عليها ضوء القمر طارداً للحظة شعوره بالتعجّب، الذي يخالج الصبيان غير المتعوّدين أمام وضع جديد يفيض بالأمل. قال في نفسه وهو ينظر حوله دون أن يشبع:

ــ طبعاً ،أب أو عمّ، أليس كلاهما نفس الشيء ؟".

حقــاً ، كــان المــنظر خلاباً. كانت الأرض تبتسم بالطرز العديدة للأبنية وبــأنواع الأشجار الخضراء وخاصة أشجار النخيل الباسقة المنتشرة، وقد تبجّحت باللون الذهبيّ للخريف الذي حلّ باكراً.

عــندما فتح الباب الحديديّ الكبير من قبل الخادم ودخلا معاً ، قبّل آرام ابن أخيه البالغ 9ــ10 سنوات بحرارة وأضاف بفرح رافعاً يده بحركة تؤكد كلامه:

ــ يــا بنــيّ الحبيب من الآن فصاعداً ، ستنسى أيّام التهجير المؤلمة وتعيش حياة جديدة وفرحة. لقد أوصيت الخادم أن يجهّز لك غرفة في الطابق الثاني تتوفر فيها كافة اللوازم".

ولكــن بدلاً من صعود الدرج رغب الصبيّ في التوجّه نحو الحديقة المليئة بالزهور، فقد جذبه منظر الجنّة تلك، حينها ناداه عمه قائلاً:

ــ "فاروجان! ألن تأتي لتتعرف على أمّك الجديدة ؟".

رغم انبهاره بمنظر الحديقة، إلا أنّ الصبيّ فهم ما يقصده عمّه، فصعد الدرج بسرعة ورأى السّيدة على أريكة متكئة في هيبتها. اقترب الصبيّ في خوف وسلم عليها خجلاً .

ــ"هذا هو ابن أخي..." قال آرام.

على هذا الشكل من التعريف فحصت السيدّة الضيف في فتور من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، ثم تنهّدت:

=" آه ! كم يشبهك...!"

ردّ آرام بابتسامة الرضى على هذا الدلال في التشبيه.

="ما اسمك...؟.

ــ فاروجان...".

="فارو..جان "رددت السّيدة جانيت وهي تهجئ كلّ مقطع في اسمه." يا لــه من اسم موسيقي...! هل تلك الكلمة أرمنيّة ؟".

ــ "ليســت أرمنية وحسب بل اتخذت الآن معنىً شاعريّاً. إنّه اسم أحد كبار شعرائنا القوميّين والذي قتل بوحشية على طرق التهجير". قالها آرام في حزن.

خــيّم على الجميع صمت عميق. اعتبر فاروجان اللقاء منتهياً فأدار رأسه كان يرغب في رؤية هذه المسرحيّة المملة وقد انتهت.

عندها قال آرام وقد فهم ما يخالج نفس الصبيّ

ــ" الآن تستطيع الذهاب واللعب في الحديقة ".

نزل فاروجان الدرج ببطء واختفى بين الأشجار. لقد علق في شبكة سحريّة. وقــف أمام منظر يأخذ الألباب. كانت شمس الأصيل قد حوّلت الحديقة إلى لوحة رائعــة وكانــت موجــة من الروائح الزكيّة الآتية من كلّ صوب قدْ أخذت عقله ورجّحــت مخيّلــته السهلة الانطلاق برؤى حلوة وكأنها من الجنّة. كان يفكر في نفسه:

"آه ! يا لها من سعادة أن يحظى أحد بعمّ مخلص كهذا في مصر البعيدة !".

كان هناك على الشرفة في نهاية الصالة ثلاثة أطفال: فاهيه، أرتو وأرمينيه. أكبرهم بالكاد يبلغ الثامنة من العمر، والذين فور سماع صوت أبيهم أوقفوا اللعب وركضوا نحوه لاستقباله بصيحات الفرح قبلّهم في شوق، ثم قال في فرح ورضى:

ــ" فاروجــان في الحديقة، هيّا يا أطفال ! اركضوا وقبلوه..." ثم جلس على كرسي قرب زوجته السيّدة جانيت، التي نهضت لتأخذ وضعيّة هجوميّة هذه المرّة. كانت عيناها تشعّان في تهديد وخداع. تركت الكنزة، التي كانت تحيكها لتقول بلغة أرمنيّة عاميّة وقد حوّلت نظراتها الحادّة نحوه:

ــ " كم تأخرت!".

ـ " إنّ بور سعيد ليست بمدينة قريبة فبالكاد استطعت أن أنهي عملي وأعود على عجل".

ـ " ألــم يكن بالإمكان أن ترسل أحداً بدلاً من الذهاب بنفسك، فتتجنّب بذلك عناء السفر؟". قالتها بصوت متودّد ومتقلب. كان آرام ينظر بعينين حزينين.

ـ" أن أرســل أحداً ؟...يا له من اقتراح غريب...! هل كان بإمكان أحد أن يقــوم بتلك المهمّة، التي تتطلب العطف والتضحية ؟ هل تؤمنين أنّ هذه الرحلة لم تسبّب لي أيّ تعب؟ بعد تلك السنوات من الشوق والانتظار

أن أســمع أنّ أخــي قــد وطــأ بقدمه هذه الأرض على صورة ابنه، الذي تركه،وأرســل شخصــاً غريــباً لاســتقباله ! كم كان ذلك سيبدو ضرباً من عدم الإحســاس! أليس الابن والأخ وابن الأخ بنفس القدسيّة بالنسبة لرجل حسّاس؟ هل تعلمين كم أنا سعيد الآن لأنني عشت هذا اليوم فرحة عشرات السنين ؟".

كانــت الزوجة تنظر بصمت إلى إحساسه الفائض غضباً، وقد أخذها العجب كأنّها تحضر ذلك الإحساس الأول مرّة

ـ "كانــت نيّتي أن أجنّبك المصاعب التي لا تفارق السفر الطويل ". أضافت بهدوء، كي تخفّف نوعاً ما من التوتر، الذي سبّبته.

ـ"ما من مصاعب غير منتظرة، حتى لو كانت هناك أسباب عائقة لما سبّبت لــي التعــب، بل قدْ تزيد من غبطتي ".قالها آرام بسرور. وكي يُشرك زوجته في فرحــته، بدأ بسرد التفاصيل الملفتة للانتباه، التي حصلت يومها، رافعاً من الشأن الحسّيّ لمعانيها.

ـ" عــندما أخــذت علمــاً بوصــول فاروجان إلى بور سعيد، انطلقت، كما تعلميــن، إلــى الطــريق في الصباح باكراً. حقاً، إنّ الانطلاق في طرقات مصر الســهلة ممــتع، خاصة عندما يخفق قلبك فرحاً أملاً بلقاء حبيب منتظر منذ زمن طويــل. وصــلتُ إلى ميناء تلك المدينة الجميلة حين كانت مجموعة من الصبية الأرمــن تنزل من الباخرة. امتدت صيحات الفرح من معبر الباخرة حتى قاعات الجمــارك. كان فضول القادمين الجدد في أوجهِ وعيونهم تشعّ نوراً، لأن أقدامهم وطــأت الأرض التــي طالما حلموا بها. تلك الأشباح البشريّة تم جمعها بصعوبة

كبيرة من أنحاء عديدة من الصحراء فكانوا يحملون آثار جروح الشقاء والتشرد، وبخاصة على وجوههم، لا يغطي أجسادهم إلا الجلد المجعد، ولكن عيونهم تبدي عزيمة لا تقهر في التحمل والعيش. كيف بإمكاني أن أجد الآن قريبي بين تلك الأمواج المتلاحقة والطويلة من الصبية؟ ذلك كان تفكيري حينذاك.

فتشتُ بين تلك الأشكال المتشابهة عن الطابع الخاص لأسرتي. لكنني لم أخطئ، إذ ميّزت بين مئات الصبية الإشارة الخاصة لدم أسرتي، وقد طرأ تبدل طفيف نتيجة الآثار التي تركتها أيام التشرد. رأيت فيه عينيّ أخي وجبين أختي وشفاه أمي الرقيقة. إنه فرع طبق الأصل لآل أرتونيان، مع كتفه الأيمن الذي يتحرك لا شعوريا، كما كانت تفعل أمّه.

مسكته من كتفه، وأنا أناديه(فاروجان!) حدّق فيّ متعجباً بعيون برّاقة وابتسم. كأن أخي هو الذي ينظر إليّ في حزن مليء بالشوق. عرفني، وقد امتلأت عيناه بالدموع. قبّلته وضممته إلى صدري بعطف. أما هو فقد عانقني، بينما الدموع تنهمر من عيوننا. حينذاك اقترب المشرف، فقلت له: أعلمتموني أنّ ابن أخي سيصل بالباخرة اليوم صباحاً. ها أنا جئت لآخذه. وبسرعة قامت اللجنة المسؤولة عن إيواء الأيتام بإنهاء الأوراق الرسميّة فأخذتُ فاروجان إلى الفندق، حيث استحمّ ولبس الثياب، التي حضّرتها له مسبقاً. وهكذا تحوّل إلى صبيّ آخر. بعدها أسرعنا للعودة إلى الإسكندريّة. في الطريق بدأ فاروجان يحكي لي ما سمعه من أبيه وأمّه وأخوته وأقاربه عن حوادث التهجير التي تعصر القلوب والصور المفرعة التي تقشعرّ لها الأبدان، حيث تأثر بها روحياً. كان ذلك الصبيّ وصفاً حياً لما حدث في عام 1915.

استمعتُ إليه بحزن عميق، وقد ارتعد جسدي. يا إلهي! هل من الممكن أن يتحمل الإنسان كلّ ذلك الشقاء، الذي لم يسجّل التاريخ له مثيلاً أبداً ويبقى على قيد الحياة ويخرج من لهيب نيران ذلك الجحيم والفظائع المميتة؟ أجل، طبعاً، بالأعجوبة الإلهية".

كان آرام قدْ أنهى كلامه. بعد ذلك ساد صمت مطبق للحظة. أيّة آثار تركت تلك الأمواج من الأحاسيس، التي نسجت بها تلك المآسي، على روح زوجته؟..لا شيء... تقريباً...كما السيول، التي تنساب على أحجار الصوّان دون أن تترك أيّة

آثـــار. كانـــت نظراتها اللامبالية تكشف عن عدم اهتمامها مع انزعاجها العميق. أخيراً انشق جدار الصمت، لأن السيّدة جانيت لم تستطع أن تجد الوقت الكافي كي تكشِف ما يختلج في أعماق نفسها، فجاءت لحظة الردّ:

=" ولكـــن أيـــن سيقيم فاروجان ؟"، قالتها بدم بارد، وكأنها لم تفهم شيئاً من القصة التي تنفطر لها القلوب.

بدأ الدم يغلي في عروق آرام غضباً فردّ في وجهها صارخاً:

ــ" مـــا ذاك السؤال ؟ هل ينقصنا مكانٍ في بيتنا لأجل فاروجان؟ ألا نستطيع أن نطعم شخصاً آخر؟ افرضي أنّ لدينا طفلاً آخر".

ــ" كـــيف ذلـــك؟ طفـــل آخـــر...! صبيّ غريب ! عفواً...أقصد غير ابننا الحقيقـــي، هل من الممكن أن نستقبله في بيتنا ونسكنه بين أولادنا،خاصة أنّه جاء من الصحراء...؟".

ــ "جـــاء مـــن الصحراء... قولي مشرّد ولا تخافي! أفرغي سُمّك! ياالها من إهانـــة وجـــرح للشـــعور، كان بإمكان التركيّ فقط أن يلفظ تلك الكلمات في وجه الأرمنـــيّ. اســـمعي يـــا سيّدتي العزيزة، بالنسبة إليّ لا فرق بين فاروجان وبقيّة أولادي. ويجـــب أن يكـــون كذلـــك بالنسبة إليك أيضاً. أما بخصوص مجيئه من الصحراء فإنّ ذلك يجعله عزيزاً علي أكثر، لأنه في ذلك العمر اقتسم شقاء شعبه ونصيب كباره واشترك معهم في الشهادة. إذاً فهو بطل وجدير بالتقدير وعليك أنت أيضاً أن تنظري إليه النظرة نفسها. لو كنت تعرفين والده رمز الكرامة والتضحية، لكنـــت أول المدافعيـــن عن ابنه، الذي أرسله الله كوصيّة إلينا مسلماً إيّاه لرعايتنا وعنايتنا".

=" هـــل من المعقول أن نستقبل غريباً كابن حقيقيّ لنا ؟ يا إلهي، أبداً، خذه إلى مدرسة داخلية". قالتها وهي تكرر في نفسها وتلطم رأسها بيدها في يأس.

ــ أي بعـــيداً عَن الأعين ! أبداً لا أستطيع أن أقوم بذلك العمل الشائن بحق قريبـــي. بعـــيداً عـــن الأعين بعيداً عن القلوب... بالعكس إنّه بحاجة إلى العناية الأسرية كي ينمو اكثر من حاجته إلى الخبز، ويجب أن ينعم بتلك العناية هنا أمام عيني".

هــل من الممكن التصدّي لذلك الشعور الجيّاش؟ لم ترد السيّدة بعد ذلك، بل انزعجت وانزوت في غرفتها شاكية وصدّت بابها بقوة.

بقــي آرام فــي مكانــه محطمــاً وقد تسمّر كالتمثال، إذ لم يكن يتوقع ذلك التصرف العنصريّ. إنّ الشرر المتطاير من لهيبنا الداخلي لا يمكن أن يشعل روح الآخرين، حيث ينقصهم شيء يماثل ما يشتعل فينا بسهولة. إنّ المآسي الأسرية تنتج دائمــاً عن عدم إمكانية انتقال الالتهاب المتبادل بعد برهة استفاق آرام من تعجبه والتفت إلى وضعه الذي يدعو إلى الشفقة وانطلقت تنهيدة (آه...) من صدره.

كم كانت تلك التنهيدة معبّرة.

وفي تلك اللحظة استعاد آرام ماضيه بالكامل.

• • •

## (محاولات النهوض من جديد.
## معرض فريد من نوعه )

كانــت الجــرائد والمجلات الأرمنية والأجنبية في القاهرة والإسكندريّة تعلن بعناويــن عريضة عن إقامة معرض فريد من نوعه سيفتح في الإسكندريّة بتاريخ 28 نيسان عام 1935 في صالات ( كاليري درفو ) تحت رعاية الحاكم المحليّ.

كــان معرض الرسم يعد حدثاً غير مسبوق ضمن البرامج الفنيّة في المدينة. وكــان الفنّان شاباً في مقتبل العمر وقد أصبح معروفاً بسرعة بين عشاق الفنّ في العاصــمة مثلما هو في الإسكندريّة بفضل ذوقه الفني المرهف وتفهمّه الكلاسيكيّ. إنّه الفنّان المميّز فاروجان أرتونيان.

بالكاد مضت سنة واحدة على عودته من باريس، حيث بقي عدّة سنوات بعد أن أنهــى تعليمه العالي في روما بنجاح باهر، فعمل في البدء كرسّام ثم كمهندس معمــاريّ. وبعد أن أكمل اختصاصه في باريس غدا وجهاً بارزاً في العاصمتين، مركــزيّ الفنّ، واشتهر من خلال المسابقات الدوليّة المتعدّدة. كان نجاحه متوازياً في مجالي الرسم والعمارة، الأمر الذي يبدو نادراً.

فـــي تلــك البلاد انتشر سحر موهبته الذي لا يقاوم في موجات كبيرة، رغم طلاقــة تلــك المراكز اللامحدود، والتي غالباً ما تحدّ من شهرة هؤلاء المبدعين وتعمّقهــم أو تنشــر إصـــداء إهانتهم بشكل خاص. كان لترفعه كمصري من بلد الفراعــنة أثــر أكــثر إذهالاً. وكان حجم نجاحه الآتي من بعيد قدْ نال إعجاب المصريّين من أرمنٍ وأجانب. وعندما انتشر نبأ عودة الفنّان إلى موطن فنّه الأول أي الإسكندريّة درج بينهم التساؤل هل سيتناسب ذلك الإنسان فعلاً مع شهرته؟ لكن الجمـــيع كانوا مقتنعين وبسرعة بأنّ قيمته الحقيقيّة لم تتغيّر من قريب أو بعيد وانّ الفنّان كإنسان كان يساير فنّه وأنّه ليس عبثاً أن يتقبّلوه بذلك النهم كرسّام موهوب ومهندس بارع في بلد يصعب تقبّله للفنّ.

رغــم ألفته وطراز حياته في القاهرة والوسط الذي عاش فيه، إلا أنّه استقرّ في الإسكندرية فاستأجر (فيلا) جميلة بالقرب من ضاحية (كليوباترا ) كانت خالته التـــي عـــرّفها بأنّها أمّه تسكن معه ويكنّ لها احتراماً عظيماً إذ عوّضت له أهله الحقيقيّين بكلّ الأوجه لسنوات طوال.

كـــان مـــن الصعب عليه إقناع خالته بمغادرة القاهرة، حيث عاشت سنوات طويلـــة مـــع زوجها الذي فجعت بوفاته، فارتبطت بالقاهرة بذكريات كثيرة حلوة ومـــرّة لكنّها رضخت في النهاية لتوسّلات ابن أختها كي لا تتركه وحيداً في مدينة غريبة، حيث من السهل جداً الخضوع لطيش الشباب. كذلك كان فاروجان يرغب أن يعوض بواسطتها حنان أمّه بقدر ما، ذلك الحنان الذي أغدقته عليه خالته لسنين مـــنذ هـــروبه الملـــيء بالمخاطر من بيت عمّه لحين سفره إلى أوروبا. لكن رغم تقصيّه إلا أنّه كانت هناك نقطة ظلت سريّة ولم يستطيع أن ينال عليها جواباً مقنعاً وهي من أين كانت ترسل له مصاريف الدراسة الباهظة في القاهرة وأوروبا لسنين عديـــدة، إضافة لمصاريف النقل والسكن والأدوات والمشغل؟ لقد لاحظ ومنذ اليوم الأول قدراتها الماديّة المحدودة، فأخبرته بأنّها باعت مصاغها وسنداتها لتدبّر لـــه قيمة المصاريف وأرسلت لـــه المال بانتظام، وبفضل ذلك المبلغ لم يلقَ فاروجان أبـــداً أيّـــة ضائقة ماليّة خلال حياته الطويلة والمكلفة في الاغتراب. كذلك لم ينل فاروجـــان أيّ إيضاح بهذا الخصوص من عمّه، الذي كان بدوره يحاول أن يحفظ ذلك السرّ في الخفاء لعلمه بعزّة نفس ورهافة حسّ ابن أخيه.

كان فاروجان قَدْ جهز لنفسه مكتباً للهندسة ولقي على مرّ الأيام نجاحاً كبيراً فاستلم تصميم وتنفيذ مبان كبيرة ومعقدة مهما كان طرازها. ولدراسته لطرز وتقنيّة العمارة في العصور القديمة والوسطى والحديثة بكلّ تفاصيلها فقد كان يتفهّم بخياله الواسع المشاكل والعقد المستعصية والإمكانيات الماديّة لحلّها وتنفيذها. وكفنّان تشكيلي كان متمكناً من إظهار تفاصيل رسومه بشكل واضح ومفهوم بحيث كان كثير من المهندسين المشهورين والخبراء يلجؤون إلى خبرته لحل المصاعب وإزالة العوائق في التنفيذ الدقيق للمنشآت المعقدة شرط أن يعودوا مطمئنين على لجوئهم إليه.

وهكذا أصبح مكتبه معروفاً على المستوى الدوليّ إذ كانت مشاريعه في توسّع مستمرّ. ولأجل إرضاء طلبات وعروض الكثير من الزبائن كان عدد كبير من الموظفين والمحاسبين يعملون باستمرار، فكان تصميم وتنفيذ مشفىً حكومي ضخم تتويجاً لموهبته وخبرته، فغدا المهندس المعماريّ الذي يشار إليه بالبنان في كلّ الأوساط.

صار المال يتدفق بغزارة بالتوازي مع انتشار شهرته، لكن المال لم يكن يتكدّس عنده،بل يفيض كنهر يوزّع الطمي على الحقول والأراضي. كان يقول لمنتقديه بشأن سخائه وتضحياته: "لا أريد أن أكدّس المال فاصبح حارسه الرخيص. يجب أن يقوم المال بمهامه فلا يجمد أو يركد فيتحول إلى مرتع للسموم". كان يصرف المال دون حساب، ليس لأغراضه الشخصيّة وحسب، بل لأهداف قومية وخيرية وإنسانية لإرضاء الطلبات وبصورة سخية أحياناً. كان عضواً في النادي الدوليّ للفنانين ورئيس شرف لدار مكتبة رافي ـ زوهراب الأرمنيّة، فيشارك في كلّ النشاطات التي تفيد الوطن، دون تحفظ، إن كان من الناحية المادية أو المعنوية. ربما كان ارتباطه غير العادي بالمال نتيجة لأيام التهجير حين كان الأرمن ينطلقون على عجل في مسيرهم نحو المجهول، تاركين كلّ شيء من منازل ومصاغ ومال بأيدي الأعداء فاقدين بعد حين ما يعتريهم من لباس، جياع عراة وبحاجة لكل شيء، يرتجفون رعباً أمام الموت الذي سيأتي في اليوم التالي. في تلك المأساة كان الغنيّ يعاني أكثر من الفقير لأسباب عدة أولها أنه لم يكن معتاداً على تلك الحياة القاسية، وثانيهما أنّه كان ينظر بحسرة إلى الوراء وفي قلبه

غضـــب ويتعذّب لتسليم ثرواته إلى أعدائه الألداء ليتصرفوا فيها كما يشاؤون. إذا بالنسبة لفاروجان كان من المنطقي كسبه للمال الوفير وصرفه للفائدة العامة، لأن الغـد مجهـول بالنسـبة للمهجّـر الأرمني. فشكل حوله وسطاً مقرباً يحسد عليه واسـتطاع أن يجمـع عـدداً كبيراً من الأصدقاء والمعارف وأبدى رغبته تحت ضغوطهم في عرض نتاجه الفني على الجمهور، كما فعل قبلاً في باريس وروما. وهكذا ولدت فكرة الشروع في إقامة هذا المعرض في الإسكندرية. تم الافتتاح في حفـل مهيـب حضـره الحاكم صديق فاروجان وعدد كبير من المسؤولين الكبار وعشّـاق الفـنّ والوجوه المعروفة وممثلو الصحف الأرمنية والأجنبية ومحاضر ومـدارس الفـنون وأعضـاء المجلس المليّ الأرمني والطلاب وباقة مختارة من الحضور.

كانت اللجنة المنظّمة، التي يدخل في عدادها كلّ من فاهيه وأرمينيه ومادلين ابـنة أخـت السّـيدة جانيت وشبّان آخرون تقدم خدماتها للزوار مع القيام بأعمال أخرى في صالة العرض.

احـتوى المعـرض على ثلاثين لوحة زيتية وعشر لوحات لتجارب أخرى عديدة، وقد وقف الزوار بإعجاب أمام كلّ منها سنذكر بعضاً من اللوحات المميّزة

1 ــ أكـوام الطيـن تتحطم: بيت ريفي قديم وجميل مبنيّ على سفح جبل، يـتعرض لضـربات الـبرد والسيول والبرق لكنه يبقى صامداً. من خلال النوافذ نلاحـظ نظـرات مليئة بالرعب خوفاً من قرب التهدّم. حول البيت آثار الخراب، الحواجـز تـتأرجح وأكوام الطين تتحطم وأشجار الحور الباسقة المحيطة بالبيت تنحني والحراس يراقبون يقظين. كانت فكرة اللوحة واضحة. إنها صمود التكوين الروحي الأرمنيّ. كان فاروجان قدْ تصورّ هذه اللوحة منذ فترة طويلة، وبالتحديد مـنذ شـبابه إذ جسّـد بحسّـه القوي الرعب من الخطر المحدق بقومه في ألوان دراماتيكيّة. كانت اللوحة مهداة إلى آرام أرتونيان.

2 ــ مأسـاة: مديـنة أثـناء المذابح، عجوز أرمنيّ عند عتبة بيته وهو يهّم بـالدخول إليه، وقد تعرض للضرب من قبل القتلة المسلّحين بالهراوات والخناجر والفـؤوس، فيـبدو الضّـحيّة وقد ارتمى على الأرض مضرّجاً بالدماء، يصارع المـوت، كان المنظر مروّعاً لدرجة أن الناظر كان يسأل نفسه: هل سبق للرسّام

يـــا ترى أن عاش تلك اللحظة المرعبة كي يصورها بتلك الحيويّة، فيخرج التعبير صادقاً.

3 ــ الماضــــي والحاضر: لوحة بألوان محليّة، الهرم الأكبر ليلاً في لحظة شاعريّة، حيث يقوم رائد النهضة في مصر بزيارته مع أعوانه ليستلهم من صرح الأبديّة هذا نزعة لربط الرؤيا الجديدة بعظمة الفراعنة القدماء. أهدي فارجان هذه اللوحة إلى متحف المدينة.

4 ــ العــذراء: لوحـــة مثـــيرة للاهتمام، إنها لوحة حيّة لـــ أرمنيه بوجهها الورديّ وجمالها الكلاسيكيّ، وهي تمثل البراءة العذريّة. لم يبق في نهاية المعرض أيّـــة لوحــــة، لقـــد وجدت جميع اللوحات مقتنيها. كان الزوّار بالمئات من أرمن وأجانب، وقد عبّروا عن إعجابهم بالمعرض في ألبوم خاص.

كــــان الـــنجاح الباهر لشاب أرمنيّ كفنّان بين الأوساط الدوليّة قدْ ملأ قلوب الأرمـــن بالغـــبطة غير المحدودة. إنه كبرياء أمّة، إنه أمر طبيعي نابع من أعماق كينونتـــنا وعامل مهم لتخفيف الشعور بالنقص في المهجر. وهكذا فإننا ننتظر أن يشهد الأجانب على تقدير قيمنا، ذلك هو مقياسنا.

هنا نورد ما جاء عن المعرض في دوريّة أرمنيّة في مصر تدعي( الصقل ): "منذ قرون، عندما فتح الأرمنيّ عينيه تبدّت أمام ناظريه جبال تعانق السماء، تحيط بهـــا الغيوم، آفاق متعرّجة، حافاتها زرقاء ربّانية، سفوح الجبال تغطيها الخضرة، تنظر إلى الأودية السحيقة، حيث يختلط خرير مياه الأنهار مع فحيح الأفاعي. على بعـــد تتراءى له قبّة الكنيسة كرمز للديمومة، تنطلق منها رائحة البخور المنعشة. وهكذا تتمايل روح ذلك الفتى على أمواج الجمال والسمو والأبديّة والرؤى بعد أن يتجسّـــد كلّ ذلك كشعور وحسّ مرهف، كحكمة ورغبة، ولكن بعد أن تضاف إلى ذلـــك آثار الاضطهاد والتهجير والإبادة والمآسي فإنّ تلك الروح تتجسّد على ورق أو قمـــاش اللوحة كصورة مدهشة أو قصيدة مؤثرة على صفحات كتاب أو أغنية كئيبة على أوتار قيثارة.

لـــيس فاروجـــان رائـــد فن الرسم الأرمنيّ بمواضيعه وحسب، بل بأسلوبه وألوانـــه أيضـــاً، حيث نحسّ المظهر الملفت للانتباه للفنّ القومي الأصيل بألوانه وخطوطه وتركيبته المميّزة للشكل والخلق.

إنــنا نحييّ بسرور نهضة فنّ الرسم الأرمني من خلال هذا الرسّام الحقيقيّ الفنّـــيّ". ومن دوريّة ( الفنّ) الأجنبية نقتطف فقرة كتبت عن المعرض: " الفضاء رحـــب بيـــن الحقيقة والخيال وغير قابل للاجتياز غالباً. لقد صهر فاروجان خفايا جماليات أوجه هذين العالمين في توافق طبيعيّ، حتى ليخيّل إليك أنهما متطابقان. لا عجـــب، فهما يبينّان لنا بشكل محسوس ومعاش بعمق روحاً قويّة في الأعماق، واسعة ومخترقة. إنّ عالمه الداخليّ الشاسع يضمّ تنوعاً غير عاديّ في خلط بارع للأشــخاص والأشــياء والظواهـــر والأشكال والألوان الممزوجة. تخرج كلّ تلك الأشياء من عالم قدْ يبدو غريباً لنا، لكن الفنّان يحوله إلى شيء مألوف بمعجزة من ريشـــته. أمّـــا إذا ظهرت بوجه معروف فإنها تصور لنا بعد أن تلبس ثياب الفنّ السحريّة فتبدو أنها آتية من عالم غريب.

مـــن الملفت للنظر ذلك الحسّ المرهف المتمّم بالرعب القوميّ، الحسّ الذي يقـــبل الترفع إلى أعلى درجات الفنّ ليخلق أسلوباً خاصاً مطبوعاً بالختم القوميّ. ومن دواعي السرور الإعلان أنّ الخطوة الحاسمة في نهضة فنّ الرسم الأرمنيّ قدْ اتخذت، ويبقى أن تثمر تلك الخطوة بمبدعين جدد.

تهانينا بهذه المناسبة الفريدة".

□□

# أرمينيا جذوري

■ بقلم: أسدغيك جمكيرتن ■

■ ترجمة: عبد الله حجار ■

*مؤلفة الكتاب سويسرية من أصل أرمني عملت في المنظمة العالمية الخيرية "كاريتاس" وشاركت عام 1988 في بعثة إلى أرمينيا لمساعدة ضحايا الزلزال هناك، وقررت إثر عودتها إلى سويسرا أن تعود إلى أرمينية لتكتشف البلد والشعب ولتتعلم اللغة الأرمنية، وقد أمضت سنة كاملة في أرمنيا في أحد بيوت الطلبة بعد حصولها على منحة جامعية.*

تسجّل في كتابها "أرمينيا جذوري" شهادة عن سجلّ للحياة اليومية في أرمينيا السوفيتية التي تسير نحو الاستقلال، وانطباعاتها عن الشعب المضياف وظروف الحياة اليومية الصعبة والروتين وروعة الآثار، وتطّلع على آمال الشعب وهمومه الاجتماعية وتتعاطف معها محاولة نقلها إلى بلاد الانتشار وأوروبا كنوع من العرفان بالجميل وهي تحس بأنها وجدت جذورها في بلدها الحقيقي أرمينيا وكأنها ولدت من جديد...

يتألف الكتاب من 260 صفحة تطرقت فيه إلى أكثر من 50 موضوعاً في مختلف الشؤون البيئية والاجتماعية والسياسية والمالية مع التطلّعات المستقبلية وصفتها بشعور وتفكير من عاش في أوروبا وبتفصيل دقيق لما هو غير مألوف لديها مثل إعداد الطعام ولف اليبرق.

ونقتطف من كتابها فصل "العام الجديد" و"الميلاد" و"عيد مولد" و"في المطعم" نموذجاً على أسلوبها الجزل في الوصف والتعبير.

ع.ح.

## العام الجديد

### 31 كانون الأول 1989

غدا يبدأ العام الجديد. يوم الاجتماعات الكبرى في العائلات، حيث يتم إعداد وجبة طعام فخمة لتكون بداية جيّدة للعام. إني ملزمة بالذهاب لقضاء سهرة الميلاد عند ليفون. لقد ألحّ كارو كذلك... لكن ليفون هو صديق ابن حماي، أي هو صديق مختار وكان فيه شيء من الألفة والفطرة التي كانت تخص كل البدايات. ولذلك يكون هدف أن أكون أرمنية، قد تحقق...

ذهبت إذن لقضاء السهرة عند ليفون. في 31 كانون الأول كانت تتوارى السنة القديمة وتبدأ السنة الجديدة. "تطايري يا أغطية زجاجات المشروب، وليسمع رنين الكؤوس"، "غداً سوف تطرد الهموم وسوء الحظ"... لكن لا! في الحقيقة، العيد المفترض لم يكن موجوداً، لم يحاول أي شخص أن يبذل جهداً ليعيش الأمل، حتّى ولو لمناسبة واحدة أو لساعة واحدة... العيد هنا، ربّما يُبتهج به بوجود الطعام، لكن الأنفس غير سعيدة، وسوف ننتظر برصانة منتصف الليل قبل الجلوس إلى الطاولة. وينتظر كالعادة دائماً أمام هذا التلفاز شديد الاحتكار، المُثقل بالضجيج والصور الذي يبث لنا مسلسلات أفلام أوروبية رديئة. ليليت وفكتوريا يبدو عليهما الإرهاق، أحاطت بأعينهما هالات سود من التعب، لقد قامتا بإعداد فطائر خلال الليل بطوله. كما أن إيزابيل الصغيرة مريضة. هواء يريفان الفاسد لا يناسبها. وبعد إيزابيل سيأتي دور ديكران...

بسبب التلوّث، الجهاز المناعي لسكان يريفان متخرّب بشكل كبير، والمرض المتزايد بسبب ظروف الحياة شديدة الاضطراب سوف يستقرّ بشكل دوري في كل فرد من العائلة، وسوف يؤدي لاحقاً إلى هجمات جديدة غامضة.

ويمضي الوقت، ويخفف الكونياك الكآبة، الجو هادئ، وكان ليفون يتألم أكثر فأكثر من ركبتيه. أدّت إصابته بالروماتيزم إلى إحداث تشوهات. لا. لا يوجد شيء يمكن القيام به، لقد حاول كل شيء دون جدوى.

ـ لقد ابتلعت بالتأكيد كمية من الدواء تعادل رفاً في صيدلية، ولم أستفد منها شيئاً. يجب القول بأن الأدوية هنا...

لكــل يــوم موكب كآبته... هذه الليلة، إنه العام الجديد، وكل شيء سيبدأ من جديد. إيزابيل، غارقة في قراءاتها، تعطس مرات عديدة.

ـ هل تناولت ملعقة العسل هذا الصباح؟

نعــم، لقــد تناولتها. بالطبع لو كانت مع الليمون لكان ذلك أفضل. لكن هنا الليمون... في تقديري، أن ليمونة واحدة تماثل بغلاء سعرها قيمة وجبة في مطعم جــيد في سويسرا. بينما بالنسبة للعسل، فلدينا العلبة الثمينة المجلوبة من سويسرا والتي يُحتفظ بها للحالات القصوى... إنها "علبة العسل ذات القطرات الذهبية". أمّا بالنسبة إلى ليفون، فإن جرعة من الكونياك الأرمني أوري هي التي تشفي الرشح والذبحــات الصــدرية لديــه. قليل من الأوري المدعّم بقليل من الفلفل والثوم... وبصحتك!!!

وأخيراً حل منتصف الليل. عام سعيد! عام سعيد! سنة مباركة Chnorhavor nor dari! أخرج ليفون الشمبانيا؛ على المرء أن يستمتع إنها السنة الجديدة. الشرب نخب العائلة، ونخب أولئك الذين تركناهم في سويسرا، وفي أرمينيا... كلام وكلام مــن أجل الجميع... لكن القلب بالتأكيد لم يكن سعيداً. لقد حضّرت فكتوريا الأرز المطحــون التقليدي المزود بالمشمش والخوخ والزبيب، كما توجد قطع منتخبة من فخــذ الحمــل، كــنا لــيفون وأنــا قد ذهبنا نبحث عنها قبل عدّة أيام على طريق إتشــميازين الشــريان الكبــير الذي تنتصب على جانبيه خرفان تلهث أو خرفان مســلوخة لا تلهث، رأسها المقطوع مرمي على حافة الطريق. ويباع اللحم... إنه الــيوم وجبة العيد! لكن في العاصمة، لا يبيع اللحامون شيئاً... وفي الأفران يوجد الخبز فقط في الصباح الباكر. في هذه الليلة سيقدّم البرتقال على طاولة ليفون. أنا أعلــم أن الكــيلو غــرام يكلّف 13 روبلاً في السوق. برتقال للجميع ويوزع عدة مــرات على الجميع. ويقشّر ليفون البرتقالات ثمَّ يضعها بشكل أرباع وبعناية في كل صحن على حدة. مذاق ذهبي. برتقال منتخب ربّما من جورجيا.

سنة سعيدة! إنه العام الجديد! سنة مباركة Chnorhavor nor dari!

أمّــا ديكران فهو تحت الطاولة غير مهتم، يلهو بأقدامنا المصطفة جيداً، وهو يقوم بإحصاء الموجودين ويخطئ أحياناً في العدّ.

## الأول من كانون الثاني 1990

سـنة جديـدة أيضـاً، لكن هذه المرّة في ضوء النهار. الجو في وكالة الـ A.P.N. أقـلّ وطأة لقد قررت مجموعة الرفاق أن تبذل جهدها لتفرح. وسيحتفل بالعـيد عند كل شخص وبالدور وفي وقت محدد. أولاً عند روبين حيث سأتعرّف علـى عائلـة مـن الفنانين الرسامين، لفت بعض أفرادها انتباهي بتعبيرهم شديد النمطـية. أخوة، بنات حمّ، أب وأم وأجداد... صباح الخير للبعض، صباح الخير للآخريـن: وتتتابع الوجوه، جمال قديم صارم حيث يمتزج الذكاء مع السحر. كان وجودهم كافياً لعيد اكتشاف شعب حكايات الأطفال. وبعد صفقة قوية في راحة اليد دلالـة على الصداقة، أدخلني الوالد في الحكاية: غرفة تزخر باللوحات والصور الشخصـية للعائلـة، وعلى مقربة مسند خشبي نصف مستور تحت قماشة كبيرة بيضاء وبعض المجلات مبعثرة على الأرض. وفي الغرفة المجاورة طاولة مرتبة: غطـاء طاولـة مخرّم وصفّ من الكراسي وكؤوس وصحون وملاعق وسكاكين وشـوك وتعاقـب صـحون... الديكور ذو أبهة وكأنه ينتظر ملوكاً... إنه ملوك استعملوها ورحلوا.

سـنذهب بعـد ذلـك إلـى بيـت أرثـور حيث الجو متوتر، لأنّ الزوجين متخاصـمان. الطاولـة الـرائعة معدّة بالطبع لكي تجعل المرء ينسى ويسامح... المضيفان متضايقان. لحسن الحظ، هناك طفل صغير ظريف ومستبد يلهو ويشوّش كـل شـيء. وتقـبله الجدّة ويغتنم الصغير المتهيج الفرصة ويرمي الصحن على الأرض، وبمـا أن اليوم هو العيد فللعزيز الصغير الحق هو أيضاً في الحصول على قطرة من الشمبانيا من كأس أبيه.

ويستمر العيد عند آفيد حسب البرنامج الموضوع مع الطاولة الفاخرة والمليئة بالأطعمة. ولكن... هل كان يجب البدء من جديدة مرة أخرى؟

ـ بالطبع؟ إنه لشرف كبير لنا أن تكوني ضيفتنا!

وبمجـرّد أن عرفت والدة آفيد أنني أرمنية راحت تتكلم بصوت عال وتقوم بالعـناقات الحـارة... نجلس إلى الطاولة وهاهي المأدبة مرة أخرى. وأشعر أن ساعتي قد دنت لكثرة الطعام الذي تناولته وأستعد لمواجهة أزمة كبدية. ويبدو لي

أن الألـــوان تمتزج وتختلط الصحون وتزداد الكؤوس، تتصادم فيما بينها مع طنين في كل مكان... لنتكلم عن شيء آخر.

ومقابلـــي على الطاولة كانت الأخت هرمينة وهارون ابنها ذو الأربعة عشر عامـــاً ولـــم يعمّد بعد. لا تسألوني كيف كان يتم الحوار. همس آت من بعيد كان يتضخم بالتدريج ليصبح صوتاً جلياً على شكل سؤال:

ـ هل أنت معمدّة يا أسدغيك؟ هل بإمكانك أن تكوني إشبينة لهاروت؟

كانت بضعة كؤوس مبعثرة هنا وهناك، وكان الجو مكهرباً نوعاً ما بالكحول واللامـــبالاة. وكـــنا نتكلم من وقت إلى آخر عن تعميد هاروت، لكن "في يوم ما"، و"يوم ما" هذا دوماً بعيد.

كـــان عليّ أن أفكر، أن أكون إشبينتها، نسيبة ولّد أرمني... غريب كيف أن كل شيء هنا يؤخذ ببساطة... وفي الحقيقة الجو مساعد... وإذا كان هاروت يريد ذلك حقاً، فلمَ لا؟ هاروت! نعم، أراد ذلك حقاً من كل قلبه! إذن تمَّ الاتفاق!

تـــمَّ تبادل التهاني بين الجميع وسيول من الخطابات المنوعة والمبهجة، وتم تثبيت كل شيء. وتم العماد وهو تقليد بسيط في العائلة في الأسبوع التالي. لقد تعلّم هارون الإيمان بشكل غامض من أهله بدون دعم من أية جهة.

على كل حال كان وجه هاروت، يوم العماد، مشعاً ومؤثراً جداً. وحال إنهاء عملـــية الغمر بالماء قمت دينياً بتنشيف الطفل بمنشفة الإشبينة. وعند الخروج من الكنيسة تمَّ توزيع الشوكولا...

إذن عـــام جديد وقرار كبير ولد هناك وسط هذه النفحات الروحانية. وينتهي الـــنهار، أوف، مـــا زال أمامـــي عام لاستعادة قواي... أمّا بالنسبة لأهل المعمّد الفرحين فإنهم مشروحو الصدر ومبتهجون. ولحسن الحظ كان ليفون يقود السيارة بأعصـــاب بـــاردة وهو جالس خلف المقود. بينما جلس أرثور وروبين في القسم الخلفـــي يشـــكلان زوجاً ممتازاً: يلوحان بالتحية بالقبّعة والشبابيك مفتوحة بالكامل ويحادثـــان المشاة وركاب السيارات العابرة الأخرى معلنين أنه العام الجديد. وأن جمـــيع الآمال مسموحة، وأنه غداً أو بعد غد ستصبح الكاراباخ جزءاً من أرمينيا، وأن جميع الأرمن في العالم سوف يعتمدون.

ـ سيداتي سادتي، سنة جديدة طيبة، نحييكم بصوت منخفض.

في الواقع أن القبعة المحترمة للصديق روبين وهي تمد إيماءة صاحبها رفيع الشـأن أخـذت فـي الوقـت نفسه حرياتها لتذهب تلهو في آفاق أخرى، في قناة بالصدفة متواضعة. لقد وضعت بذلك نهاية لسنوات من الخدمات المخلصة والجيدة لرأس شخصية مليئة بالإساءات والأهواء، لكن حمل القبعة غفر لها كل شيء.

## الميلاد

### 6 كانون الثاني 1990

المـيلاد[1]. تسـاقط الثلج طيلة الليل ثمَّ توقف، مصحوباً بهبوط برد جليدي. وعلـى حافة نافذتي، تجمدت حبات زيتون أرمين السود الكبيرة داخل مائها الذي تحول إلى جليد. ويشير ميزان الحرارة عندي إلى 15 درجة تحت الصفر.

الميلاد. مولد الفقير. لكن الفقير هو ملك. وتبدو المدينة بهية وجميلة. ويوزع الـرز علـى المؤمنيـن عند باب الكنيسة وKhorovats (المشاوي) مجلوبة من كارابـاخ أمـام سـاحة الحرية. وكان أهالي يريفان قد أرسلوا الهدايا إلى أطفال كاراباخ. إنه تبادل الأعمال الخيرية بين الوطن الأم والابن المفصول عنه.

وجد روبين سيارة مع وقود لذهابي إلى إتشميازين، وهو نفسه يجب أن يلتقط فيها صوراً للوكالة.

المـيلاد في الكاتدرائية. سيمسح روبين الكاتدرائية طولاً وعرضاً وهو يمر بصـعوبة ضـمن حشد كبير ومتراص من الناس، وفي يده آلة تصوير يلتقط بها صـوراً مـن قريب ومن بعيد: دخول موكب رئيس الأساقفة مع نوابه والشمامسة الشـمعدانيين والإنجيليين وأولاد خدمة القداس، ويتقدم موكب الحاشية بعظمة وقد اصـطف أفراده بانتظام على نسقين وجاء من بعدهم صف المرتلين مزهوين في ثيابهم الزرق.

---

[1] يعـيد الأرمـن المـيلاد في 6 كانون الثاني في الوقت نفسه مع عيد الغطاس انسجاماً مع تقليد الكنيسة الأولى.

والتقطــت صور بعض لحظات التوقف مثل تلك البركة التي تعطى للجموع برسم إشارة الصليب ومشهد نظرة الفتاة الصغيرة الحالمة وهي تحدق في الشمعة التي ترتجف... صور وصور... حصاد وفير من الصور... ونفدت أخيراً الأفلام. لقد توقفت آلة التصوير وعدوان ومضاتها. هدأ روبين ووضع آلة التصوير ضمن محفظــتها، لكن ومضات أخرى ربّما لأشخاص آخرين ما زالت تعمل... إنه على كل حال متحفظ جداً بالنسبة إلى الكنيسة. وهو متوتر جداً، إذ أنه "لا يستطيع البقاء في صالة سينما حتّى انتهاء الفيلم" ويعرف ذلك في نفسه. ومع ذلك فقد توقف في الكنيســة. ربط بين حياته وعمر القباب من آلاف السنين، إنه عمود من اللحم إلى جانب أعمدة من الحجارة مسنداً ظهره بسكون وثقل مثل ركيزة.

عــند الخـــروج من القداس، قدّم لي كهدية صليباً من هذه الصلبان الصغيرة المصـــنوعة من النحاس الأصفر والذي يباع عند مدخل الكنيسة. بينما السوفييتي كـــان قـــد قدّم لي صليب أرمينيا. كان الأرمني يستعيد تقليده ويرتبط بماضيه من جديـــد. اقـــتحم رمز العطاء أبواب الإيمان. وهي طريقة تقول "لا" للفلسفة المادية وللتأكيد مجدداً على هويته الأرمنية. يا لها من صرخة!

الـــيوم، ينقل قداس الميلاد على التلفزيون الأرمني. وما كان ذلك يحدث من قبل أبداً. وقد تابعت الكنيسة حجّها الكبير وهي تجذب وراءها شعباً يولد من جديد. إنه الميلاد!

## عيد مولد

### 18 آذار

رجفة برد: البارحة، كانت درجة الحرارة 15ْم. اليوم، البرد قارس.

غداً، إنه عيد مولد ليندا زميلتي في بيت الطلبة. يجب الاحتفال! فريقنا مدعوّ، وهو مؤلف من ثمانية طلاب، من بينهم أرمن من الولايات المتحدة وسوريا ولبنان وحـــتى "حســـن" الســـوري المحبوب الذي لا يتكلم سوى العربية والروسية! وكل مـــا اســـتطعت أن أفهمه منه، أنه يمضي وقته في العيش على أحزان حب يحاول إغراقه على مراحل بدعوتنا إلى شرب الكحول.

أشغل نفسي في عمل اليبرق مع كوهار وهريبسيميه. اشتَريت أوراق العنب طازجة من السوق، تُنقع طويلاً وتُفصل بعناية واحدة واحدة لتدرج فيها حشوة معدّة من الرز والتوابل وقطع ناعمة من اللحم. عمل طويل يحتاج إلى صبر كررته الأيدي الأرمنية منذ أجيال وهي تتأمل في أرق الصغير الأخير أو في زيادة سعر البندورة.

ـ انتبهي، يبرقتك صغيرة جداً، وهناك وضعت كثيراً من الحشوة، يجب وضع الكمية الكافية لملء جميع أوراق العنب. وهذه يجب أن نلفها من جهة العروق. والأوراق الممزقة يمكن استعمالها أيضاً.

أجل، ها أنذا الأرمنية يداي ممتلئتان بالرز وورق العنب، أعمل في غرفة الطلبة في يريفان. على طاولة الدرس بعد الانتباه لإبعاد القواميس وأشعار طومانيان. وعلى مسافة قريبة، على الموقد الكهربائي الصغير وفي طنجرة ضخمة وضع اليبرق بعناية على شكل أهرامات. وفي الغرفة المجاورة، تحضر البيتزا: وقد امتزج العجين بالماء والملح ثمّ ستمدّ لاحقاً الخضرة الصغيرة المتوفرة في السوق، ثمّ شيء فاخر جداً، بعض أسماك مملحة جلبها حسن من سورية. أمّا الجبن، فقد أمنه روبين، جبن قاسٍ مجلوب من هولندا ويؤمّن بأسعار غالية في الشوارع العميقة من المدينة. سيجري الطبخ في فرن الطبقة العليا، في طرف الممر. بقي أيضاً موضوع المشروبات: لا يوجد نبيذ في المدينة كلها. لقد علقت الحوانيت لوحاتها "لا يوجد نبيذ". لا فائدة من الإلحاح. إلا إذا... بالطبع "إلا إذا"... إنه النظام D للعلاقات التي ستظهر في آخر لحظة، وبنفس الرشاقة التي يخرج فيها الساحر الحمَامات من قبعته تظهر زجاجة أو اثنتان من هذه الزجاجات الثمينة. وإذا كان يلزم عشرون زجاجة. حسناً. ابن عم يسكن في الريف سيؤمنها.

تحولت غرفة الدراسة إلى مختبر حقيقي. إن إنجاز اليبرق يستغرق زمناً يمتد حتّى منتصف الليل، حينما لا يسيل من الحنفيات أية نقطة ماء. الأيدي الغارقة بالدسم ستتدافع أمام علبة المحارم "الكلينيكس" المصنوعة في سويسرا". غداً، سيجلب حسن الخوروفاتس (الكباب المشوي) الذي يباع على الرصيف ملفوفاً ساخناً في لافاش (الخبز الرقيق المصنوع على الصاج). كارينيه ستجهّز الأطراف بالكراميل في بيتها. ونورا ستجلب الكاتو الموصى عليه.

دائماً النوع نفسه من الكاتو، مصنوع من عجينة البسكويت المطاطي بدون طعم، مغلّف بكريما لا طعم لها كذلك. ويضاف إلى كل ذلك سكاكر على شكل أزهار وردية وخضراء. إنه الكاتو التقليدي الذي لابدَّ منه ولو في المناسبات الصغيرة. من أجل الموسيقى سنجمع كل ما لدينا من أشرطة التسجيل: من الفولوكلور الأرمني حتّى (الروك) الأمريكي مروراً ببعض الأغاني الجبلية السويسرية...

سيكون العيد جميلاً! حوالي 15 شخصاً سيأتون ليحيوا الجدران اليائسة في غرفتي. روبين بصوته العريض يؤدي أغاني حبه، ثمَّ بدون توقف ينتقل إلى أغانيه الثورية المفضلة. ليندا سترقص، وحسن، وهو رياضي متفوّق، سينفذ قفزة رهيبة متجنباً الكرسي الذي يُبعد بفطنة من خلفه. وستجد العصابة الصغيرة في الممر مخرجاً أكثر ملاءمة لحيوياتها الملتهبة. حتّى الساعة الواحدة من الصباح، سنكون أسياد الطبقة بكاملها. إذنّ مؤمّن ومثبّت بفضل حضور أرمين "حارس" الليل.

## في المطعم

### 21 آذار

عادت مياه الأحواض في المدينة للجريان وعادت من جديد خطوط سير أهل يريفان الذين جاؤوا للاستمتاع بالرطوبة قربها. البارحة قبض أرمين راتبه ويريد أن يحتفل حالاً.

ــ قبل فوات الأوان... يشرح. ومن الآن فصاعداً وفي كل شهر، سنحتفل بذلك معاً في المطعم.

ــ إلى أين نذهب؟

ــ إلى تفليس، إنه مطعم جيورجي يبعد قليلاً في مرتفعات المدينة.

وهو مطعم تعاوني نظيف جداً ومعتنى به. الطاولات الثلاث أو الأربع مشغولة بالكامل. كلا، ظلّت إحداها فارغة من أجلنا. طبعاً أرمين قام بحجزها. الجو خانق قليلاً. وآلة تسجيل (أو حاكي) قديمة تبث أغاني تقليدية، لكن أصواتها

غـــرقى بالكامل بإيقاعات بطارية اصطناعية. واهتماماً بمدعويه، يلحّ أرمين على وجوب سماع بعض ألحان الناي[2].

يصـــل النادل. يطلب منه تشكيلة "مازا"[3]، وبشكل خاص صحناً "إنكليزياً". ويخـــرج أرميـــن مـــن محفظته السوداء الرسمية جداً هدية من صديق إنكليزي، والمكمّل الذي لابدّ منه، الذي لا يباع في المطاعم ولا يتوصل إليه إلا عن طريق العملـــة الأجنبـــية: زجاجة الويسكي. هي ساحرة حرّرت دائماً حالات روحية في أرميـــن. ومع العزف الحزين والأنين الخفيف للناي في الخلف أحسستُ أنا أيضاً بأن روحي تتناثر.

جلـــس الـــثلاثة رعـــاة أســـفل الشجرة ذات القشر الكثيف والأوراق اليابسة والأغصـــان المكسَّرة. الأعشاب عالية ونادرة وبريّة. وأخرج راعيان ناياً صغيراً من جيبهما ورافقهما الثالث مع طبلته. وعلى بعد قليل، كنيسة منسية ترتعش. القبة مقـــتلعة وأحجارها راسخة أكلتها الطحالب. وفي جهة أخرى، سيدة عجوز بغطاء رأس أسود يتدلى على كتفيها جالسة على مقعد حجري عند مدخل البيت؛ ورفيقها العجـــوز بجانـــبها يـــنظر إليها ووجهه يستند على يده. تغزل المرأة صوفاً غامقاً وتقـــيس حركاتها الطويلة الموجهة إلى الكتف المنحدر لرجلها. وهناك على البعد، بقـــرتان رأساهما منخفضان تدوسان الأرض بثقل وتجران وراءهما الدرّاسة التي يوجهها الفلاح بعصا طويلة في يده.

**ازرع أيها الزارع**
**ولتكن حركتك أبدية**
**من أجل الطاولة في منزلك**
**كل هذه الحبوب المتناثرة ستمطر**
**غداً مطرة مطهّرة**
**على أحفادك[4].**

---

[2] ناي صوته خشن ودافئ من الآلات الأكثر شهرة في أرمينيا له شعبية جداً لدى الرعاة.

[3] مجموعة صحون مختلفة من السلطات والخضار تقدم باردة كمقبلات.

[4] من قصيدة للشاعر تانييل فاروجان (1884– 1915)، مأخوذة من ديوانه "نشيد الخبز"، أشعار مترجمة من قبل فاهيه غوديل، نشر: "ما بين هلالين" 1990.

رغبة شديدة تصعد من أعماق ذاتي، رغبة البقاء فترة في أرمينيا القديمة هذه. وأن أعود إلى الغضار القديم في مهد تقاليدها.

ـ سآخذك إلى قرية تيليجان، يقول لي أرمين، لي فيها عائلة ومكان. وسوف يستقبلونك بفرح.

لقد تكلم عن "كيور (Kiour) مقطع واحد وحرف" راء "r" قاسية في الأخير. كلمة كاملة لتدل على "قرية" والتي تعني أيضاً "ريف" في الأرمنية. حدّ قصير جداً وصعب ليدلّ على الآفاق البعيدة المتموجة تحت الريح، الأراضي المزروعة أو الأراضي القاحلة وبدون حصاد، وعلى حياة الزهد والمليئة للفلاحين وتقاليدهم الغنية. "كيور" ليست بعيدة عن "كار" (الحجر) ولكنها أكثر حلاوة، كما لو أن التربة اللزجة قد صقلت زواياها. "كيور" إذاً أرض ثقيلة ترن مثل آخر اتصال بالحياة. ويشكل الأرمن شعباً ينتمي إلى الأرض. سكَتَ أرمين. سكون ممتلئ بالحنين. رغبتي بالدخول بعمق أكثر أيضاً في أرمينيا يجعله يفكر:

ـ لماذا يسعى كثير من الناس لمغادرة البلد؟

في الواقع حوالي 12000 أرمني غادروا خلال السنة الماضية. والحركة لا تزال في بدايتها الآن، آخذة معها في موجاتها المتعاقبة جزءاً كبيراً من القوة العاملة الحية في البلد.

ـ ذلك اليوم أيضاً، يتابع مرافقي، قال لي طبيب "أرمين أنت الذي لديه اتصالات مع الخارج، ساعدني على الخروج من هنا". نفس الطلب جاءني من موسيقي. بلدنا تفرغ، من جميع المهن بدون تحديد. كارثة حقيقية. الناس لا يصبرون وليس لديهم مثابرة ولا يتبعون أي هدف وينحرفون عند وجود أقل عائق. ما يهمهم النتائج الفورية وهي الأكل جيداً واللباس الجيد والحصول على سيارة ومسجلة...

ـ لكن أنت يا أرمين، ماذا يبقيك هنا؟

ـ أسدغيك، أنا أرمني، أنا أرمني "جيد"، ومهما كان المستوى، اتّحد ذاتياً مع شعبي. قدري أن أرتبط به. هنا موطني وليس في مكان آخر.

□□

# لقد كان شخصاً مختلفاً

## « اغفري لي أمّاه لأنني كتبت عن حبيبكِ بيدو »

■ بقلم: سيمون سيمونيان ■

■ ترجمة: هراج كل سحاكيان ■

*كـــان بيدو في ما مضى صديق والدي المقرّب، وقد عملا معاً في الطاحونة نفسها وبلغت صداقتهما مبلغاً عظيماً. وقد اقترن والدي ــ بعد وفاة صديقه بيدو ــ بزوجته والتي أصبحت فيما بعد والدتي.*

*وكـــان بـــيدو لـــم يشأ أن يفارقنا أبداً، فبات يحتل، رغم انتقاله إلى الرفيق الأعلـــى، مكانـــة أعظـــم من السابق في حياتنا، وأصبح الزوج والأب والصديق معاً... لكنه لم يكن أكثر من عدو لدود في نظر والدي، الذي رغم ما كان يكنّه له في الماضي من مشاعر ودية، بات الآن الوحيد الذي لا يشعر بالارتياح كلما ذكر اسـم بـــيدو. أمـــا عداوته هذه تجاهه فهي تعود إلى اليوم الأول منذ أن ووري جثمانه الثرى.*

أتذكـــر بكـــل وضوح، وكنت وقتئذ طفلاً صغيراً، كيف شبح بيدو كان يخيّم علـــى منزلنا كلما حدث سوء تفاهم بين والديّ وكأنه المتسبب الوحيد لكل أزماتنا. لقد كان تأثيره غريباً، ونفوذه عميقاً وخاصة بعد موته، حاله في ذلك حال القديسين والأبطال، الذين عادة ما يسجلون أعمالهم الجليلة بعد وفاتهم ونادراً ما قبلها.

ولــم يكــن بيدو بطبيعة الحال قديساً مبجلاً أو بطلاً خارقاً، وإنما كان مجرد واحــد من أهالي منطقة صاصون الأرمنية وبالتحديد من قرية دالفوريك الشهيرة. وكان ابناً لأحد الحدادين العاملين في مناجم الحديد في المنطقة. لقد اجتث والد بيدو عروق الحديد من صلب الصخر وجمعها وصهرها وصنع منها المعاول والمحافر ومختلف القضبان، كما سخرّها في إصلاح البنادق العتيقة، التي حارب بها وأخوته وأبناء القرية الآخرون المعتدين الأجانب، فنسجت الأناشيد التي تتغنى ببطولاتهم.

بعــد أن بلــغ بيدو العشرين ربيعاً من عمره غادر صاصون واستقر بعض الوقت في منطقة واقعة غرب الرافدين، حيث عمل في عدة طواحين ثم استقر في مديــنة عنــتاب، كــالعديد من أهالي صاصون في تلك الحقبة. هناك تعرّف على والدتــي وتــزوجها وكانت لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو في الخامسة والعشرين.

لقــد كــان بــيدو شاباً وسيماً جسوراً، استحوذ على إعجاب والدتي وحرك مشــاعرها الرقيقة ولكنه توفي بعد سبع سنين من العشرة الزوجية دون أن يخلف ابناً أو ابنة.

كنــت أتحين الفرصة دائماً لأسألها بروح مشاكسة: أماه، هل كان بيدو فعلاً وســيماً؟ فكانــت ترد على تساؤلي: بل أكثر الناس وسامة، لــه هدبان سوداوان وشــارب كــث وقامة مديدة ووجه بشوش وهندام راقٍ مثل هندام الأغوات وأناقة طاغــية. كان أكثر سكان البلدة وسامة على الإطلاق، وكنت موضع حسد النسوة جميعاً.

ولكــي تثبت ما تقول، كانت والدتي تهرع إلى صندوق جهازها العتيق، الذي بالــرغم مــن اهترائه، كان دليلاً ملموساً على أيام سعيدة ماضية، فتقوم بفك قفله وتهــتدي إلــى رزمة من الصور المطمورة بين الملابس البالية، تسحب من بينها صورة الزفاف، فتتأمل بيدو... حبيبها بيدو.

كانــت القصص التي ترويها والدتي عن بيدو والوسامة التي كان يتمتع بها تمــلأ قلبــي إعجاباً وافتتاناً بهذا الرجل، الذي لم يكن والدي وإنما زوج والدتي. ولكي تزيد والدتي من حدة انطباعي عنه كانت تسترسل في السرد:

ـ هــذه الصورة تنتقص كثيراً من جمال بيدو وعنفوانه. لقد التقطت له هذه الصــورة بغتة دون سابق تحضير، إذ كان عائداً لتوه من عمله في الطاحونة ولا تــزال آثار الدقيق عالقة على ثيابه وتغطي أطراف وجهه. كان الجيران يلتقطون صــورة عائلــية لهم فلما رأوه أصروا على أن يلتقطوا له أيضاً صورة تذكارية، لذلك لم تسنح له الفرصة لتبديل ملابس العمل.

وكان علي أن أتخيل مظهر بيدو من دون بياض الدقيق الذي يلفه، فتبدو لي سحنته أكثر قتامة وشواربه أشد اسوداداً.

كانــت عينا والدتي تلمعان كلما تطرق الحديث إلى بيدو ولا تلبث أن تنهمر الدموع منهما مثل حبّات الرمّان. وكان يحدث أحياناً أن يفاجئنا والدي بدخول الدار دون سابق إنذار أمام الاستعراض الموقر لتلك الصور، فكانت والدتي تلملم الصور دون أن تكفكــف الدمـــع وتعيدها إلى مغلفها القديم تحفظها بعيداً عن الأنظار، أما والـــدي فكان يلجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة يقبع فيها صامتاً حزيناً، يبلع دخان ســيجارته ويستغرق في كآبته عدة أسابيع، لا يتجاذب خلالها أطراف الحديث مع والدتي على الإطلاق.

وهكــذا كـــان هذا الإنسان الغائب (بيدو) يمضي في زرع بذور الشقاق بين والـــديّ وكانـــت روحي الطفولية تمتلئ بمشاعر مبهمة حيال حزن والدي ودموع والدتـــي وإزاء هذا الوجود المحيّر للإنسان الذي من المفترض أن يكون في عداد الأموات.

عندما كان والدي يتغيّب عن الدار أشهراً طويلة بدواعي العمل في الطواحين الموجودة في القرى البعيدة، كانت والدتي تجلس معنا قرب المدفأة في ليالي الشتاء الطويلـــة وتسرد علينا قصصاً عن حبيبها بيدو، مستغلة غياب والدي، فنستمع ـ نحـــن أبناء زوجها الآخر ـ إلى حكاياتها بإعجاب وانبهار، بينما تغوص هي في بحر ذكرياتها القديمة.

ـ كـــان وسيماً مقداماً، كانت تقول، عندما جاء طالباً يدي للزواج، لم يسرع فـــي الدخـــول إلـــى دارنا مباشرة، بل تريث ملياً في الفناء الخارجي ونظر حوله وتفحّص موقع الدار قبل أن يهمّ بالدخول.

ــ ولماذا فعل ذلك يا أماه؟ ــ نتساءل نحن بسذاجة.

ــ كي يحدّد المنافذ المناسبة لتنفيذ خطة اختطافي في حال جوبه طلبه بالرفض، تجيب بتعالٍ وتستطرد: ولكن والدي قرر بعد تردد ومماطلة الموافقة على الزواج.

جرت مراسم الزواج بعد فترة وجيزة من الخطوبة، سنحت خلالها للخطيبين رؤية بعضها البعض مرة واحدة فقط، وعاشا بعد الزواج حياة سعيدة، وكان بيدو يكسب قوته من عرق جبينه ويشرف على أعمال مطحنتين، يشارك مكاسب إحداها مع والدي فكانا مثل أخوين ودودين مقرّبين.

كانت دار بيدو أشبه بنزل صغير يقصده أبناء صاصون القادمون من الريف إلى المدينة، يجدون راحتهم فيه قبل أن يمضوا إلى أعمالهم التي جاؤوا من أجلها، وقد وجد العديد من أقاربه المأوى المؤقت في تلك الدار، إذ كان بيدو كريماً يغمرهم بسخائه. وفي المقهى كانوا يتحلقون حوله، يشربون نخبه ويتطرقون إلى أحوال الوطن وفي آخر الليل يغادرون المقهى دون أن يجرؤ أحدهم على مد يده إلى جيبه بحضور بيدو.

وتتابع والدتي قصتها:

ــ لقد كان رجلاً غريباً حقاً. ففي ليالي الشتاء القارسة وتحت تهديد انهمار الثلوج وهبوب العواصف العاتية كان يترك المطحنة ويقطع مسافة تزيد على الأربع ساعات مشياً على الأقدام في مثل تلك الأجواء الرهيبة ليصل إلى البيت ليحفل بمؤانستي.

وعندما كانت تقول "البيت" كانت والدتي تقصد نفسها. فقد كانت هي مبعث فرحه وسعادته، وبفضلها كان يمكن له أن يقهر الثلوج والعواصف. هكذا عاشا معاً سبع سنوات رغيدة. وكان الأمر الوحيد الذي يؤرق بالهما هو عدم الإنجاب. كانت والدتي تبرر لنا ذلك بالقول إن الناس الأشداء، من أمثال بيدو، يبقون دون خلَف. ولم تتمكن الوسائل العلاجية الطبية منها والسحرية التي استعان بها أن تمنحهما بهجة الإنجاب، ولا تزال والدتي مقتنعة إلى يومنا هذا بأنها كانت ستنجب منه طفلاً ولو بعد حين.

وكانت تختم عادة قصتها بالقول:

ـ كانت تلك سنين رائعة لا تعوّض. في ذلك العام جاء إلينا العديد من أهالي صاصون، رغم أن الأوضاع لم تشهد أي حرب أو مجزرة. وكان ذلك قبل الحرب الكبرى بسنتين. جاء خمسة أو ستة من أقارب بيدو وكلهم في حالة مزرية، فكان قلبه ينفطر لرؤيتهم، فينفق عليهم المال الكثير. وذات يوم مضى كالعادة للعمل في المطحنة ولكن في ظهيرة اليوم التالي تناهت إلى مسامعي أصوات الزعيق والبكاء من الخارج، فمددت رأسي من النافذة ورأيت الرجال يحملون بيدو على أكتافهم وكان قدْ فارق الحياة فجأة في المطحنة.

أُعدّت له جنازة مهيبة، شارك فيها أقرباؤه المهاجرون من أهالي صاصون، وكان والدي، صديق بيدو، أكثر الناس تأثراً بما حدث، فبكى بحرقة على فراقه، كما تشهد بذلك والدتي "كان يرتمي على كومة الحجارة التي غطت قبره وينتحب بألم راثياً صديقه العزيز".

لم تتقهقر منزلة بيدو عند والدتي مع مرور الأيام ولم تنحسر عنها مظاهر الحداد ولم تندمل جراحها النازفة بمرور الزمن، فبات الشيء الوحيد الذي يملأ حياتها زيارة قبر بيدو.

ـ كنت أقصد المقبرة حتى في أيام الشتاء الباردة. أتذكر جيداً... لقد كان يوم عيد القديس فارتان، وكان لابد لي من أن أذهب إلى المقبرة في ذلك اليوم. كانت الليلة السابقة ماطرة وأرادت والدتي مرافقتي إلى المقبرة، التي لم يكن يحيطها سور أو يحميها حارس، في حين كان خطر الذئاب الشاردة محدقاً... كنا نتقدم بين الأضرحة بحذر شديد وفي لحظة من اللحظات تخلفت والدتي في السير وأصبحت أنا وحيدة في المقدمة وتراءى لي بأن الأضرحة المغتسلة بمطر الليل قدْ بدأت تتزعزع وخرج منها أناس كثر في لمح البصر، ورأيت بيدو يتصدر صفوفهم ويسد الطريق أمامي وكان يرتدي الثياب نفسها التي دفن بها، فتجمدت أوصالي. كان هو نفسه، لا أحد غيره، حدّق فيّ وصاح قائلاً:

ـ عودي من حيث أتيتِ ولا تجيئي إلى هنا ثانية...

أدركتني والدتي واستغربت عندما وجدتني جامدة لا أنطق بكلمة، فضغطتُ

علــى عضدها وطلبت منها أن نعود أدراجنا، ولم تصدقني لأننا لم نكن قدْ وصلنا بعدِ إلى قبر بيدو...

هكــذا، فــي يــوم عيد القديس فارتان، في المقبرة الصامتة وبين الأضرحة الرطــبة وعلــى مرأى من الذئاب المتربصة، ظهر بيدو بثيابه المعهودة وأجبرها علــى العــودة، وأصــبح ذلك اليوم يوماً مصيرياً بالنسبة لها وبدأت تشغل نفسها بالحــياكة. ومكــنها الــنداء الآتــي من العالم الآخر وحده من الخروج من عالم الأحــزان. وبعــد عام من العمل الدؤوب جمعت والدتي ما يكفي من المال لبناء ضريح جديد لحبيبها بيدو، ولم تتوار ذكرى بيدو تحت ثقل هذا الضريح الحجري بل بقيت حية نضرة في مخيلة والدتي.

مضــت ســنة أخرى... أبدى والدي رغبته في الاقتران بها، فتزوجا وطفح المــنزل في بضع سنين بالأطفال انشغلت والدتي بواجباتها المنزلية ولم تتخل عن بيدو أبداً. أسبغت السنوات المنصرمة نوعاً من القدسية على ذكراه، التي عشعشت في قلبها وتبوأت فيه مكانة فريدة. لقد ربّت أبناءها مفطورين على ذكراه، إذ كانت مقتــنعة تمام الاقتناع بأننا كنا أبناء بيدو المتوفي وأن هذا الأخير قدْ تجلى لها في كلّ ليلة حبلت فيها بأحد أطفالها وكأنه الروح القدس.

أوصــت والدتي بأن تُدفن بعد موتها بجوار قبر بيدو، إلا أن ظروف الحرب والتهجــير جاءت لتحول دون تنفيذ رغبتها تلك. لكنها اتخذت قراراً آخر، لا يمنع تنفيذه أي عائق، لا حرب ولا تهجير ولا أي مانع دنيوي آخر. لقد قررت أن تحيا معــه عــندما سيحين الوقت للانتقال إلى العالم الآخر. وكان والدي على علم بهذا الاختيار، فكان مكتئباً يدرك بأن طلاقاً لا مناص منه ينتظره في العالم الآخر.

دفعني تفضيل والدتي بيدو مراراً إلى التفكير في هذا الموضوع وكنت أميل إلى الاعتقاد بأن الحب الأول الذي عايشته والدتي بشخص بيدو ووسامته وجسارته وســعادة أيام الصبا التي يصعب تعويضها، كانت كلها عوامل دفعت إلى رجحان كفة بيدو في هذه المعادلة الصعبة ولكن والدتي لم تكن لتقرّ أبداً، خلال استفساراتي الفضولية المتكررة، بأن قناعاتها بخصوص بيدو مبنية على أي من الأسباب التي أتيت على ذكرها وكانت تكتفي بالتعليل:

ــ لقد كان شخصاً مختلفاً...

ولا تنكر والدتي بأن والدي ــ أي زوجها الثاني ــ تقيٌّ، ورع، طيب الخلق، لبق التصرف، ولكن جميع محاسنه وميزاته تلك لم تصمد أمام جبروت هذا الإنسان المتوفى منذ زمن. وكان هذا الولاء لذكرى حبيبها السابق يحزّ في نفس والدي ويسبب له الألم الشديد، محولاً بيدو بعد وفاته، ورغماً عن والدي، إلى أحد أعتى أعدائه بعد أن كان فيما مضى من أعز أصدقائه. عدو لا يمكن لوالدي أن يجاريه رغم أنه هو الحيّ الذي يرزق أما الآخر فمن المفترض أنه غائب ميت.

أما نحن الأطفال فقد اتخذنا مواقف متناقضة تجاه هذين الأبوين. ففي طفولتنا الباكرة أحببنا بعمق شخصية بيدو من خلال روايات والدتنا. أما فيما بعد، أي عندما تقدم بنا العمر، استطعنا أن نستشفّ كآبة والدنا وتأثرنا من حالته وبتنا نناصره ضد غريمه الأسطوري، الذي كان بتدخلاته الآتية من العالم الأخر يسبب له الشقاء. وأثمرت انتقاداتنا المتكررة لشخصية بيدو ببعض النتائج الحسنة في الفترة الأولى وكنا نجادل والدتنا:

ــ ماذا تفضلين؟ البقاء وحيدة مع بيدو أم العيش معنا ومع والدنا؟

فكانت تصمت عند سماع هذا. وهكذا رجحت كفة والدي وقويت شوكته بحججنا القوية وبدأت ذكرى بيدو تضمحل ولكن يبدو أنه لم يفقد عرشه في قلب والدتي، فكانت ترجع إلى صندوقها القديم بين الفينة والأخرى وتداعب بأناملها رزمة الصور الباهتة وتتمتم:

ــ لقد كان شخصاً مختلفاً...

ثم عندما بلغنا سن الرشد انكفأنا عن نصرة أي من الطرفين وبدأت فترة حيادنا، الذي أفسح المجال أمام بيدو كي يعيد زياراته الخاطفة ويستمر في خطب ودّ والدتنا، لكننا كنا نقف له بالمرصاد ونمتنع عن قبول أي نوع من الإطراء الموجه إليه على حساب والدنا.

وستبقى هنالك مرحلة أخيرة في هذه الحكاية وهي التي ستنطلق في العالم الآخر ونحن متأكدون بأن والدتنا ستنضم هناك إلى حبيبها الأبدي الذي ما برح ينتظرها بفارغ الصبر، بينما سنبقى نحنٍ مع والدنا وسنشهد حكاية حب متجددة بين والدتنا الهرمة وبيدو وسنستقبل كلّ هذا بابتسامة عذبة، بينما ستغمر الكآبة

والدنا التعيس، ونحن على يقين بأن والدتنا لن تحتمل الفراق عنا وستعود إلى أطفالها دون أن تفكر، في الوقت نفسه، في ترك بيدو، وقد تقترح علينا بأن ينضم بيدو إلينا لتأليف عائلة ثلاثية، مثلما يفعل الفرنسيون، لكن والدي، الذي لا يحبذ عادات الأجانب، سيرفض رفضاً قاطعاً حتى فكرة التواجد الروحي لغريمه بيننا، كما من المرجح أن نرفض نحن أيضاً هذا الاقتراح لعدم تعودنا عليه في عالمنا الدنيوي.

أخيراً وفي سبيل حبنا، ستتخلى والدتي عنه وستأتي إلينا وهكذا سنبني هناك أيضاً، في العالم الآخر، عشنا هذا... أما بيدو، بيدو المسكين، فسيبقى وحيداً كعادته.

• • •

أكتب هذه الكلمات خلال عطلة مطولة وتتناهى إلى مسامع والدتي بأنني أدون شيئاً عن أهل صاصون، وما أن أشرع في الكتابة عن حبيبها بيدو حتى تدنو والدتي العجوز مني وتهمس:

ـ بني... إياك أن تكتب شيئاً عن بيدو، إنه لا يشبه أحداً من أولئك الذين عرفتهم في حياتك. لقد كان شخصاً مختلفاً...

أماه، لقد كتبت عن حبيبكِ بيدو.

# إنـه أمر الله

■ ترجمة: مهران مينسيان ■

تأليف: سيمون سيمونيان[1]

*عندما رُزق أرتين الطويل ببنت للمرة السابعة ولم يحاول أن يقتل نفسه ولا أن يقتل زوجته، غمر الشك الحقيقي لحظة جميع مواطنيه حول كونه صاصونياً أصيلاً. فقد أعاد جميع الصواصنة المعمرّين النظر في نسبه، وبعد دراسة مستفيضة، وبدهشة كبيرة وصلوا إلى نتيجة حتمية وهي أنّه صاصوني أصيل، من قرية بيلاف في صاصون، وأنّه حفيد سبط كينكو الشهير الذي كان قدْ قتل دباً بصفعة واحدة قبل قرن من الزمان، وأنّه شرب مياه الوطن الجبلية الخالدة، واستنشق هواءه البارد، وداست رجلاه صخور الوطن وتربـتـه الطيـبـة، وأنّـه في الغربة أيضاً عاش كصاصوني حقيقي، وأنه أحب الخيول الأصيلة، وعمل طحّاناً فقط، وحافظ على شرفه عالياً، أي حافظ على شاربه الطويل جداً، الموجود على جسمه النحيف والطويل جداً.*

---

(1) أديـب أرمنـي معاصـر ولد في مدينة عينتاب في العام 1913 من عائلة مهاجرة من منطقة صاصـون في أرمينية. بعد المجازر الأرمنية في تركيا العام 1915 التجأ وعائلته إلى حلب حيـث تلقـى فيها تعليمه الابتدائي الذي أكمله في ما بعد في أنطلياس (بيروت)، ثم عاد إلى حلـب وعمـل في التدريس مدة، ،أسس مجلة أدبية وعمل في مجال الأدب ونشر العديد من المقـالات والدراسات التاريخية، انتقل بعدها إلى بيروت وعاش فيها إلى أن وافته المنيّة في العام 1986.
فـي بـيروت أيضاً عمل سيمونيان في مجال الأدب، فأسس جريدة أدبية أسبوعية ورأس تحريرها فـترة طويلة (1958 ــ 1975)، وأسس كذلك مطبعة نشرت مئات الكتب القيّمة، إلى جانب رواياتـه ومجموعاته القصصية العديدة التي نقتطف من إحداها هذه القصة الواقعية المأخوذة من حياة الصواصنة (نسبة إلى سكان منطقة صاصون في أرمينية) في حلب وهم المعروفون فـيها بعملهـم الشاق في الأفران والطواحين، حيث كان أغلب فرّاني المدينة منهم في بداية القرن العشرين، حتى أن اسم "الصوصاني" كان يعني "الفرّان" عند أهل حلب.

ولكن بعد كلّ هذه البراهين الثابتة، بقي مواطنوه المعمرون مدهوشين من أنّ أرتيــن الطويــل إن لم يقتل لا نفسه ولا زوجته، فإنه على الأقل لم يقص شاربه الطويل أيضاً، أو لم يهرب إلى الطاحون من الألم والخجل، كي يسجن نفسه هناك طواعــية سنة كاملة فلا يرى الوجوه اللاذعة لمواطنيه الذين كانوا يملكون أولاداً ذكوراً، بل بقي في البيت ودخن سيجارته، وتأمّل طويلاً وجه مولودته، وجه ابنته السابعة...

• • •

عــند كانــت زوجته تتألم في مخاض ابنتها السابعة، كان أرتين الطويل قدْ صعد إلى السطح وانحنى تحت جداره وصار يدخن سيكارته الغليظة بانفعال شديد وهــو يراقب غروب الشمس ويسحب السُبحة بأصابعه المضطربة، وكان "فريق" مــن بــناته قدْ صعد إلى السطح أيضاً، فإحداهن كانت تنسج، والأخرى تغني، أمّا الثالــثة، زاروهــي، فكانت تتعلم أغنية "ولادة فاهاكن"، وكانت قدْ حفظت الأبيات الثلاثة الأولى:

"كانت السماء والأرض في مخاض،
وكان البحر الأحمر في مخاض أيضاً،
وكان القصب الأحمر أيضاً له حصة من مخاض البحر".

كــان أرتين الطويل يتابع النظر إلى الغروب الأحمر بعينين نصف مغلقتين. هــآ، إن الشــمس تغيــب، وبعد قليل سيولد طفل... ("كانت السماء والأرض في مخــاض"). كان قلبه في أزمة شديدة وكان ألم الرزق ببنت سابعة والبقاء أباً لسبع بــنات فقــط يحط على قلبه كالرصاص وكاد أن يحبس أنفاسه، وكان القلق يرمي بــروحه مــن واد إلى واد، كشجرة مقتلعة من جذورها من جرّاء السيول الغزيرة التي شكلتها مياه جبال الوطن العالية. إن عائلته الموغلة في القدم ستنقرض نهائياً بــدون صبي، كنهر صغير يسير في بادية واسعة. إن سراج بيته سينطفئ وبناته الســبعة سيشعلن سراج بيوت غريبة وسيبقين عاجزات عن نقل اسم عائلة والدهن مــن جــيل إلى جيل. إن كيان أرتين الطويل الذي كان قدْ تعرّض للاختبار ست مرات فيما مضى، هاهو يتعرّض للاختبار السابع والأخير. مع البنت السابعة كان ســيتحول إلى ميت ـــ حيّ، إلى كائن بدون خلف في الكون الواسع، سيتحوّل إلى رجل بلا ثمرة، حتى أنّ العيش بالنسبة إليه سيكون بداية موت بلا نهاية...

... كانت آخر شعاعات الشمس قدْ انسحبت كأشواك القنفذ، والظلام أسدل ستاره على المدينة، وكانت أضواء البيوت قدْ أشعلت، وكانت تصل إلى أذني آرتين الطويل من الأسفل، من بيته المغلق بإحكام آهات زوجته التي كانت في مخاض شديد منذ ست ساعات. لقد غمرته سعادة خاصة عندما تذكر قول أمه المتوفاة منذ أمد طويل بأن الذكور يولدون بصعوبة... تابع سحب سبحته التي كان رنين صوتها الناعم يسكّن ألمه الناتج عن عدم الصبر. كانت ابنته زاروهي قدْ حفظت درسها، لأنها كانت على السطح المظلم للبيت تردد الأسطر الأخيرة لأغنية "ولادة فاهاكن":

".... وكان له ذقن من اللهب،

وكانت عيناه شموساً".

نزلت بنات أرتين الطويل إلى الأسفل الواحدة تلو الأخرى ودخلن بيت جارتهن، لأن دخولهن إلى غرفتهن الوحيدة في دارهن كان ممنوعاً منعاً باتاً... بقي أرتين الطويل وحيداً على السطح وحدّق بنظره إلى النجوم الساطعة والقمر الذي كان يطل من الأفق يضيء أحد طرفيه بهدوء. كان أرتين الطويل يسحب سبُحته بلا انقطاع، وكان ينجّم في ذهنه حسب حبّات السبُحة وهو يجرّب حظه، وغالباً ما كان يحصل على نتيجة حزينة، ألا وهي أنه سيكون أباً لبنت... حينئذ كان أرتين المسكين يهتز ويطلب الرحمة من الله رافعاً عينيه إلى الأعلى، كي يسلمه من تعاسة الرزق ببنت للمرة السابعة. توقف عن سحب سبُحته كي لا يحصل على تنبؤ سيئ من جديد. سارت نشوة دافئة في جسمه غمرته بنشاط خاص بالشباب، أُغلقت عيناه بهدوء وظهر أمام خياله "وليده الجديد". آه، كم سيحبّه وينقل جميع بركاته إليه عن طريق قبلات دافئة، وبحبّه اللاهب هذا كان سيعطيه نمو أسبوع كامل خلال يوم واحد. لقد جلب الحلم الجميل كنبيذ طيب خدراً ومن ثمّ نوماً إلى جسم أرتين الطويل المتعب من الانتظار.

عندما استيقظ من نومه كانت الأصوات الآتية من الأسفل قدْ انقطعت، وكانت آهات المخاض قدْ سكتت، إذاً، فالولادة قدْ تمت، وبما أنه لم تخرج أية امرأة إلى السطح لتهنئه، إذاً، كان واضحاً بأن المولودة هي بنت... قلق أرتين الطويل كمن يسمع حكم إعدامه. قام من مكانه متمايلاً وهبط الدرجات بصعوبة، مرّ من أمام باب بيته المغلق الذي كان يُسمع منه ضجيج النسوة وحديثهن ودخل بيت جاره،

حيث كانت بناته الست وأصحاب البيت جالسين بسكوتٍ وحزن مكتوم. ذهب أرتين الطويل وجلس على مقعد فارغ، أشعل سيكارة ودخن بملء رئتيه وصار يسحب حبّات سبّحته. تكلّمت جارته كي تقطع السكوت الذي كان يضغط على الجو ولكي تفهمه الحدث المحزن بلباقة، قالت:

ـ يا عم أرتين، إن البنت الصالحة أفضل من ولد شرير.

لم يجاوبها أرتين الطويل، بل قال في سره الولد الصالح يسوي أكثر من سبع بنات. نظرت بنات أرتين الطويل إلى والدهن الحزين بعيون كأنها مذنبة. كان سكوته يضغط عليهن. ساد السكوت من جديد. وفجأة انفجرت الصرخات القويّة لزوجته والتي كانت أعلى من صرخات المخاض. ركضت الجارة أيضاً إلى غرفة الولادة. كانت زوجة أرتين الطويل تريد الانتحار وكانت تلقي بنفسها من السرير... كانت الصرخات تمتد بلا نهاية وبأعلى درجاتها، وكانت المرأة المغلوبة على أمرها تزيد من قلقها واضطرابها كي تقلّل بالمقابل وتخنق في بحر ألمها آلام زوجها. باتت صرخاتها أكثر عصبية رويداً رويداً إلى أن أُغمي عليها وسقطت سقطة مميتة. اصفرّ وجهها ضارباً إلى الاخضرار، وغمر العرق الغزير جسمها وكأن أجنحة الموت تحركت بحزن. استطاع البصل والليمون والتمسيد السريع، وبصعوبة بالغة، إعادة المرأة البائسة إلى ما كانت عليه. أمرت المرأة الأكبر سناً بفتح نافذتين كي يحصلوا على كمية أكبر من الهواء البارد. لقد غمرت النسوة المجتمعات زوجة أرتين الطويل بالنصائح المختلفة، والتي أجّجت تعاستها بدلاً من أن تعزيها.

عادت الجارة بقلق ونظرت إلى أرتين الطويل الذي كان مازال يدخّن ويسحب سبّحته بصمت، وكأنه كان في سكوته يطلق أصواتاً أعلى من صرخات زوجته قبل أن يغمى عليها، وكانت أعين بناته الست قدْ تبلّلت بشكل واضح من صرخات أمهنّ وإغمائها ومن سكوت والدهن الشرس.

بعد قليل، عندما كانت الساعة تقترب من العاشرة، دخل مارديك، الابن البكر لجارته الذي كان يعود من اجتماع وهو يحمل تحت إبطه مجموعة من الصحف والمجلات الملفوفة بعضها على بعض، وهو يحمل في رأسه تربية أعلى من الوسط بقليل وكمية قليلة من العرق، أما على شفتيه فصفارة وأغنية خاصة بأرمينية. كان مارديك شاباً ظريفاً، وكان أرتين الطويل يحبه بسبب طبيعته السعيدة

ولأنّه كان يعطيه معلومات عن أرمينية. خلال لحظات استطاع مارديك معرفة ما حصل وأراد التخفيف من ألم أرتين الطويل، فألقى الصحف والمجلات أمام البنات كي يتسلين بها وينسين تعاستهن التي لا تشفى، أما هو فالتفت إلى أرتين الطويل وسأله:

ـ عم أرتين؟

ـ نعم، قالها أرتين الطويل.

تشجّع ماردیك، لأنه استطاع خطف كلمة من ذلك السكوت المتحجّر، وكأن تلك الكلمة الوحيدة التي خطفها منه كانت بمثابة إعادة الاستنشاق المفاجئ لرجل ميت، فأرتين الطويل، ذلك الرجل ميت نفسياً، هاقد عاد إلى الحياة. تابع ماردیك حديثه:

ـ كم عمرك، يا عم أرتين؟

ـ خمسون.

ـ هل سجّلت اسمك لتهاجر إلى أرمينية؟

ـ نعم.

ـ مازلت شاباً. غداً تذهب إلى الوطن، وهناك أيضاً ترزق بسبعة أولاد، وهذه المرة ترزق سبعة شبّان. لا تيأس، إن هواء وماء أرمينية مختلفان. إن هواء هذا البلد لا يناسبك.

ضحكت "فرقة" مؤلّفة من ثلاث فتيات من بنات أرتين الطويل من كلام ماردیك هذا، أما الثلاث الباقيات فتابعن تصفح المجلة والنظر إلى صورها.

أما أرتين الطويل فلم يضحك ولم يغضب، بل سكت وانكفأ على نفسه. وحبّات السبّحة ارتفعت مرّات عديدة في يده بسرعة وهبطت بصوت جميل. سأل ماردیك كي يبدّد الصمت ثانية:

ـ أليس كذلك، يا عم أرتين؟

ـ إن مياه الوطن مختلفة، قالها أرتين الطويل، إن مياه الوطن مياه مذكرة، أما مياه هذا البلد ففيها نفس امرأة...

ضحك ماردیك، ولكي يبث الحماس في نفس أرتين الطويل، خطب بإيمان:

ـ في بلدنا، يا عم أرتين، ليس هناك فرق بين الشبان والبنات، فالبنات أيضاً

يعملــن كالشــبان ويعنيــن بأهلهن كالشبان، البنات بطلات كالشبان، انتظر قليلاً لأريك، والتفت إلى بنات أرتين اطويل وقال:

ــ أيتها الفتيات، ناولنني تلك المجلات /دعن والدكن يرَ هذه الصور..

انفتحــت صــفحات مجلة كبيرة آتية من أرمينية، وبنات أرتين الطويل بدأن بالسرد بحزن أرمني:

ــ بابا، هذه الفتاة هي مديرة هذا المصنع.

ــ بابا، هؤلاء الفتيات يحصدن الزرع بالآلات.

ــ بابا، هؤلاء الفتيات يجمعن القطن.

ــ بابا، هذه الفتاة تقود طيارة.

ــ بابا، هذه المرأة وزيرة..

تقلبــت الصــفحات، واســتمرت الفتيات في صنع أشياء كثيرة في أرمينية، ســيطرن علــى الأرض والماء، وكذلك على الآلات والقلوب، لكنهن لم يستطعن تحويل البنت السابعة لأرتين الطويل إلى ولد.

انتهت الصفحات. ارتسمت ابتسامة هادئة على وجه أرتين الطويل، فتشجعت الفتيات وعزين والدهن:

ــ لا تفكــر يــا بابا، إني سأجلب لك السجائر إلى آخر عمرك، قالتها البنت الكبــيرة التي كانت تعمل في معمل السجائر، والتي كان من حقها الحصول على السجائر من المعمل بأسعار مخفضة إلى جانب راتبها الصغير.

ــ بابــا، إنــي سأجلب لك الجوارب دائماً، قالتها الثانية التي كانت تعمل في معمل للجوارب.

ــ بابــا، قالتها الطالبة زاروهي، البنت الثالثة، إنني سأكبر وسأربح أكثر من الــرجال كلهــم ولن أتركك بلا معين، وأما إذا ذهبنا إلى أرمينية، فإنني سأجعلك تعيش مثل رجل له سبعة شبان.

التفــت الفــتاة الرابعة إلى والدها وجلست الخامسة في حضنه، أما السادسة فاقتربت منه زاحفة وقالت:

ــ با...با.

ذاب الجليد المتمركز في قلب أرتين الطويل، ودفئت مياه ذلك الجليد وجلبت معها الحب لروح أرتين الطويل المتألمة.

فرح مارديك من كلّ قلبه.

كان الليل قَدْ تقدّم، وكان عويل الكلاب يمتد في الظلام.

باركت الجارة ابنها ماريك في ذهنها.

كـــان بيـــت أرتين الطويل قَدْ فرغ من النساء، وكان على الجميع أن يناموا. حمـــل أرتين الطويل بناته الست وانسحب إلى بيته. كانت زوجته تنام نوماً عميقاً، نومـــاً خاصـــاً باللواتـــي يضعن أطفالاً، بعد الآلام الطويلة للمخاض. كانت حماته العجوز تدور في البيت لترتّب أشياء كثيرة. بدأت الفتيات الكبار بمساعدة جدتهنّ: مُدّت الأسرّة على الأرض، والصغيرات نمن بسرعة، ومن ثم الكبيرات لكي ينسين في نومهنّ الألم الكبير الآتي من كونهنّ قَدْ ولدن بناتاً.

أشـــعل أرتيـــن الطويل سيكارة جديدة وهو واقف وظهره للجدار ونظر إلى الوجه المتألّم لزوجته من خلال الدخان المتصاعد، وقال لنفسه:

ــ مسكينة.

بعد قليل نامت حماته أيضاً.

لـــم يبق يقظاً إلا أرتين الطويل الذي كان النوم بعيداً عن عينيه بعض الشيء تلـــك الليلة، في غرفة واحدة كنّ ينمن تسعة أشخاص وكلّهن من نسل حواء: حماة وابنتها وسبع حفيدات. في ذلك الحشد "النسائي" أحس أرتين الطويل بألم لا يوصف وليس بالإمكان التكلّم عنه، ربّما كان ذلك الألم الذي تفوح منه رائحة الموت والذي سيجلب إليه الإحساس المظلم بزوال نسله. غاص أرتين الطويل في تأمّلات، وفجأة اســـتيقظت المولودة الجديدة، ابنته السابعة، وببكائها الهادئ والعذب أوقفت تأمُلات والدها، تأمّلات أب متحسّر على ولادة ابنته. قال أرتين الطويل بعد سماعه البكاء الذي كان له دوي حبات سبُحته:

ــ بنت الكلب...

تابعت المولودة بكاءها اللامتناهي.

اعـــتادت أذنـــا أرتين الطويل بسرعة على صوت ذلك البكاء، مثلما كانتا قَدْ

اعتادتا سابقاً على الضجيج الدائم للطاحون.

غـرق أرتيـن الطويـل ثانـية في التأمّلات، التي نمت فيه بقوة وأجبرت الأصوات الناعمة لبكاء طفلته على السكوت.

تذكّر أرتين الطويل ولادة بناته. عندما ولدت ابنته الأولى قال: مازلت شاباً. عـند ولادة الثانـية قـال: إن الله يعطينا، أي أراد أن يقول بأنه في المرة الثالثة سيرزق ابناً.

وحقـاً، رزق أرتين الطويل ابناً في المرة الثالثة، فغمره بحب عميق وبحنان لا نهائـي. فغطوا سريره بغطاء من الحرير وعلّقوا على صدره صليباً ذهبياً، أما زوجـته فقـد علّقت خرزة زرقاء على كتفه كي لا يصاب بالعين، وعندما عمّدوه فـاض العرق وتخلّصت رقصات وأغنيات صاصون من صدئها، لكن الموت قرر أن يأخذ ذلك الوليد بعد ستة أشهر وبقي حب أرتين الطويل وحنانه عاجزين أمامه.

لـم ييأس أرتين الطويل، لكنه في المرة التالية رزق بنتاً من جديد ومن قلقه هـرب إلـى الطاحون ولم يعد إلى البيت إلاّ بعد ستة أشهر، وعند الخامسة هرب سـنة كاملـة، وأخـيراً، عند ولادة السادسة شرب العرق وشهر خنجره كي يقتل زوجته.

تذكر أرتين الطويل بعد ذلك كم صلّى حينئذٍ واستغاث بالقديس كارابيد، قديس مديـنة مـوش، كي يرزق بابن بعد ست بنات...، وهاهو يرزق ببنت من جديد. كانـت روحه الجبلية تكره البنات اللواتي هنّ أخصب مكان لأعمال الشيطان. كان يكـره "بنات حلب"، يكره زينتهنّ المصطنعة وسلوكهنّ الجريء والحرّ، وبالرغم مـن عدائـه الشديد لهنّ كان يُغمر بالفتيات. كان اسم عائلته سيذوب، وكان يفكر أيضـاً فـي كيفـية تزويجهـنّ... فمن الصعب أن يستطيع تحضير الجهاز لهن، هـو الوحيد، وأما الذين يأكلون فهم تسعة أشخاص، ولهذا السبب كان قدْ اضطر، ورغمـاً عـنه، إلـى إرسال اثنتين منهن إلى العمل، إحداهما في معمل السجائر والثانية في معمل الجوارب.

كـان قـدْ قـرر بأنه لو رزق ببنت سابعة سيقتل نفسه أو زوجته، كما كان معارفـه من الصواصنة يعتقدون ذلك، لكن كلام مارديك وصور المجلة الآتية من أرمينية شجّعاه ومنحاه الأمان. في أرمينية بناته سيعملن بطريقة شريفة ولن يذبلن

فـــي البيت بسبب فقرهنّ، الشيء الذي كان سيحدث هنا، في المهجر. فالهجرة إلى أرمينية ستنقذه من المشاكل المادية.

لكن يبقى ألمه الأكبر، الألم الذي لن يزول: الألم الآتي من عدم رزقه بولده. آه، بابـــن وحيد كانت البادية الصفراء لحياته ستزهر واحة خضراء، واسم عائلته القديمة سيلمع كسراج منير جيلاً بعد جيل، وموته بعد ذلك لن يكون مقبرة عائلته. آه، كم كان سيحبّ ذلك الفتى. كلّ بركاته وكل ما كان سيفعله أجداده ولم يستطيعوا فعلـــه كـــان سينقله إلى ذلك الفتى عن طريق قبلاته الحارة، وعندما يزوره الموت المحتوم، كان سيغلق عينيه بهدوء وهو يراهما مفتوحتين في عيني ابنه الشموس...

* * *

نـــزل الـــنعاس على عيني أرتين الطويل، وأظلمت تأمّلاته التي ربما أكملت سيرها في حلمه.

لم يستيقظ أرتين الطويل إلاّ عند بزوغ الشمس. فتح عينيه اللتين التقتا بعيني زوجته التي كانت قدْ استيقظت هي أيضاً. نظر كلّ منهما إلى الآخر. كانت الوليدة تبكـــي بهدوء. طلبت الزوجة ماء. صعد أرتين الطويل من مكانه وسقاها كأساً من الماء، فشربتها، وبعد ذلك طلبت من أرتين وكأنها تطلب الماء ثانية:

ـــ أرتين، أين هو خنجرك، أغرزه في قلبي.

كان أرتين الطويل واقفاً فوقِ سرير زوجته بقامته الطويلة، ومن الأعلى، من الأعلى جداً نظر إلى زوجته المعذّبة، واضطرب قلبه وهمس بصوت خفيف:

ـــ يـــا بايـــزار، إنـــه أمر الله، لقد مرّت أيامي هباءً، لنذهب إلى بلدنا، ربما نرزق بابن هناك...

□□

# البنفسجة الجبلية

■ ترجمة: توفيق الأسدي ■

بقلم: أكسل باكنتوس[1]

*تكتسي قمة جبل كاغافابيردا بالغيوم على مدار العام. وتخفي بقع الثلج البيضاء الأسوار المسننة للقلعة، بينما تبرز الأبراج السوداء العالية هنا وهناك. من بعيد يبدو أن هناك حرساً يقومون بدوريات من فوق الأسوار وأن بوابات القلعة الحديدية الضخمة مقفلة وأنه في أي لحظة قد يتحدى أحد الحراس غريباً يتسلق الجبل.*

ولكن حين تبعثر الريح السحب وتتلاشى المزق البيضاء، فإن القمة المائلة للبرج تبدو أول ما تبدو ثم الأسوار التي نمت عليها النباتات، والتي غرق نصفها في الأرض. لا بوابات ولا حرس.

يعم الصمت خرائب كاغافابيردا. الصوت الوحيد المسموع هو صوت نهر "الباسوت" الهائج في الوادي إلى الأسفل وهو يندفع في طريقه، يصقل صخور

---

(1) أكسل باكونتس: (1899 ـ 1937) كاتب أرمني من الطراز الأول. ولد في غوريس لأسرة فلاحية. كتب قصصه الأولى في العشرينات من القرن العشرين. وقد نشر مقالات واسكتشات عن الحياة الريفية جمعت في كتب: "كاتب رسائل قروي"، "قرانا"، "رسائل من القرية" وأربع مجموعات قصصية: "الممر الضيق الداكن"، "زارع الحقول السوداء"، "مطر"، و"شجرة جوز الأخوة". مع نهاية العشرينات من القرن العشرين بدأ باكونتس بكتابة عملين رئيسيين وملحمة اسمها "كارمراكار" ورواية تاريخية "خاشاتور أبو فيان" لم يتح له أن يكملهما. ولكنه أكمل رواية هجائية عنوانها "كيوريس" (1935) والتي تبقى واحدة من أفضل الهجائيات باللغة الأرمنية. هذا وتعتبر قصة "البنفسجة الجبلية" نموذجية من حيث أسلوب الكاتب المتروي في القص، وغنائيته واهتماماته بالعلاقات الإنسانية وحسه الحاد من حيث الملاحظة.

المــرو فــي حــوض النهر الصخري العميق الضيق. يبدو وكأن هناك آلافاً من الكلاب الذئبية تعوي تحت المياه المزبدة، وهي تنهش بأنيابها سلاسلها الحديدية.

كــان صقر ونسر قدْ عششا في الأسوار. وعند سماع أول وقع لأقدام راحا يطــيران وهما يزعقان زعقات حادة ويبدأان بالتحويم فوق الخرائب. ينضم إليهما عقاب جبلي. منقاره سيف معقوف ومخالبه رماح مدببة أما ريشه فدرع من زرد.

الزهــرة الوحيدة التي تنمو على هذا الارتفاع الشاهق على جبل كاغافابيردا هي البنفسجة. لونها أحمر كالدم بلون أقدام طيور الترمجان. تبرز الزهرة من بين الخرائــب. وحين تحط الغيوم فوق أسوار القلعة الموحشة، فإن الساق تنحني إلى الأسفل لتدع الزهرة تلقي برأسها على صخرة جففتها الشمس. هاهي خنفساء لامعة تستحم في غبار الطلع، وترى الزهرة أرجوحة والعالم برعماً قرمزياً.

هناك بعيداً في الأسفل، في الوادي على الضفة المقابلة لنهر الباسوت، أكواخ عديــدة. فــي الصباح تصعد أعمدة صباحية من الدخان من الفتحات الدائرية في الأسقف. تتحول إلى شرائط زرقاء وتختفي بين الغيوم. في حر الظهيرة قدْ يصيح ديــك فــي القرية. يرسم فلاح عجوز، وهو يتثاءب في ظل منزله وقد غرق في ذكرياته، أشكالاً على الرمل بقضيب.

يجــري الوقــت ببطء في كلّ مكان من القرية وفي القلعة في الأعلى. تشبه الســنون الأوراق المتغيرة لشجرة. تصبح الذكريات مختلطة. والآن كما هو الحال دائماً، يندفع النهر هنا، وفي الأعلى هناك الصخور نفسها والعقاب الجبلي نفسه.

كم عدد الأجيال التي عاشت حياتها على ضفة الباسوت؟ كم عدد الناس الذين نشــروا أبسطتهم اللبادية الرثة هنا وغطوا أسقفهم بالقصب؟ في الربيع حين يزهر البنفســج على منحدرات كاغافابيردا فكم هو عدد من اصطحبوا عنزاتهم وأغنامهم نحــو مراعي الجبل، ثم ملأوا أعدلة سروجهم بالجبن، وأكلوها في الشتاء مع خبز الشوفان؟

• • •

فــي عصــر أحد الأيام الحارة كان ثلاثة رجال يمتطون صهوات الجياد قدْ صــعدوا المنحدر الصخري لجبل كاغافابيردا. ومن ملابسهم وطريقة رجلين منهم

في الجلوس على سرجيهما كنت تستطيع أن تميز أنهما من سكان المدن الذين لم يسبق لهم أن شاهدوا القلعة أو الصخور الشاهقة من قبل.

كان الرجل الثالث هو دليلهم. وبينما كان الرجلان الأولان يتشبثان بعرفي جواديهما وكانا عملياً قدْ أحنيا ظهريهما إلى أقصى حد للحفاظ على نفسيهما من السقوط، كان الراكب الثالث يهمهم أغنية وهو يتأرجح في سرجه، أغنية حزينة ويائسة شأن الوادي المهجور، وشأن الجرف الكئيب والقرية البعيدة.

كانت الغيوم التي تخفي القلعة وراءها تنفتح أحياناً كما الستارة، فتكشف الأسوار حيناً وتغطي القمم حيناً آخر. الراكب الأول لم يستطع أن يبعد عينيه عن الأسوار. في ذهنه كان يراجع الأساطير التي رويت عن القلعة، حكايا محفوظة في التاريخ المدون على الرقوق الذي يعود إلى عهود كان الأمراء يحكمون فيها هنا، حين كانت الجياد المدرعة تطأ الممر خارج البوابة الحديدية والمحاربون الملوحون برماحهم يعودون من رحلات الصيد. كانت العينان المحدقتان من خلف نظارتين عيني عالم. كان يستطيع فعلاً مشاهدة المحاربين والرواة الذي دبجوا القصائد في مديحهم وبروا قصباتهم وهم يدونون الكلمات فوق الرقوق. كان قادراً على سماع وقع حوافر تلك الجياد القديمة. كما كان صعباً عليه أن يصعد وهو راكب هذا الجرف الذي كان ساكنو القلعة السابقون يتسلقونه بكل سهولة كأنهم ماعز جبلي.

وأخيراً وصلوا القرية. تابع الراكب الأول طريقه. كان يبحث عن الدرب القديم ولم يلاحظ لا الأطفال الذين يلعبون في رماد نار المخيم ولا العنزات التي لحقت به بعيون مندهشة.

أما الراكب الثاني، وهو رجل يرتدي قبعة من اللباد، فلم يكن يبحث عن الماضي على قمة كاغافابيردا. كانت ممتلكاته عبارة عن قلم رصاص مبري ومجموعة سميكة من أوراق الرسم. ما أن يطل عليه وجه أو زاوية فاتنة بصخرة مغطاة بالطحلب حتى يبدأ بالرسم.

كان أحد الراكبين عالم آثار والآخر فناناً. وحين وصلوا إلى أول مسكن اندفع عدد من الكلاب باتجاههم. وما أن سمع بعض الناس النباح حتى خرجوا وراحوا يحدقون إليهم من عتبات البيوت.

أمـــا الأطفـــال الذين كانوا يلعبون في الرماد فراحوا يراقبون الكلاب النابحة وهـــي تطـــارد الجياد. عبثاً حاول الدليل أن ينهرها بسوطه. ظلت الكلاب ترافقهم حتى أسوار القلعة وعندها فحسب استدارت عائدة وراحت تهبط مجدداً وبسرعة.

بـدت حجارة القلعة وكأنها عادت إلى الحياة: كانت تكلم عالم الآثار. اقترب من كل حجر، وانحنى باحثاً عن شيء ما، ثم قاس الأحجار، وراح يدون في دفتر ملاحظاته، وهو يحفر في التراب برأس حذائه ليكشف حجراً متشكلاً آخر. وأخيراً تسـلق السـور وحشـر رأسه عبر إحدى فتحات الرمي في البرج. عند مشاهدته الكتابة المحفورة في السور صرخ عالياً.

قفـز الدليل الذي كان قدْ أرخى عنان جواده وجلس قرب السور يدخن، قفز واقفاً عندما سمع الصرخة. ظن أن الرجل ذا النظارتين قدْ لدغته حية.

كـان الفـنان يرسم خرائب السور والبرج المدبب. وحين أنهى رسم مدخل القلعة توقف قلمه الرصاص في الجو، فقد كان النسر، الذي أزعجه وقع الأقدام، قدْ طـار مـن عشـه. وراح الآن يحوم فوق البرج. لحقت به الطيور الأخرى وهي ترفرف أجنحتها بقوة.

تجمعت الجياد الخائفة معاً. وحين صرخ عالم الآثار بأنه اكتشف قبر الأمير بـاكور، فـإن الفـنان لم يكن يعرف ما الذي يتحدث عنه عالم الآثار. كان يتابع طـيران النسور، والرفرفة القوية لأجنحتها، مفتوناً بمناقيرها الحمراء كالدم. كان هناك شيء جليل في حومانها.

لم يشعر حين سقطت قبعته عن رأسه ووقعت على قمة الصخرة.

راح فـلاح دس مـنجلاً في حزامه وعقد منديلاً قذراً على رأسه وهو يتكئ على عصا يتسلق المنحدر الصخري ويقترب من الدليل.

كـان قـدْ شاهد الرجل ذا النظارتين يحرك صخرة. وحين سأل الدليل عمن يكـون هـذان الغريبان وعما يبحثان بين الخرائب، لم يحر هذا جواباً. ثم قال إنه مكـتوب في أحد الكتب أن جرة كبيرة من النقود الذهبية مدفونة في مكان ما فوق قمة كاغافابيردا.

غـرق الفـلاح في نوبة من التأمل. ثم هز كتفيه وهبط نحو الوادي ليحصد الدخـن فـي حقلـه. كان يحدث نفسه بصوت مرتفع وهو يمضي بعيداً. لكم كان

محظوظـاً لـو أنه وجد الكنز المدفون. لكم جلس فوق كلّ حجر حركه الرجل ذو النظارتين. لو أنه كان يعلم فحسب بالكنز من قبل لكانت جيوبه سترن بالذهب. آه، كم بقرة كان سيشتري.... وهكذا وصل إلى حقله وهو منشغل بأفكاره. خلع سترته الطويلة ورمى جانباً الأفكار العقيمة معها، وأمسك بحفنة من الدخن وراح يحصد.

كانـت بنفسـجة قَدْ أزهرت بين الآثار، ولكن عالم الآثار لم يلاحظ الزهرة القرمزية اللون ولا العشب. كانت كلها قَدْ سحقت تحت جزمته.

كـان العالم بالنسبة إليه متحفاً عظيماً واحداً ليس فيه شيء حيّ. أبعد اللبلاب الـذي كـان يغطي الحجارة برأس عصاه واقتلع البنفسج الذي أزهر في الشقوق ومـرر يـده بحب فوق الأحجار، وكشط الغبار الذي حتّ الكتابات المنقوشة. أما الفنان وبعد أن رسم كلّ ما كان عالم الآثار مهتماً به، فقد بدأ يرسم الخرائب وعش النسر بين الصخور المسننة والبنفسجة المتفتحة في أسفل السور.

• • •

غـادروا القلعة في العصر، وقبل الشروع بالهبوط سار عالم الآثار من حول الخرائب مجدداً، وهو يكتب ملاحظات في دفتره، ثم مشى بسرعة ليلحق بالآخرين.

فـي هذه المرة سار الدليل في المقدمة. ولو كان عالم الآثار يفكر في الأمير بـاكور والرقوق، ولو كان الفنان يستذكر البنفسجة وهو يصغي إلى مياه الباسوت المزبدة، فإن الدليل كان يحلم فقط بالكعكة الطازجة وجبن الماعز واللبن.

أنـزل السـروج عن الجياد عند أول مسكن، شد قوائمها ثم دخل عبر الباب الضيق. أقحمت الجياد الجائعة أفواهها في العشب النضر.

فـي الداخـل، كان صبي صغير جالساً قرب الموقد وهو يشوي حبات من الفطـر فـي الرماد الحار. وقد بوغت بمشاهدة الرجل الغريب. لم يكن يعرف إن كان عليه أن يهرب ويترك حبات الفطر تحترق، أو أن يخرجها من الرماد. وحين سـمع وقع قدمي أمه الحافيتين يقترب أصبح أكثر جرأة. أخرج حبة فطر مشوية وراح يبردها فوق أحد أحجار الموقد.

دخلـت أمـه، وجذبـت مـنديلها إلى ما فوق عينيها ثم مضت نحو الركن. أخرجت وسادتين من كومة من الفرشات وقدمتها إلى الزوار.

أخرج الدليل علبة طعام من القصدير من حقيبة ظهر عالم الآثار.

قـال: "نحـن جائعون يا أختاه. هل لك أن تعطينا بعض اللبن، إن كان لديك لبن، وأن تغلي لنا بعض الشاي؟ لدينا سكر."

مضت المرأة نحو الموقد، أبعدت حبات الفطر ثم انحنت فوق الرماد وبدأت تـنفخ عليه. انزلق المنديل من على رأسها فكشف للفنان جبينها الأبيض، وشعرها الأسـود الداكـن وعينيها الداكنتين. لم يستطع أن يرف عينيه عن الموقد المدخن والمـرأة تنحنـي فـوق الرماد. أين شاهد هذا الوجه من قبل؟ إن هذا هو الجبين المرمـري نفسه والعينان البنفسجيتان الداكنتان نفسهما. حين نهضت المرأة لتضع المنصـب ثلاثي القوائم فوق النار فإن عينيها والغبار الأبيض للرماد الذي يغطي حاجبيها وشعرها لم يكونا يبعدان عنه سوى مسافة بوصات قليلة.

كانـت سنون كثيرة قدْ مرت. هل يمكن لوجهين أن يكونا متشابهين إلى هذا الحد؟ حتى شكل الفم كان هو نفسه عند المرأتين.

كـان وجـه هذه المرأة مسفوعاً بأشعة الشمس، ولكن عينيها كانتا عيني تلك المرأة، كان لهما كلتيهما الخصر النحيل ذاته والجسم الضئيل. كانت المرأة تتحرك بسرعة وصمت وهي تعد لهم الشاي. وكلما انحنت أو نهضت أو سارت فوق بسط القـش كانـت الأساور الفضية على كميها ترن كأجراس صغيرة بينما راح ثوبها الطويل يصدر حفيفاً رقيقاً.

المـرأة الأخـرى كانت ترتدي أيضاً أثواباً لها حفيف، ولكنها كانت ترتدي معطفاً رمادياً وقبعة من المخمل الأسود لها دبوس برتقالي اللون أيضاً.

تلك المرأة كانت بعيدة جداً الآن. ربما كان الباسوت الذي يتدفق نحو نهر آخر يصل أخيراً البحر حيث جلس ذات مرة على الشاطئ الرملي قرب المرأة الأخرى.

فـتح الدليل علبة الصفيح الثانية. ظل عالم الآثار ينظر إلى الغطاء والأوعية التـي عليه. كان الصبي يأكل من حبات الفطر ثم ينظر متعجبا إلى علبة الصفيح اللامعة، منتظراً أن يفرغها الغرباء. لاحظ الدليل نظرته فأعطاه إياها. راح الصبي يهـزها. التهم كلب كان يقبع في الخارج اللقمة المتبقية من اللحم ولعق بقاياها. ثم اندفع الصبي خارجاً ليرى رفاقه العلبة البيضاء اللامعة، وهو مشهد لم يكن أحد قدْ رآه في تلك الأنحاء.

جلست المرأة إلى القرب من الموقد، وراحت ترفع غطاء الإبريق مرات عديدة لتتأكد من أن الماء قدْ غلى.راحت تعبث بالنار وتقرب عيدان الحطب من بعضها البعض، وهي تحمي عينيها من الدخان الذي راح يتصاعد كسحابة ويهرب من الشقوق في جدران القصب.

بدت المرأة الجالسة عند الموقد، والتي كانت ركبتاها واضحتي الخطوط تحت ثوبها الطويل، للفنان، كساحرة تستطيع أن ترى المستقبل في الدخان المتموج.

لم تكن المرأة الأخرى قدْ سارت حافية القدمين قط كما لم يسبق لها أن جلست قرب موقد يتصاعد منه الدخان.

كان البحر يموج كالحمم البرونزية في الصباحات، ويلعق الصخور على امتداد الشاطئ. والمرأة في المخمل الأسود كانت قدْ جلست على الشاطئ، وراحت ترسم خطوطاً في الرمل برأس شمسيتها ثم تمحوها. كان يفتت قضيباً يابساً بين يديه، والأمواج، التي كانت ترمي بالزبد عند قدميها، راحت تأخذ فتات القضيب نحو البحر. وبينما كانا جالسين هناك عند الشاطئ، وعدت المرأة بأن تتزوجه، وأصبح العالم فجأة بحراً لا حدود له، وقلبه جزءاً منه.

ثم جاءت أيام أخرى. كانت قدْ فرقتهما على نحو مفاجئ جداً. كلّ ما تبقى له كان ذكرى عينيها البنفسجيتين ومعطفها الرمادي ورأس شمسيتها الذي كتبت به ومحت وعدها في الرمال.

جلجل غطاء الإبريق. أخذت المرأة بعض الصحون من سلة كما وضعت بعض الكؤوس المطلية على الغطاء. وحين انحنت فوقه انزلقت ضفيرتها الطويلة من فوق كتفها. المرأة عند شاطئ البحر كانت ذات شعر قصير وعنق أبيض وبشرة نصف شفافة.

عاد الصبي راكضاً وهو يحمل العلبة الفارغة.

كانت مجموعة من الأطفال تقف عند المدخل، وهم يحدقون بصراحة إلى الغرباء. لم تكن هناك نهاية لمتعة الطفل حين أعطي علبة ثانية. في هذه المرة لم يركض بها خارجاً، بل جلس فوق البساط. صبت له أمه بعض الشاي، وأسقط له الفنان كتلة كبيرة من السكر في كأسه. كان الصبي مأخوذاً بالفقاعات التي راحت

تتصاعد من كتلة السكر. دس إصبعه في الكأس ليستخرجها. ورغم أن الشاي الساخن حرق جلده فإنه لم يصدر أي صوت، فقد كان السكر الذائب لذيذاً. ابتسم عالم الآثار، فقد تذكر دون شك مشهداً من ماضي البشرية. ملأت المرأة الإبريق مجدداً وابتسمت بسعادة وهي تنظر إلى ابنها الشقي.

لم تفت ابتسامتها الفنان. كانت مألوفة جداً. حين يشابه الناس بعضهم بعضاً، فإن ابتساماتهم تتشابه أيضاً. أولاً ارتجفت شفة المرأة العليا ثم انفرجت شفتاها وأضاءت الابتسامة عينيها.

أخرج الفنان دفتر الرسم من جيبه، وتصفح رسوم الصخور والنقوش ثم رسم بمهارة المرأة الجالسة قرب النار.

كانت خطوط جسدها مألوفة. وفي ذهنه كان قد رسمها خلال سنوات كثيرة.

لم يشاهد سوى الصبي الرسمة في دفتره. بدا له أن الصفحات البيضاء التي تخص الرجل المرتدي القبعة اللباد تعكس كل شيء كمرآة، شأن مياه النبع الصافية.

بعد فترة قصيرة، جلب الدليل الجياد. وضع اللجام وشد الحزام لكل جواد ثم ثبت حقائب السروج وعاد ليودع المرأة. نهضت وسرعان ما جذبت منديلها فوق جبينها. لمست أناملها يده الممدودة بسرعة. أما الآخران فقد مدا أيديهما إليها ولكنها ودعتهما بأن ضغطت بيدها على قلبها وحنت رأسها.

أعطى الفنان الصبي بعض النقود الفضية وربت على رأسه.

شقت ثلاثة جياد طريقها هابطة المنحدر الصخري لجبل كاغافابيردا نحو الوادي في الأسفل. كان كل من الرجال الثلاثة الهابطين من الجبل قد غرق في أفكاره.

كانت زهور البنفسج متفتحة على امتداد الدرب. انحنى الفنان وهو جالس على سرجه وقطف زهرة وضغطها على دفتره، على الصفحة التي رسم بها امرأة رشيقة قرب موقد.

كانت الحجارة تصلصل تحت سنابك الجياد وتهبط مجلجلة نحو الوادي.

كان هناك بحر مزبد في ذهن الفنان. كان الموج يضرب الشاطئ فيرمي على الشاطئ أولاً بامرأة في قبعة من المخمل الأسود ثم بامرأة في ثوب طويل

وضــفيرتين ثقيلتين تتأرجحان على ظهرها، ثم خرائب قلعة وزهور قرمزية تتفتح عند أسفل أسوارها.

• • •

كان الشفق قَدْ هبط.

هاهو رجلٍ يصعد الطريق نفسها نحو الجبل. كان قَدْ دس منجلاً في حزامه. كان الرجل متعباً فقد كان يحصد طوال النهار العيدان القصيرة للدخن وكان ظهره يؤلمـــه. لذا كانت خطواته قصيرة وقد راح يتكئ بقوة على عصاه ويتوقف كثيراً ليلــتقط أنفاسه. كانت ركبتاه ترتجفان كلما توقف. كان ذلك هو الرجل نفسه الذي حكــى له الدليل عن الكنز المدفون في القلعة. كان يتطلع من حقله ليرى الفرسان يهــبطون. لقد بدا له أن الذهب كان في حقائب سروجهم، الذهب الذي بقي مدفوناً قروناً تحت الصخرة نفسها التي جلس عليها بينما كانت عنزاته وخرافه ترعى بين الخرائــب. وربما لأن أفكاره لم تكن تمنحه الرضا أو لأنه كان متعباً جداً فقد كان عصبياً جداً كدب جائع خرج للصيد المسائي.

حين وصل إلى أول مسكن رفس الكلب جانباً بعد أن هرع هذا لاستقباله، ثم أخـــرج المنجل من حزامه ورماه في الزاوية. جلس على البساط قرب الموقد وهو يتكئ على العصا.

كانت النار لا تزال تدخن.. كان الإبريق يغلي. كانت قطعتان من السكر فوق الوسادة.

وقــبل أن يتاح للحصاد أن يخلع نعليه المصنوعين من لحاء الشجر ويهزهما ليتســاقط منهما الفتات، دخلت زوجته. كانت الأساور تجلجل في أكمامها، وكانت طــيات ثوبها الطويل تصدر حفيفاً. كان ابنها يتشبث بتنورتها وهو يمسك بالعلبتين الفارغتين.

ركــض نحــو أبيه ليريه كنزه. وفجأة أدرك الرجل أن الفرسان جلسوا على بساطه. ثم أراه الصبي النقود الفضية التي أعطاه إياها الرجل الغريب الكريم.

أزاح الــرجل الطفــل بعيداً بيده ورمى بالعلبتين الفارغتين. تدحرجتا وكذلك فعــل الطفل. ولكن الطفل قفز واقفاً والتقطهما مجدداً. ثم دفن وجهه في تنورة أمه

وراح يبكي. شعر الأب بالأسف عليه. ناداه وطلب أن يرى النقود. اقترب الصبي منه وهو يبتسم من خلال دموعه، وقد قبض على النقود براحته. ثم حكى لأبيه أن الغريب كان معه شيء لامع له صفحات بيضاء في جيبه. كان الرجل الذي أعطاه النقود قدْ حمل بعيداً صورة أمه فوق إحدى الصفحات.

مزقــت الغــيرة، مثل التماعة البرق، قلب الفلاح الغاضب. جحظت عيناه. شحب وجهه. نظرت المرأة إلى ابنها وتضرج وجهها. لاحظ زوجها التضرج في وجنتــيها. وفي اللحظة التالية كان قدْ نهض. أمسك بيديه المشعرتين العصا الثقيلة وضرب بها المرأة على ظهرها.

جلجلــت أزرارهـــا وارتمـــت جديلتاها جانباً. انقلب الإبريق. طار الطرف المكسور للعصا نحو إحدى الزوايا. لم تصرخ المرأة، بل تلوت من الألم فحسب. أمســكت ظهرها بيدها وخرجت من المنزل، لتبكي هناك في الخارج. لحق الطفل بها وهو لا يزال يقبض على العلبتين واختبأ في تنورتها.

كـــان الـــزوج يغمغم طوال تلك الفترة، ثم تناول بعض كعك الدخن، ووضع قبعته المصنوعة من فرو الغنم تحت رأسه واستلقى فوق البساط.

ومـــن جديد حل الصمت على جبل كاغافابيردا. انطفأت النيران في المواقد بيـــنما كان الليل يهبط بظلمته. أما كلاب القرية، المرتجفة من خوفها من الوحوش الضـــارية، فقد التفت على أنفسها خارج البيوت. كان الغنم ينام في العشب. نامت المرأة فوق بساط، وغطت الطفل بقطعة من اللباد.

زحفت غيمة أشبه ببزاقة هائلة الحجم فوق الجبل نحو الأكواخ.

غطـــت العتمة الطحالب والصخور بينما استقرت رطوبة الليل على فروات الخراف النائمة.

هـــبط الـــندى علـــى تويجات البنفسجة. كانت خنفساء صغيرة قدْ ثملت من عطرها فنامت على كأس الزهرة. وبدا للخنفساء أن العالم كان بنفسجة عطرة.

□□

# الحمل الأبيض

■ بقلم: سيرو خانزاديان ■

■ ترجمة: توفيق الأسدي ■

عن الإنكليزية

*سيرو خانزاديان: (ولد عام 1915). كان ابناً لفلاح وعمل راعياً وهو صبي. نال شهادة أهلية التعليم في عام 1934 وعمل معلماً في القرى الجبلية حتى اندلاع الحرب في عام 1941 حين ترك التعليم ليخدم في الجبهة. وقد جرح خلال العمليات عدة مرات وتلقى أوسمة على بسالته.*

نزل الجنائني العجوز "نافاسارد" إلى النبع الذي يتفجر من تحت شجرة الجوز وذلك ليغتسل ويرتاح.

وما أن انحنى ليدع الماء البارد يرشش وجهه الذي سفعته الشمس حتى سمع قائد المجموعة يناديه: "هاي، يا نافاسارد، أسرع. لقد عاد ابنك أرشاك".

"مــاذا؟" قال العجوز مستثاراً ثم نهض بصعوبة. اندفع إلى حيث كان الرجل واقفاً برشاقة مدهشة بالنظر إلى سنه. "ما الذي قلته؟ متى وصل؟ أين هو؟"

"إنـــه في القرية. رأيته بنفسي. وهو يقود سيارة زرقاء ويعبر بها القرية. يا لحظك يا نافاسارد! لقد باركك الله بابن جيد!"

بـــدأت الشمس تلمع أكثر بعشر مرات من نورها السابق. أحس نافاسارد بأنه كان يطير طيراناً.

وراح قلبه يخفق بقوة من الاستثارة.

بدا نافاسارد وكأنه يتفكر في شيء ما وهو ينظر في اتجاه القرية. ولكنه استدار فجأة وركض نحو معصرة الخمر بدلاً عن ذلك.

لم يكن قد رأى أرشاك منذ عشر سنوات. في كل عام كان ينظر إلى الطريق بأمل وينتظر. لقد انتظر بصبر. والآن أخيراً سيراه. لقد عاد أرشاك في وقت ملائم: كانت الفاكهة في البساتين قد أينعت وكان هو لا يزال معافى وقوياً.

لم يكن لنافاسارد أقرباء أحياء في القرية. ولم يعش حياة سعيدة. لم يكن قد رزق بأولاد من صلبه وكانت زوجته قد توفيت قبل سنين كثيرة. أما أخوه وزوجته اللذان ماتا جوعاً خلال الحرب فقد تركا له ابنهما الوحيد أرشاك.

التقط نافاسارد الرفش الذي كان على الأرض قرب حافة الخندق وبدأ بالحفر. كانت الأرض رطبة وتحمل رائحة النبيذ. أخرج جرة صغيرة كان قد دفنها قبل عشر سنوات وسرّ من ملمس الوعاء الفخاري البارد. راح يتشمم العبير الرقيق للنبيذ وابتسم وقال لنفسه: "لقد تحول إلى حليب سباع". ثم تذكر أن أكبر بطيخة قد نضجت تحت شجرة التوت الكبيرة قرب حافة النهر. قطع ساق البطيخة ومسح الغبار الفضي عنها بحاشية سترته الطويلة وراح يتأمل أقلامها اللامعة.

همهم: "أرشاكي يحب البطيخ". ركع ووضع ذراعيه حول البطيخة وضغط عليها بشدة وأذنه على قشرتها. أومأ برأسه موافقاً على ملاءمة الصوت. ثم مضى نحو شجرة التين وتسلقها بصعوبة وبدأ يقطف من ثمارها الحلوة كالعسل والتي كانت الطيور قد نقرتها من هنا وهناك. اختار أفضل الثمار وصفّها برقة في سلة محبوكة لامعة.

ثم انطلق نافاسارد على امتداد ضفة النهر حيث كان حمل أبيض في الشهر السادس من عمره يرعى. كان يوفر الحمل لمناسبة خاصة.

"لقد عاد أرشاك إلى بيته. وقد عشت أخيراً لأرى هذا اليوم." قال نافاسارد لنفسه وهو يفك وثاق الحمل. راح هذا يثغو بصوت مرتفع.

قال نافاسارد: "لنذهب يا صديق. هيا بنا، لقد عاد أرشاك."

تسلق الممر شديد الانحدار نحو القرية. كانت السلة الثقيلة تضغط على كتفيه، والنبيذ يترشش في الجرة، بينما كان الحمل الخنوع والوديع يركض أمامه أو خلفه.

قال له الناس الذين قابلهم على الطريق: "إلى أين تمضي في هذا الوقت المبكر؟"

وكان الرجل العجوز يجيب بافتخار: "لقد عاد أرشاك في زيارة."

في الطريق كانت كل شجرة وأجمة وكل حجر ونبع يذكره بطفولة أرشاك. كم من المرات حمل الطفل على ظهره صاعداً الممر شديد الانحدار. كان يجلس ليرتاح على هذه الصخرة. كان نافاسارد يعطي أرشاك أجاصة ويمسح أنفه بحاشية سترته الطويلة. كان هناك النبع الذي كان أرشاك يحب أن يشرب منه.

كان نافاسارد يجعل كفيه بشكل كوب ليشرب منهما أرشاك. وهاهو البستان الصغير. كانت الأشجار لا تزال تحمل الكثير من الثمر الذي بقي أخضر حتى ونحن في وقت متأخر من الخريف. حين كان أرشاك في السابعة قد سقط ذات مرة من شجرة الكرز تلك وكسر ساقه. وقد حمله نافاسارد كل مسافة الطريق التي تمتد أميالاً كثيرة إلى الطبيب في المستوطنة البعيدة.

ثم فكر نافاسارد بكل الأمور التي باعها ليجهز أرشاك لحياة المدينة حين أرسل الصبي ليدرس هناك. مر زمن طويل ولكن أرشاك تخرج في الجامعة ثم ذهب ليدرس في موسكو. وقد وصل إلى مراتب عالية في هذه الحياة.

غالباً ما كان نافاسارد يحكي لأهل قريته عن العمل الهام جداً الذي يقوم به أرشاك في العاصمة، وحول سيارته الفخمة وأنه يعيش في أكبر منزل في موسكو.

كان الرجل العجوز حريصاً على أن يصل القرية بسرعة. كان النبيذ يترشش في الجرة والحمل الخنوع الوديع يلحق به.

وصل أخيراً إلى منزله ولكنه لم ير سيارة أرشاك في الخارج. تساءل نافاسارد: "لم لم يقد سيارته إلى المنزل مباشرة؟ آه؟ ما الذي أتحدث عنه؟ الحصى حاد جداً هنا. وربما خشي أن تتضرر عجلات سيارته. إنه لأمر جيد أنه لم يقد سيارته حتى المنزل."

كان منزله ذو الطابق الواحد والسقف الممهد والشرفة والأرضية الترابية أشبه بعش نسر على منحدر الجبل، وذلك بين منازل أخرى كثيرة مشابهة.

دخل نافاسارد إلى الباحة، وضع الجرة والسلة على الأرض، ورمى ملء

ذراعيه عشباً إلى الحمل وراح يتطلع في أرجاء المكان. ولأول مرة في حياته بدا له المنزل مثيراً للشفقة وآيلاً للسقوط.

"حسـنـاً، إنه بيت أرشاك أيضاً. لن يخجل من بيته." هذا ما قاله ليعزي نفسه وبدأ ينظف الباحة.

"تهانيـنا يا نافاسارد، فقد عاد أرشاك." هذا ما قالته الجارة العجوز له وهي تطل من فوق السياج.

احمر وجه نافاسارد خجلاً. (شكراً. وأتمنى أن يعود غيّابك أنت أيضاً).

"لقد رأيت أرشاك."

"هل كان هنا؟"

"كلا. لقد ذهبت إلى الدكان لأشتري رزمة من الإبر ورأيته واقفاً أمام مكتب المزرعة. يا له من شاب جميل. لا يمنك أن تقول عنه إلا أنه ابن شاه. لم أستطع أن أبعد عينيّ عنه. فليباركك الرب."

"شـكراً"، قال الرجل العجوز بصوت بحّ من الانفعال. ومضى ينظف الباحة بحماسة.

أولاً كـنس التراب: "لا أريد لابني أن يغبّر حذاءه". ثم ضرب مسماراً ناتئاً بحجر: "قد يعلق كم أرشاك بهذا المسمار ويمزق سترته".

فـتح نافاسـارد الـباب. كان هناك سرير صغير يتكئ مهجوراً إلى الجدار العـاري. "سأقول: أتذكر كم نمت في هذا السرير الصغير يا أرشاك ونمت أنا على الأرض؟" كـان يفكـر بصوت مرتفع وهو يمهد الغطاء بيده. "سأقول: هذا صحنك العتـيق الـذي كنـت تـأكل منه. انظر يا أرشاك، هذه ملعقتك الخشبية. أتذكر يوم اشتريتها لك من ماناس نحات الخشب؟ ثم أخذتها إلى الرسام الذي لونها من أجلك؟"

وبينما راح يحادث أرشاك على هذا النحو في فكره، مضى نحو النبع وجلب بعض الماء ورش الباحة والشرفة والأرض في الداخل. ثم بدأ يكنس.

ومن جديد أطل رأس جارته العجوز من فوق السياج.

"نافاسارد، هل تعرف أن أرشاك ذهب إلى منزل رئيس المجلس؟"

"كلا، ومتى مضى إلى هناك؟"

"قبل أن تعود مباشرة."

"لا بــد أنـــه لاحظ أن لا أحد في البيت فذهب إلى هناك ليرتاح. سيأتي. لن يضيع الطريق."

"طبعاً".

جلــب نافاســارد بعض الحطب الجيد وكومه قرب الموقد خارج المنزل. ثم أخــرج ســكينه مــن حزامه ومضى نحو الحمل. في اللحظة الأخيرة غيّر رأيه. "ســأنتظر حــتى يصل أرشاك." هكذا قرر ونظر باتجاه منزل رئيس المجلس ذي الطابقين.

"مـــا الــذي يؤخره؟ سرعان ما سيحل الظلام. ثمار التين ستفسد، والقرانيا ستفقد مذاقها."

أخــرج الثمار من السلة ووضعها على حافة النافذة. ثم استعار مفرش طاولة جديــداً مــن الجــيران وغطى به الطاولة، ونفض السجادة وغطى الكنبة ووضع وسادة عليها.

كان كل شيء جاهزاً الآن. ومع ذلك، فإن أرشاك لم يصل بعد. "ما الحكاية؟ لمـــاذا ذهــب إلى منزل رئيس المجلس؟" تساءل نافاسارد بغضب وارتجفت يداه. وعلى أي حال فإنه سارع إلى تعزية نفسه قائلاً:

"أرشـــاك شــخص مهــم. عليه أن يزور رئيس المجلس ويسأله عن أحوال القرية. ولماذا العجلة على أي حال؟

ســيكون لــي وحــدي يومين اثنين. لن أدعه يغيب عن ناظري. سنعوض الزمن الضائع.

كانــت الشمس تغرب، ولكن أرشاك لم يأت إلى البيت. بدأ قلق الرجل العجوز بالتصاعد. ومرت لحظة كاد فيها أن ينطلق نحو منزل رئيس المجلس، ثم غير رأيه.

خرج إلى الباحة ونادى على حفيد جاره.

قال: "امض مسرعاً وانظر ما يفعله أرشاك. قل له إني في البيت أنتظره."

عاد الولد بسرعة فائقة.

"حسناً، هل رأيت أرشاك؟"

"أجل".

"ما الذي يفعله؟"

"يشرب النبيذ".

"هل قلت له إني في البيت؟"

"أجل".

"وما الذي قاله؟"

"قال: حسناً."

كــرر نافاسارد الكلمات لنفسه. "حسناً إذن. هذا يعني أنه سرعان ما سيأتي إلى البيت. سأشعل النار لأجهز الششليك في هذه الأثناء".

سرعان ما كانت نار جيدة قد اتقدت في الموقد. ثم راح ينظف أسياخ اللحم. عاد إلى المنزل ومسح الغبار عن المصباح وجلس إلى الطاولة وراح ينتظر.

راح الوقــت يــتجرجر دون نهاية. انطفأت الأنوار في القرية وبدت المنازل حمــيمة. كان ضجيج الشارع قد بدأ يتلاشى. وسرعان ما كان الصوت الوحيد هو صوت الكلاب التي تنبح بحزن في البعيد.

كــان أرشاك لم يصل بعد. خمدت النار وتركت كومة من الرماد في الموقد، بيــنما كان الحمل يتمدد على العشب وهو يلوك جرته. كان نافارساد يصغي بكل جوارحه وهو يحدق إلى العتمة. تعبت عيناه وبدأتا تدمعان وشعر بثقل في رأسه. نهــض ولكن قدميه رفضتا التحرك. "لم عليّ أن أرجوه ليأتي؟ أنا أكبر سناً منه. عليه هو أن يأتي إليّ"، هكذا بدأ يغمغم، ثم عزى نفسه مرة أخرى قائلاً: حسناً، إنه شخص هام. ربما لديه عمل هام يناقشه مع رئيس المجلس. سيأتي إلى البيت حتماً في الصباح".

ومــع ذلــك، فقد راح ينتظر. انتظر حتى ساعات الصباح الأولى. كان ليل الخــريف على وشك الانقضاء. كلت عينا الرجل العجوز من التحديق بتصميم في العتمة. ولكن النوم غلبه تدريجياً. نام نافاسارد وهو جالس إلى الطاولة.

• • •

لـــم يعرف كم طال نومه. أيقظه صوت الجارة وهي تناديه من الباحة. فتح عينيه ودهش إذ رأى أول شعاع من الشمس يدخل من النافذة.

"نافاسارد. هاي يا نافاسارد"، نادت الجارة.

اندفع خارجاً من المنزل. كانت جارته تطل من خلف السياج. "كيف حدث أن نمت إلى هذا الوقت المتأخر اليوم؟".

"ما الأمر؟ هل أرشاك في طريقه إلى هنا؟"

قالت وهي تهز رأسها: "كلا. أرشاك ابنك يغادر القرية. انظر إلى الطريق".

أحـــس نافاسارد وكأن السقف قد وقع على رأسه. ركض نحو الكوخ الواطئ وتســـلق إلـــى السقف. كانت سيارة أرشاك تسرع على امتداد الطريق؛ هي تلتمع تحت نور الشمس، وهاهي تصبح بسرعة أصغر فأصغر.

كانت مشيته المضطربة مشية رجل عجوز. كان نافاسارد يشق طريقه هابطاً الممر نحو البساتين.

بـــدت عيناه اللتان تحدقان إلى الأرض غائرتين، وبدا ظهره أكثر انحناء مما كان قبل الآن. كان الحمل الأبيض يطفر مرحاً وراءه.

□□

# قصة حب

■ بقلم: أفيتيك إساهاكيان ■
■ ترجمة: هراج كل سحاكيان ■

*أنهكنـــي الحب لكثرة ما أحببت وأصبحت قصص الحب تسبب لي نوعاً من السـأم ولكـن لا تزال هناك قصة حب قصيرة، غير مكتملة، تدوي في أذنيّ.. لا أدري أفــي منامــي سمعتها أم في يقظتي؟... كأنها حكاية قديمة نسجت روحها الأصلية في عالم بعيد.*

كـــان العازف جالساً تحت شجرة وارفة الظلال وقد أسند ربابته إلى صدره، يوقع ضربات موزونة على وترها وهو يشدو بقصة الحب هذه:

أقامــت فتاة شابة في قلعة من القلاع وكانت بهية الطلعة رائعة الحسن، فاق جمالهــا جمــال الـتمّ المتبجح على صفحة البحيرة. وكان الشاب القادم من البلاد البعــيدة يجـثو علــى ركبتيه متوسلاً بعبارات الحب أمام الفتاة المطلة من شرفة القلعة:

"حملني حبك على نسيان أهلي ووطني والعالم كله،
سعادتي منذ هذه اللحظة رهن إشارتك،
فامنحيني ولو نظرة واحدة"

ولكن الفتاة لم تكن لتصغي إلى هذا الكلام الجميل، إنما كانت مشغولة بحياكة ثوب، في الوقت الذي كانت فيه تعيد ذكرياتها حتى اليوم الذي مرّ فيه تحت شرفة قصـــرها، ممتطياً صهوة جواد أصيل، وبعد أن ألقى صوبها نظرة خاطفة توارى عن الأنظار مضرماً بنظرته اليتيمة تلك جذوة الحب في قلبها العذري.

بكـــت الفتاة بمرارة وهجرت القلعة مقتفية أثر فارسها الغريب وجالت عوالم كثيرة وطرقت العديد من الأبواب ولكنها لم تجد أثراً له. كان قد اختفى..

أمـــا الشاب القادم من البلاد البعيدة، فلا زال يبتهل راكعاً على ركبتيه، يشدو عبارات الحب ويلتمس الشفقة:

"ســأمكث أمام باب دارك وسأنتظركِ حتى آخر عمري، لن يفرق بيننا سوى الموت، لأنكِ حبي وحياتي ومصيري معاً".

إلا أن الفــتاة لــم تكن لتستمع لأيٍ من هذا الكلام. كانت تحيك الثوب بيديها وتحلم... هاقد وجَدَت أخيراً حبيبها وصارحته بحبها العميق ولكن للأسف..

فارســها الذي طالما حلمت به، لا يشاطرها المشاعر نفسها، إنه يتجاهل نداء قلبها وهاهو يرحل للبحث عن حبه هو.. ولن يعود أبداً.

تمضــي الأيــام ولا يــزال الشــاب القــادم من البلاد البعيدة يلتمس الحب متضرعاً...

اضطرب وتر الربابة وخفق بارتعاش وانقطع بغتة وبقي الشادي جالساً تحت الشجرة، مسنداً الربابة إلى صدره، بينما بقيت قصة الحب هذه غير مكتملة، وهي ما زالت تتناهى إلى مسامعي ولا أدري أفي منامي سمعتها أم في يقظتي؟.. كأنها حكاية قديمة نسجت روحها الأصيلة في عالم بعيد.

❑❑

# العزاء

■ بقلم: أفيتيك إساهاكيان ■
■ ترجمة: هراج كل سحاكيان ■

***حدث ذات يوم أن قضى الابن الوحيد لأرملة نحبه، تاركاً وراءه الأم الثكلى في حالة يُرثى لها. ارتدت الأم المفجوعة ثياب الحداد واستسلمت للدموع وانكفأت عن ممارسة أي نشاط وجثمت في الدار، لا تتحرك من مكانها إلا لتحرك الحطب وتوقد النار، فكان الدخان المنبعث ينتشر إلى كل أكواخ القرية حاملاً تأوهاتها الممزقة لنياط القلب. وكان أهالي القرية يرثون لحالها قائلين:***

-يا لها من امرأة مسكينة تعيسة، ما أشد مصابها.

اجتمع نفر من الحكماء المسنين من أصحاب الخبرة والتجربة وجاؤوا إليها ووجدوها تنتحب على ضريح ابنها فلم يبخلوا عليها بالمشورة:

-كفى نحيباً يا أيتها المرأة البائسة، فالبكاء لا يعيد الفقيد والموت قدر لا مفر منه، فكلنا سنؤول إلى الزوال عاجلاً أم آجلاً. هذه سنة الحياة وعلينا أن نتقبل قدرنا بكل قناعة ونتمتع بنعم الحياة قبل فوات الأوان. عودي إلى

بيتكِ، فأحفادك اليتامى بأمس الحاجة إلىٰ حنانك وعطفك. عودي إليهم ودعي الفقيد يرقد بسلام، فطوبى له ولرحيله المبكر من هذا العالم الفاني..

هكــذا وعــظ حكمـــاء القـــرية، أصحاب الحنكة والدراية وقد أرادوا بصراحتهم تلك أن يستروا علامات الشفقة التي ظهرت على وجوههم، لكن المرأة الحزينة لم تقبل مواساتهم ومضت تبكي بمرارة.

واجـتمع أثـــرياء القـــرية من أصحاب الجاه والنفوذ، وقصدوا المقبرة ووجــدوا المـــرأة المـــنكوبة وهـــي تجلس قرب ضريح ابنها تبكي بحرارة فتوجهوا إليها قائلين:

-كفـــى بكـــاءً يا امرأة، فمن كتب له أن يموت سيموت. إن أحفادك لا يتمنون لكِ الموت، فعودي إليهم وأشعلي موقد الدار واعتني بهم، فلن يطول الوقـــت حـــتى يكـــبروا ويـــتقلّدوا دور الفقـــيد. لا تنسي أننا على استعداد لمساعدتكِ.

ولكـــن المـــرأة المفجوعـــة لم تتكلف عناء رفع رأسها واستمرت في النحيب وكأنها فقدت الأمل نهائياً من كل ما حولها.

حدث وقتها أن مرّ عابر سبيل من القرية ذاتها وما أن سمع بكاء المرأة حـــتى تفتـــت قلبه واختلجت مشاعره فتقدم بخشوع واخترق الجمع المحتشد ليقـــترب مـــن مصـــدر هـــذا العويل الذي أنساه عناء السفر. وما أن أصبح بجوارها حتى أحنى ظهره وقبل يدها بكل تواضع وذرف دمعاً غزيراً.

حينئذ فقط رفعت الأم المنكوبة رأسها ومسحت دموعها وشعرت أخيراً بـأن الحمـل الثقيل بدأ يخف على كتفيها وانفرجت أسارير وجهها وشعشع بريق الأمل في عينيها. وسرعان ما نهضت ومضت إلى بيتها بخطى واثقة وأشعلت النار من جديد في الموقد الخامد.

□□

# الشعر

- أشعار أرمنية

............ الشاعر: صياد نوفا............... ت. برجوهي أفتيان

- الشاعر نرسيس شنورهالي

...........بقلم: سربوهي هايرابيديان ............ ت. نزار خليلي

- من أعلام الشعر الأرمني الحديث

.......... بقلم: كتاب أرمن ...................... ت. نبيل المجلي

# أشعار أرمنية

## للشاعر صياد نوفا

■ ترجمة: برجوهي أفتيان ■

*صـــياد نوفا هو "أشوغ" أي شاعر وزجّال ومؤلف وملحّن ومُغن وموسيقي متنقل يجوب البلدان. هذا اللون معروف في الشرق بالزجل أي القصيدة المحكية المغناة. ويترافق الغناء بالعزف على الآلة الوترية "الكمنجة".*

*ينظم "الأشوغ" الشعر ويلحنه ويغنيه ارتجالاً في المجالس. ولكمة "الأشوغ" تعني العاشق بالعربية بسبب ميل هذا اللون من الغناء والشعر إلى العشق، وحب الحياة، والجمال، والصفاء الروحي.*

ولــد صياد نوفا واسمه الحقيقي "هاروتيون" بين عامي (1720- 1722) في عائلــة متواضـــعة. نزح والده "قره بيت" من مدينة حلب واقترن بأمه "سارة" التي جاءت مع عائلتها إلى عاصمة جورجيا تيفليس هرباً من المذابح في أرمينيا.

عـــاش صـــياد نوفـــا في كنف عائلته في تلك المدينة التي احتضنت أجناساً مختلفة من القوميات وكانت آنذاك مدينة للمرح والرقص والفنون، إذ شكلت الجالية الأرمنية فيها أغلبية السكان وشغل عدد كبير من أبنائها مناصب رفيعة في القصر الملكي وخدموا البلاد بإخلاص.

صـــياد نوفـــا كلمة فارسية الأصل وتعني "الأمير الموسيقي" وقد سمي باسم الدلـــع "أروتين" يقال إنه عمل مع والده في النسيج، ولكن عشق الفن والغناء طغى علـــيه وأصـــبح مغنـــياً مشهوراً. كان يملك صوتاً عذباً وخيالاً واسعاً ومهارة في العـــزف والإبداع. دوره كبير في إيصال الأغنية الشعبية إلى العالمية. زار بلداناً

عديدة حتى وصل إلى الهند، وغنى وألّف بلغات ثلاث: الأرمنية والجيورجية والآذرية وبالتالي شمل إبداعه الحضارات الثلاث.

أوصلته شهرته إلى القصر الملكي الجيورجي، فأصبح شاعر البلاط وأشوغ الحفلات والمجالس وساقه قدره لعشق الأميرة "أنّا" ابنه الملك الجيورجي وخطيبة أمير من عائلة أوربيليان الأرستقراطية.

عبّر عن حبه بأبيات رائعة وتعابير جميلة مشبهاً حبيبته بالأزهار والأحجار الكريمة والعطور والحرير والشمس والقمر.

إذ احتار في وصفها قائلاً:

**إن قلتُ إنّكِ بنفسجة قالوا إنها من الجبلِ أتتْ**
**إن قلتُ إنّكِ جوهرة قالوا إنها مجرد حجرْ**
**إن قلتُ إنّكِ قمرٌ قالوا من العلياء أتتْ**
**أنت مشرقة كالشمس التي تبهرُ النظر يا رائعتي.**

وأنشد أيضاً:

**أعجوبةٌ كنجومِ السماءِ أنتِ**
**باقةٌ من أزهارِ الربيعِ أنتِ**
**قيثارتي، لحني، أغنيتي أنتِ**
**حوريةٌ من أعماقِ البحرِ أنتِ وظبيةٌ رائعةُ الخيال.**

وقال أيضاً:

**أغنيةُ المجالسِ أنتِ**
**وتراتيلُ الأديرةِ والرهبان**
**وكرمةُ الشاعرِ أنتِ**
**زادتني عناقيدها هياماً واشتياقاً.**

يصف دلال حبيبته في مشيتها:

كـــأنكِ الـــبحرَ فــي أمواجـــه

حيــنَ تتمايليــن فـــي الكـــرومِ

كان حبّه في الغالب عذرياً، إذ وردت كلمة "القبلة" مرة واحدة في أشعاره:

قـــبلةُ الحـــبِّ لـــكِ

كقـــبلة المتعـــبّد للصـــليب

يقول أيضاً:

قفزتُ من حلمي حين دنت أنفاسكِ مني حبيبتي.

ويمدحها حائراً:

بمـــاذا أصفكِ أ بالحريرِ فلابـــد أن يهـــترئ

أ بالشـــجرِ فالخشـــبُ لابـــدَّ أن ينشـــر

بمـــاذا أصفكِ حبيبتي لم يبق شيء في الدنيا لم أذكرهُ.

ويسترسلُ قائلاً:

أبـــالحورِ أشـــبهك

والحـــورُ يحـــرق.

ويستطرد قائلاً:

جوهـــرةٌ نادرةٌ أنتِ طوبى للذي يحظى بها

حـــبكِ يـــبعدُ الآهاتِ ونأيكِ يأتي بالويلاتِ.

أشـــعاره عن الحبيبة والحب والعشق كثيرة وكان يسمى بـــ"خادم الحب" فهو مستعدٌ للتضحية من أجلها حين يقول:

إن طلبتِ الخلودَ فديتك بروحي.

نلاحظ عند صياد نوفا في البداية العاشق المتيم بجمال ومحاسن حبيبته ولكنه يتحول تدريجياً إلى إنسان يائس إذ يقول:

عاشقٌ فاقدُ اللبِ أنا تائه بين الدروبِ
همومي كالسيفِ ذي الحدينِ أنّى لعاشقٍ تحملها
حبكِ أحرقَ قلبي جعلني كطائرِ القطا أرقصُ ألماً يا مقلةَ العينِ.

كذلك يقول:

**أشهدُ أنّ لا حبيبةً في الدنيا إلا أنتِ.**

وللحب مكانة قدسية لديه:

**لا، لن أحبُّ غيركِ أنتِ الوحيدة في الدنيا.**

ونجد ألمه وحيرته في أبيات جميلة:

| | |
|---|---|
| **جوريـــــةٌ حمـــــراءُ أنـــــتِ** | **تناجيـــــــنَ الـــــــبلابل** |
| **مـــبهرةَ قمـــريةُ الوجـــهِ أنـــت** | **إن اكتملـــت كنـــتِ الـــبدر والقمـــر** |
| **ضـــفائرُ شـــعركِ تـــتجدلُ** | **إن لـــــم تبـــــتلً بالـــــندى** |
| **مـــن يمعـــنُ الـــنظرَ إلـــيكِ** | **مســـكينٌ يـــتوهُ دربـــهُ** |
| **أكســـيرُ الحـــياةِ لديـــكِ** | **فأنـــتِ الـــداءُ وأنـــتِ منبـــتُ الروح** |
| **في حضنكِ الورد والبنفسجُ والزنبق** | **والياســـمين صـــنعَ يديـــكِ** |
| **العـــالمُ بحـــرٌ وأنتِ قاربٌ فيه تلهينَ** | **تمرحيـــــن مـــــع الأمـــــواجِ** |
| **أنـــتِ مـــن أزهـــارِ البحرِ وبنفسجةٌ** | **تفتحـــت تتمايليـــنَ مـــعَ الـــرياحِ** |
| **كـــيف لي أن أتحملَ هذا العشقَ فيا** | **صـــياد نوفـــا جـــرتكَ الســـيول** |
| **بلمحـــةِ تســـلبينَ ذا اللـــبَ عقلـــهُ** | **وتجعليـــنه مســـحوراً بعـــد ذلـــك.** |

حبه العميق يحرقه فيقول لها:

نارٌ أنتِ ونارٌ خماركِ بأي نارين أحترق.

ويتألم من تصرفاتها قائلاً:

**مـــا الخطـــبُ يـــا عمـــري للتحـــيةِ لا تردينَ**

أبَـــدا منّـــي شـــيءٌ يـــزعجكِ        يا مقلةَ العين؟
إن اكتفيتُ بالعالمِ عشقاً فبعشقكِ ظمآن أنا يا مقلةَ العينِ
لا تسألين عن حالي وأنا المتيّمُ بالهوى

وأحاطه اليأس من كل جانب وهو يقول:

جفتْ دماءُ قلبي من الآهاتِ
لوعةُ كبدي كادتْ تهلكني
جاحظُ العينينِ ظمآن مسحورَ اللسانِ
فقدتُ عمري كالحلمِ، حرمتْ من الثمرِ شجرتي.

ويتمنى التوقف عن نظم الشعر والغناء حين يقول:

فيا ليتَ شعري قد جفَّ في حلقي
ولجمتُ فمي من لوعةِ الكبدِ.

ويصف حبّه الكبير والمجنون واليائس:

عشقكِ جعلني مجنوناً مجروحَ الفؤادِ هائماً على وجهي
عشقكِ بحرٌ أنا فيه كقاربٍ صغيرٍ يا مقلةَ العينِ.

ولدرجة أنه يتمنى الموت كي تأتي الحبيبة وتبكي على قبره وهي تكشف عن رأسها (هذا تقليد وثني يجسد الحزن عند النساء):

يا ليتني أفنى فتبكين عليَّ وشعركِ كالأشعة منثورٌ يا مقلةَ العين

وتعبير مشابه آخر حين يقول:

لن أبتعدَ عنكِ ما لم يحن أوانُ الموتِ.
حينها أسدلي على قبري جدائلَ شعركِ الحريرِ.

وكـــان يعـــي الفـــارق الطبقي بينه وبين حبيبته الغالية، فمكانته الاجتماعية متواضعة، ويقول:

**أعلم يا حبيبتي أنكِ لستِ لي**

**أنتِ ملكة وأنا درويشٌ تائه.**

لكنه يملك الكرامة وعزّة النفس لذلك يؤكد ويقول:

**لو تحولّت الصخورُ إلى جواهر فلا يهمني**

**لو ابتعدَ الناسُ عني فلا يهمني**

**قلبي بنارِ الحبِّ ملتهبٌ فذاكَ يبعدكم عني**

**أبعدوا الشمسَ عني فظهري محملٌ بثلوجٍ من الهمّ**

فهو في حيرةٍ من أمره أيخضع لعواطفه أم يتحرر منها، فيقول:

**أيخدم خادمٌ صاحبينْ**

**أم بستانيٌ حقلينْ.**

ويضيف:

**لوعةُ القلبِ لا تطفئها السيولُ**

يحاول اللجوءَ إلى طريقةٍ أخرى للتخلّص من مأزقه:

**يا ليتَ مرشداً يهديني في الكونِ**

**يحررُ القلبَ من حبكِ يا جميلتي**

فنارُ حبّهِ لا تُخمدها نصيحة أو وعظ لذلك يختم قوله بالأبيات التالية:

**لو اجتمع سبعةَ حكماء لنُصحك**

**فيا صياد نوفا مصيرك محتوم**

فهو صريح وحكيم في أقواله:

**محترَمٌ من حافظَ على اعتبارهِ.**

عزةُ النّفسِ عندهُ كبيرة:

**ليت عمري يمضي دون أن أمنَّ على أحدٍ**

**ليتَ همومي تمضي دون أن أمنَّ على أحدٍ**

**مهلاً ليتني التقيتُ الخيِّرَ فللشرِ لا أحيد**

**أحافظُ على صورتي بالمرآةِ معززةً دون أن أمنَّ على أحد.**

لكنه يخاف من الحياة:

**أنفخُ اللبنَ خائفاً من حرقةِ الحساءِ الساخنِ للساني**

**كبوتُ كبوةَ الذئبِ العاجز عن الحراك المكسور الظهرِ.**

اشـــتهر صياد نوفا كشاعر للعشق والحياة وحملت إلينا أشعاره فلسفة "الحب" ولكنها لا تنحصر ضمن مجال الوصف لمحاسن الحبيبة والحبّ البائس والتذمر بل له أبيات كثيرة يحلل فيها الحياة بذكاء وحكمة ويملك نظرة ثاقبة.

ونجد ذلك في الأبيات التالية:

**إن رغبـــتَ العـــيشَ كســـيدنا إبراهـــيم**

**علـــيكَ المـــثابرة علـــى إيمانكَ وأملكَ**

**قـــدركَ هـــو الـــذي كتـــب على جبينك**

**مـــن يســـتطيعُ الهروبَ من مشيئةِ الله**

**أصغِ أيّها القلبُ المجنون لتكن كالملحِ والخبزِ هذه النصيحة**

**أبعدْ امرأتكَ عن الجلوسِ على مائدةِ الغريبِ**

**واحذر. فامرأته حرام عليكَ**

**أيها القلبُ إنّ الروحَ هي للعبادةَ في هذه الحياة**

**فلا تقترب من المالِ الحرامِ**

**أصغِ لكَ نصيحةَ أخرى**

صياد نوفا لا تهرول بعيداً عن الحياةِ.

يوجه هذه الأبيات للحبيبة وأيضاً لرفيقه، فيقول:

**اجعلْ لكلماتك معنىً فأنت صاف ونقي يا أخي**

**أنت ماء الحياة الذي يملأ الإبريق الذهبي يا أخي**
**أيشبع الذي ينهل من هذا الماء أنت نبع من الحليب يا أخي**
**العالم بحر أنت قارب فيه تلهو كفقاعة يا أخي**
**أخاف أن تحرقني فأنت نار لا تخمد يا أخي.**

وتتمثل الحكمة في الأبيات التالية:

**هناك من يرى الحياة في كأس النبيذ**
**والآخر في الحفلات والمجالس**
**أمَّا لساني فيعشق الكلمة الحرة.**

وقال أيضاً:

**الإنسان يُعرفُ من لسانه حتَّى لو أصبح وزير الشاهِ**

ولا يهاب أحداً حين يقول:

**الحقيقة لا تفنى وإن حُرقت بالنارِ**
**ابتروا لساني إن كذبت أفدوا بروحي**
**اللهُ في السماءِ أنا على الأرضِ أعدكم بأن لا يمسّ الكذبُ لساني.**

ويدرك أنه ما هو مسموح له لا يسمح لعامة الشعب قائلاً:

**لساني الأشوغِ مثل البلبلِ يملك البركةَ**
**لا اللعـــــنة**
**يعـــيره الشـــاه انتـــباهاً، والجـــلاد**
**لا يقدم على قتله**

يتمنى مانحاً الخير والبركة للعالم:

**أكشفُ عن حمل أوزعُ الحظَ للقادمينَ**
**أمنحُ رأسي ضحية للراضين والرافضين.**

ويقول مدافعاً عن مصالح الشعب:

**أنا لا أهاب الموت لكني أبكي من أجل الناس جميعاً.**

لقد استُبعد صياد نوفا عن القصر الملكي الجيورجي عام (1752) بسبب الأقاويل والفتن.

كتب في هذه المناسبة أبياتاً كثيرة يرفع صوته إلى الملك "هيرقل" يلومه تارةً ويمدحه تارةً أخرى، آملاً أن ينال العفو ورضى الملك.

يقول له في أغنيته المشهورة جداً:

**أنتَ إنسانٌ حكيمٌ للأحمق**

**لا تصـــغِ**

**عـــن مـــنامِ رأيـــتهُ**

**لا تحاسبني.**

وبصراحة أكثر:

**احـــتفظ بصفاءِ قلبك، بعيدةَ عن التصديق**

**أقـــوال الفاســـدين**

ويضيف محافظاً على كرامته ومكانته كما يليق بشاعرٍ:

**لا يقـــدر أي واحد أن يشرب فمائـــــي مخـــــتلفٌ**
**لا يقـــدر أي واحـــد أن يقرأ فكتابـــــي مخـــــتلفٌ**
**لا تظنوا أنّ من الرمال بنيتي أنـــا مـــن الحجـــر الصلب**
**كالســـيل لا يَعـــرف الهـــدوء فـــلا تحـــاولوا هدمهـــا**

يبرز مدى أهميته عندما يوجه كلامه لهيرقل الملك:

**إن مت لن تلتقي بمثلي**

**فأنا شاعر بلاطك ليتك تضن بي.**

كـــان إخلاصـــه للملك كبيراً ومع ذلك نلاحظ في قصيدته اللوم المبطن حين

يقول:

**احتفظ بصياد نوفا ولا تبعده عن بيتك**

**طوال عمرك لن تلقى خلاً أميناً مثله.**

كان الملك "الأب الروحي الكبير" بالنسبة له، ويقول متألماً:

**لــو استطعت الكشف عن قلبي**

**همومي كالبحر**

**إن أبعدتني عنكَ فمن هو البديل**

ويستفسر حول ذنبه من خلال أبيات كتبت في عام (1753) قائلاً:

**همي كبيرٌ لا يمكنُ البوح به**

**كتبتُ رجائي وتركته لرحمة الحاكمِ**

**احكم بالحقِ واعدل في محاكمتي**

**وإن كنتُ مذنباً فليكن حبل المشنقةِ من نصيبي.**

في ربيع (1753) كتب القصيدة التالية وقد كان مطروداً من القصر متشائماً لكنه قلبه كان يحن إلى الحبيبة:

**هيا أصغِ إلي يا قلبي المجنون**

**أحبب الحياة، أحبب الأدب، أحبب الكرامة**

**إن كان العالم في ثباتٍ فماذا تأخذ معكَ**

**أحبب الله، أحبب الروح، أحبب الحبيب**

**لتكن أفعالك مرضية لله**

**هناك نصائح ثلاث هي عن الروح والجسد**

**أحبب الكتابة، أحبب القلم، أحبب الدفتر**

**فيا قلب هيا اقبل لا تطمع**

الخبز والملحُ الحلال لا ينكر

**افعل خيراً لا يسخر منك أحد**

أحبب النصيحة أحبب الصبر أحبب الخير

صياد نوفا مرحى لك إن فعلت ذلك

**من أجل روحك منحت نصف عمرك**

**إن رغبت بأن لا تحاسب في النهاية**

**أحبب الدير، أحبب الصحراء، أحبب الحجر**

حكمته أيضاً للحبيبة بمغزى مشابه من خلال الأبيات:

**أصغي إليّ، أنا فداك فتمهلي يا جميلتي**

**فلمن دامت الدنيا حتّى تدوم لي ولك يا جميلتي**

ويبدو أن محاولاته الكثيرة ورجاءه الحار عند الملك كانت غير مستجابة لذلك يقول:

**أنت الملك فمصيري بين يديك دام عزك**

**إن كنت مذنباً ارجمني بحجر دام عزك**

**أينما ذهبت خذني معك دام عزك**

نجد في الأبيات التالية وصفاً للسخرية وكلمات السخط التي تعرض لها بعدئذ:

قال أحدهم: "ارحل" فخرقة بالية أنت

وقال آخر: "بئرٌ كريه الرائحة أنت".

وقال كذلك:

**لا خطيبة لي ولا زوجة**

**في المجلس كنت موضع السخرية**

**كائن أنا من عامة الشعب دفنتُ حياً.**

وأيضاً:

**حـــاملاً العـــود بـــيدي مهيـــئاً**

**ذهبـــتُ إلـــى الملـــك مهـــندماً**

**منعنـــي الحـــرس. مكســـور الشـــوكةِ**

**تمنيـــتُ لـــو لـــم أقـــدر فهـــم لغـــتهم**

**قـــالوا: "اذهـــب يا ذا الوجه الأسود".**

ويقف صياد نوفا مهان الكرامة ومتألماً يخاطب الملك متمنياً أن يكون عقابه من الملك مباشرة وليس على يدي مرافقيه حين يقول:

**بإذن الله يجب أن يكون المرء رحيماً**

**من يعلم الجبل أن يلاقي الجبلَ**

**ليتك بالضرب نصحتني**

**وكان عزلي وإهانتي على يديك**

**كونك والدي الروحي الكبير أنت.**

ونجد الإهانة واليأس في الأبيات التالية عندما يقول للملك:

**لو حطموا قلبي ونصبوه على الخشب**

**لن أفارقك ما دامت أنفاسي على شفتي**

**أرمي نفسي في البحرِ ربَّما أنقذني نهر الكورا**[1]

وفـــي عام (1758) نظم الأبيات التالية عندما أُعيد إلى القصر فترة ثمَّ أُبعد منه للمرة الأخيرة ومن المتوقع أن ذلك حصل في عام (1762).

---

[1] اسم نهر في جيورجيا.

يقول فاقداً الثقة والصداقة:

**أصحابي تحولوا إلى أعداء لي فأين الأمان**
**قل الملح والخبز لم يبق الضمان**
**فقد الأمان الحقيقي لم يبق للحكمة مكان.**

يقول أيضاً:

**لا تصدقوا لا اعتبار للدنيا**
**لم يبق هناك شعراء ولا أصحاب عشقٍ.**

لكنه إنسان بمعدنه ويتفوق على اللذين أهانوه. فيبادل الكره بالخير رغم أنهم حاولوا تحطيم قلبه:

**هيا اخدم محملاً بالهم يا خادم الشعب صياد نوفا**
**فليس بإمكان أحدٍ الحصول على الرقي**
**امنح الحلو لمن يعطيك المر. .**

ونلاحظ هنا أنه يستبعد فكرة رجوعه إلى القصر الملكي ولم يعد يطلب من الملك محكمة عادلة إنما حياة متواضعة:

**ارفع يديك، أنا الشرَّ لا أريد**
**في هذه الدنيا الفخامةَ لا أريد**
**فكرامتي غالية. الإساءةَ لا أريد**
**أنا من العامة. المكيدةَ لا أريد**

أُرغم صياد نوفا على الابتعاد ليس فقط عن القصر الملكي بل حُكم عليه بقضاء بقية حياته كاهناً.

صياد نوفا شاعر البلاط المشهور، المغني والملحن الكبير ارتدى لباس الكهنوت مرغماً وسميّ باسم جديد هو "الأب استيفانوس" ويعتقد أنه بعد وفاة زوجته أصبح مطران دير "هاغباط" وسميّ "الأب تافيت".

والسؤال الذي يخطر على البال:

ما الذنب الذي اقترفه والذي سبب طرده من القصر؟ نجد الجواب في الأبيات التالية:

**يا صياد نوفا بلسانك زدت من آلامك**

**فاستعد للتآخي مع الآلام والهموم.**

إن دفـــتره الشـــعري أغلـــق عام (1759) أمّا الأبيات التالية فقد كتبت في عام (1768).

**يا ترى ذنب من؟ من أين صدر؟**

**إنها ثمرة فؤادي كل الذي حصل.**

تذكرنا هذه بأبيات أخرى يقول فيها:

**الإنسان عديم التجارب يندم كثيراً.**

ذهـــب صياد نوفا ضحية مكيدة فظيعة إذ تحول من عاشق محب إلى ناسك متعـــبد. انتقل من القصر الملكي إلى دير في قرية متواضعة. فقد تنبأ الشاعر بهذا الحدث وهو يقول لحبيبته من خلال الأبيات التالية:

**ماذا أعمل بمال الدنيا من دونك**

**ألبس عباءة من الشَّعر، من الخام**

**أمضي تائهاً من دير إلى دير.**

كذلك لم يخطر في بال صياد نوفا أنه سيفقد آلته الموسيقية الغالية.

من خلال قصيدته المشهورة التي كتبت عام (1759) يمدح فيها الكمنجة نجد:

**أنـــتِ بيـــن كـــل الآلات الموســـيقية أكثر مدحاً يا كمنجة**

**مـــن يســـتطيع ســـلبك منـــي أنـــت نغم الشاعر يا كمنجة**

**التمســـت الحضـــور قـــالوا يحـــيا عـــازفك**

**ما دام صياد نوفا على قيد الحياة سترين العجائب يا كمنجة**

لكـــنه عاش قرابة خمسة وثلاثين عاماً بعد كتابته لهذه الأبيات بدون الكمنجة الحبيبة فقد سلبت منه الكمنجة إلى الأبد.

لـــه قصـــيدة مشـــهورة من المحتمل أنها كتبت بعد ثلاثة أشهر من قصيدته السابقة.

وقـــد توصل فيها صياد نوفا إلى ذروة اليأس وتنبأ بحسّه المرهف المصيبة القادمة قائلاً:

الدنـــيا نـــافذة ضـــيقة　　تعبــت مـــن القـــناطر

**الـــناظر مـــنها يـــتألم　　تعبــت مــن الجروح**

**أمسي أفضل من يومي　　تعبــت مـــن القـــادم**

**مـــزاج المـــرء يتقلّـــب　　تعبــت مـــن الغـــناء**

**أرغب بالطيران كالبلبل　　تعبــت مـــن الحـــياة.**

كـــان لكاثوليكوس الجيورجي "أندون"دور هام في عزل صياد نوفا والقضاء على حياته الاجتماعية.

وهنا يقول صياد نوفا للكاثوليكوس:

**نيافة الكاثوليكوس**

**أقدم لك احترامي**

**يقولون أن جيوبك مليئة**

**فمن أين لك ذلك؟.**

**يبدو أن الحوار كان حاداً بينهما واتهام الكاثوليكوس واضح في الأبيات:**

**وجهوا الأسلحة القاتلة إلى صدري**

**إني أدعى بالصوفي**

**أنا الذي فقدت فؤادي**

**يا ترى كيف كان ذلك؟**

يقـال بأنه كانت لـه تصرفات مشبوهة وإنه كان يتسلل إلى مدينته المحببة تيفلـيس ليلاً لإقامة حفلات فيها. وقد عوقب من قبل المطران آنذاك وعزل أيضاً عـن الديـر مدة سنتين ثمَّ أعيد اعتباره. كانت الحياة تسري في دم صياد نوفا فلم يسـتطع الـتأقلم مع وضعه في الحياة الكهنوتية. وآخر أشعاره التي وصلت إلينا تقول:

**أنا صياد نوفا كاهن دير هاغباط**

**ليس لدي زيت لإضاءة قنديلي.**

هـاجم آغا الفارسي مدينة تيفليس ودمّرها في عشرين أيلول عام (1795). حسـب الأسـطورة كان صياد نوفا "الأب تافيت" هناك يدافع عن مدينته المحبوبة حاملاً السيف مع شعب تيفليس الباسل. ويعتقد أنه استشهد في المعركة وهدر دمه مـن أجـل حـرية شـعبه ومدينته وقدّم لنا صورة لا تنسى عن روح التضحية والإنسانية.

قال الشاعر الكبير هوفهانيس تومنيان عن صياد نوفا في ذكرى إعادة إعمار قبره الذي تمَّ بجهوده ومشاركة الجالية الأرمنية في تيفليس بعد مئة عام من وفاته:

**جـاء بالأشـعار**

**ذهب بالآهات صياد نوفا**

**جـاء بأغنـية**

**ذهـب بجرح صياد نوفا**

**جـاء بالحـب**

**ذهب بالسيف صياد نوفا**

**بقـي بالحـب**

**صـياد نوفـا**

□□

# الشاعر نرسيس شنورهالي

■بقلم: سربوهي هايرابيديان ■

■ ترجمة: نزار خليلي ■

*تـرك الآلاف من الأرمن في القرن الحادي عشر وطنهم الأم أرمينية هرباً من المشاكل العديدة التي كانوا يعانون منها. ولجؤوا إلى مملكة كيليكيا المستقرة ليعيشوا بسلام في ظل الكرسي البابوي الذي انتقل إليها للسبب ذاته، طلباً للعيش الهنـي بعـد مـا ذاقوه من العسف الطبقي والتعصب الديني اللذين شلا الحركة الفكرية والاقتصادية.*

ودأب اللاجئون حين انتقلوا إلى كيليكيا على بناء الكنائس والأديرة والمدارس فـي أهم المدن مثل: روم كلا –ترانازكي –سكيفرا –لامبرون ودارسون استمراراً لحياة يئسوا من أن تكون سعيدة.

ووجـدوا فـي موطنهم الجديد بالفعل استقراراً وأماناً أطلق لقرائح مفكريهم العـنان لتسيح في أجواء الطبيعة الخلابة، يستوحون منها مواضيع أعمالهم الأدبية والفنية، فأبدع فلاسفتهم وشعراؤهم وفنانوهم، وقدموا أروع ما جادت به نفوسهم.

فـي ظـل ذلـك الاستقرار، وإلى جانب كل الروائع الثقافية، انتعش الشعر الأرمنـي الغنائـي، الذي طغت عليه اللغة الدينية في البداية، حين كانت المفاهيم الدينـية مسيطرة على الفكر الإنساني، ترفض كل ما عدا ذلك من الفنون وتعتبره خارجاً عن الدين مهما كانت الأحاسيس فيه سامية.

فـــي ظــل هــذه الظروف، برز شاعر شاب، تعرف على حضارتي الشرق والغـرب وتغـذى من بدائع الطبيعة وخرج عن المألوف وطلع على الناس بأبلغ التراتـيل الكنسية وأجملها التي ما زال بعضها سارياً حتى يومنا هذا إنه نرسيس شنورهالي.

ولد نرسيس شنورهالي عام 1102 في حصن (دزوفك) في مقاطعة (دلوك) الواقعـة شمال كيليكيا بين مدينتي خربوط وعنتاب في عائلة آبيراد بهلووني، من أسرة بهلووني النبيلة أصحاب الإمارة الحاكمة.

تيتم وهو في السنة الأولى من عمره مع أخيه الأكبر كريكوريس من الأبوين فكفلهمـا عمهمـا الكاثولـيكوس كـريكور فكاياسير. وبعد موته، عاشا في كنف الكاثولـيكوس بارسـيغ آنيتســي، الذي عهد بهما بدوره لتعليمهما وتربيتهما إلى الأسقف المشهور (ستيفان مانوك) في الدير الأحمر في كيليكيا.

في العام 1113، تولى أخوه كريكوريس، وهو في العشرين من العمر تقريباً كرســي الكاثوليكوســية خلفــاً للكاثوليكوس بارسيغ آنيتسي الذي توفي إثر نوبة قلبية مفاجئة.

على أن الظروف السياسية الطارئة لم تتركهما في نعيمهما بل أجبرتهما على الانتقال من الدير الأحمر إلى (روم كلا) أي (قلعة الروم).

بعــد إتمام دراسته، رسم نرسيس كاهناً على يد أخيه كريكوريس الذي لاحظ أن أخــاه رجــل الله، شــاعر بالفطــرة موهــوب، لذا حمله مسؤولية الإشراف على الكنيسة.

لــم يخيــب نرسيس نظرة أخيه إليه، بل راح يؤدي واجبه على أكمل وجه، فرتب مواعيد الطقوس الدينية وزودها من شعره بتراتيل وصلوات ما زال بعضها كما ذكرنا آنفاً سارياً حتى اليوم.

فــي العــام 1164 استقال أخوه كريكوريس من منصبه الكاثوليكوسي بسبب كبر سنه ومرضه، بعدما رسم نرسيس خلفاً له. وبعد ثلاثة أشهر توفاه الله ليستريح إلى جانبه. وتولى نرسيس زمام أمور الأمة الأرمنية الممزقة المدمرة وراح يعمل بجــد لإصــلاح مــا يمكن إصلاحه سياسياً واجتماعياً ودينياً. لكن انشغاله بأعباء

الكنيسة لم يمنعه من الاهتمام بالأدب شعراً ونثراً حتى وفاته عام 1173 عن 71 عاماً من العمر.

حمل نرسيس لقب شنورهالي (الوديع) لما عرف عنه من دماثة في الخلق والوقار. وفوق كل هذا كان متعدد المواهب: فهو خطيب وسياسي محنك، ومرب فاضل، وشاعر عبقري، وناثر مجيد وملحن موسيقي. إلى غير ذلك من الأمور التي جذبت الناس إليه وجعلته قبلة أنظارهم، فراحوا يطلقون عليه ألقاباً مشرفة مثل: (الحكيم) (المنور المثالي) (الكاهن العالمي) (النور المضيء) وغيرها. ولم يكن ليحظى بكل هذا التقدير لو لم تؤهله مواهبه الفطرية الشاملة المواكبة للثقافات العالمية التي صقلها له كل من العالمين الفاضلين هوانيس ساركافاك وكريكور ماكيسدروس مع آريسداكيس لاسديغيرتسي، ووضعوه على درب الأدب الأرمني الصحيح. سار نرسيس في هذا الدرب حاملاً مشعل الشعر الأرمني الذي بدأ بتطويره في القرن العاشر ووصل القرن الثاني عشر بفضله إلى موقعه العالمي.

على أن عبقرية شنورهالي في الشعر لم تقلل من شأنه في النثر، فهو ناثر في خطبه ومواعظه وبعض كتاباته التي اعتلت مكانة مرموقة من الأدب الأرمني.

نظم شنورهالي أشعاراً تتضمن أمثالاً ملغومة على شكل أحاج وحزازير، دخلت الأدب الأرمني كفرع جديد لم يكن معروفاً من قبل تحت عنوان (أمثال لتسلية الإنسان) صاغها بلغة شعبية دارجة أخذ مواضيعها من الحياة اليومية يهدف من ورائها إلى شحذ أذهان الناس وتسليتهم في آن واحد، ولقد ألف في هذا المضمار 300 مثل تنقسيم إلى قسمين: قسم ديني وقسم دنيوي. ولقد اقتبس مواضيع القسم الأول من العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس، رمزية في تركيبتها تجريدية في مضمونها. أما القسم الثاني فأخذ مواضيعه من الروايات الشعبية وعوالم الإنسان والحيوان والطبيعة. وهي شعبية لا بموضوع الأحاجي وحسب، بل بالصور والمفاهيم والأسلوب واللغة. علماً بأنه قدم أحاجي القسم الأول بلغة (الكرابار) بينما قدم الثانية باللغة العامية الدارجة.

نسرد على سبيل المثال أحجية تدور حول السماء تقول:

**الكنيسة عالية واسعة،**
**قائمة لا عمد ولا سند،**
**قناديلها ليست معلقة بحسد،**
**وضاءة من دون زيت.**

علـــى هذا النمط من هذه الرباعيات نجد الكثير الذي يشمل كل المخلوقات، معتـــبراً الإنســـان وحـــده معجـــزة الطبـــيعة، وما الدنيا سوى مضافة تستضيف المخلوقـــات ردحـــاً مـــن الزمن، تكرمها خلال فترة الضيافة، ثم تلفظها وتتركها عرضة للفناء والتلف:

**توجد على الأرض مضافة لعابري السبيل**
**ولكل من يؤمها من المخلوقات،**
**يؤمها الأغراب،**
**ويغادرها المعارف،**
**أما سدنتها والقائمون عليها،**
**فيكرمون الضيف إذا جاء،**
**ويسلبونه حاجته بين يروح،**
**هم لا يسرقون له بعض أشيائه،**
**بل ينهبونها كلها.**
**أما أحجيته عن الكتاب فمشوقة جداً:**
**هو دار مفتوحة كصفحة بيضاء**
**دخلته دجاجات سود**
**لتبيض بيضاً للأجيال**
**تتكلم بلسان الناطقين.**

نظـــم شـــنورهالي معظـــم أحاجيه على وزن 4*4 وهو يطابق بحر الرجز مســـ/تفـــ/عـــ/لـــن الذي يصلح للغناء، لذا لحنت أحاجيه وصارت تغنى في الاحتفالات والأعراس لإدخال البهجة إلى قلوب المحتفلين، وبذلك صار هذا النمط من الشعر واحداً من الأنماط الجديدة في الأدب الأرمني.

كذلـــك، وبهدف التعليم، وبناء على طلب من الطبيب الأرمني الكبير مخيتار

هيراتسي عام 1162 نظم أرجوزة (السماء وزينتها) التي تتحدث عن الأجسام الفضائية وطبيعتها وحركاتها، لكن الأرجوزة لم تنجح في الوصول إلى هدفها ولم تحظ بقيمة تذكر.

من الأعمال التاريخية الروائية الشعرية، رواية (الرواية) التي تتحدث عن تاريخ الأمة الأرمنية اقتبسها من كتاب (تاريخ الأرمن) للمؤرخ العظيم موسيس خوريناتسي، ورواية (رثاء يتيسيا) كان فيهما الرائد في ميدان القصص التاريخي المنظوم. وقد نالتا إعجاب النقاد والمدققين لأنهما نظمتا بأسلوب جذاب على الرغم من فقر القافية وضعف التركيب.

تعد ملحمة (رثاء يتيسيا) من أبدع أعمال شنورهالي بل هي تشكل زينة الشعر الأرمني في القرون الوسطى لما ترويه من أحداث محزنة شملت تدمير يتيسيا في أرض الرافدين.

تتألف الملحمة من 2096 بيتاً من الشعر تنقسم إلى أربعة أقسام:

المقدمة –حصار المدينة –إبادة أهلها وتدميرها –استنزال اللعنات على الأعداء والتطلع إلى المستقبل.

استعمل المؤلف في ملحمته أسلوب التشخيص في الرواية، وهو أسلوب جديد على ذلك العصر، إذ شخص مدينة يتيسيا، بامرأة ثكلى فقدت بنيها وراحت تنوح عليهم. وما من مواس وما من معبر عن الأسى والأسف، وما في الميدان غير المرأة الثكلى يتيسيا تبكي وتتوجه إلى شعوب العالم وإلى المسيحيين وإلى الكنائس والبلاد ذات النفوذ كالقدس والإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية، تطلب الرحمة، من دون أن تسمع صدى صوتها:

**ابكوا، ابكوا، بصوت عال**
**نوحوا علي بحرقة**
**أنا يتيسيا، مدينة أورها**
**فقدت رجالها، وخلفت أيتاماً وأرامل**
**أناديكم بصوتي النسائي**
**أعول وأسترحم**

مسقطة وشاحي عن رأسي
كاشفة عن زينتي المقدسة
مقطعة شعري العزيز
معفرة رأسي المشعث
ضاربة صدري بالحجر
ملطخة وجهي بالوحل
أجلس مع حزني في ظلمة الليل
هاربةً من ضوء النهار
وبدلاً من أقمطة الأطفال
أحمل بيدي منديلاً أسود، شعار الحزن
أذرف الدموع الغزيرة
مثل مياه نهر صاخبة جارفة
بعدما صرت زرية في البلاد
مفضوحةً بين العباد.

لا عجب بعد هذا من أن نرى جذور هموم الأمة تتغرس في فكر شنورهالي لتمتد من كيليكيا إلى أرمينية الكبرى يرثي ضياع مجدها وزوال ملكها ويحزن على معاناتها على مدى الدهور، وعلى وضعها الحالي المؤلم، فيتذكر الملك فاغارشاباد العظيم ويتذكر مدينة آني الموجوعة التي لا يختلف قدرها عن قدر يتيسيا بعدما تمزقت على دروب التاريخ، وخسرت بهاءها ورونقها وصارت أطلالاً خربة، فراح يسأل فاغارشاباد عن يتيسيا وعن بلاد الأرمن عموماً:

إني أتساءل أيها الجليل
وأرجو أن ترد على تساؤلي
أين هو عرشك الآن؟
أين هو تاجك وسراجك؟
عروس ابن الملك.
ماذا حل باحتفال العرس؟
أين هو الكرسي البابوي المقدس؟
أين الأساقفة في المحفل المقدس؟

أين الكهنة المواكبون؟
الذين يستعدون للمناولة؟
أين هو عطر البخور الفواح؟
أين تواريت أيها الجليل؟
يوم عيد الرب.
لقد ضاع عرش
مدينتك فاغارشاباد
وزال مجد الملك السابق.

وفـيما هو يتأثر ويحزن لما أوقعه هذا الصراع بين المتحاربين لا يرى فرقاً بيـنهم من القادمين للدفاع عنهم والقادمين للهجوم عليهم، لأن كل فريق يسعى إلى تدمـير ونهـب ما تصل إليه يده غير عابئ بالمآسي التي يخلفها، ومن خلال هذا الحزن يتذكر محاسن المدينة الطبيعية بإحساس شاعر مرهف ويقول:

منها، ينبع ماء الحياة،
لينبت غرس الزهر البديع،
فيجري مثل نهر وديع،
يروي البساتين الجميلة،
فيفور في داخلي بحر عظيم،
يضحك للنسيم العليل،
ويغسل أدران الوحل،
ويزين الساحات الواسعة،
فينبت غرس مختلف الألوان،
كمثل ما في جنة عدن،
فتتكاثف أوراق الشجر،
وتعطي ثماراً شهية،
وتتمايل أغصانها تحت ثقلها بدلال،
لتفوح منها رائحة الخلود.

في نهاية الملحمة يستنزل اللعنة على رأس العدو ويطالب بالانتقام من الجلاد ومعاقبته على عمله، فيقول مخاطباً يتيسيا:

لقد أفلت شمسك بالسيف،
وتيبس زرعك النضير،
وتقطعت أوصال حياتك،
التي وضعت أملك فيها،
فضعت وضاع معك
الآلاف وتشردوا
تشردوا وراحوا يتسولون،
وأخرجوا من ديارهم مهجرين،
وبدلاً من أن أتنعم،
وينعم أبنائي بثرواتهم
جاء الأعداء ونهبوها.

بعـد هذا يخاطب أبناء يتيسيا على لسان يتيسيا نفسها، يؤنبهم ويعدهم بأكاليل في السماء خالد:

أما أنتم يا أبنائي الأحياء،
فلستم أمواتاً وإنما أحياء،
لأنكم آمنتم بالأرض،
فكللتم إلى السماء

□□

# من أعلام الشعر الأرمني الحديث

■ بقلم: كتاب أرمن ■

■ ترجمة: نبيل المجلّي ■

*هوفهانـــيس تومانـــيان hovhannes Toumanian شاعر وناشر أرمني. ولـــد في قرية تسيغ وتسمى حالياً" منطقة تومانيان" وتوفي في موسكو . استقر فـــي تبليســـي مـــنذ عـــام 1883 حيث عمل في مجال الأدب . بدأ إبداعه بكتابة القصائد الوطنية إلى جانب الأغاني الشعبية.*

*اشتهر تومانيان الشاعر بعد أن ظهر ديوانه (panasdeghtzutiunner) "قصـــائد" ( 1890ـــ 1892) وخـــلال تلـــك الفـــترة كان يكتب أيضاً في عدد من الصحف الأدبية*

لقــد أضحى تصوير حياة الناس والرغبات الوطنية والاجتماعية من أولويات الأدب الأرمنيّ في نهاية القرن. وقد جسد تومانيان ذلك بشكل جيد . فقد كان يرى أن الأدب الشـــعبي الحقيقـــي يجـــب أن يتضـــمن الروح الوطنية والألم والسعادة والعادات والأحاسيس . كان توماتيان يصور في قصائده الصادرة في عام 1980 الصراع النفسي / الاجتماعي للريف الأرمني. في هذه الفترة ، طور إبداعه على نهـــج الواقعية ، إلا أننا نلمس تأثيرات الرومانسية في قصائد الشاعر الشاب ويبدو ذلـــك جلـــياً فـــي قصـــائد (alek) أليك "و (merjatz Orenk) "قانون الرفض" و(anoush)"أنوش" حيث يتسم أبطاله غالباً باستثناءات رومانسية . وصلت أعمال تومانـــيان إلـــى قمـــة النضج في الواقعية والشعبية في السنوات الأولى من القرن

العشرين . وفي أعوام 1901ـ1903 أعاد كتابة (loretsi sako) "ساكو اللوري" و(anoush) "أنـوش" مصـورا الحـياة الريفـية الأرمنـية بتقاليدها وتناقضاتها الاجتماعية. وتعتبر " أنوش " من أهم القصائد التي تتبوأ مكانه مرموقة في الأدب الأرمني ، ومنها استلهمت أوبرا أنوش عام 1912.

يـبرز اسـم تومانـيان قبل كلّ شيء بوصفه شاعراً ملحمياً. ففي القصيدة الملحمية (poetn ou mousan) " الشاعر والملهم " يسخر من النظرة البرجوازية إلـى الإبـداع وعلاقة الشعر بالمجتمع . وفي العام 1902 نظم القصيدة الطويلة ( sasountsi tavite) "دافـيد الصاصـوني " والتـي تعتبر من افضل القصائد البطولية للشعب الأرمني.

لقـد أرسـى تومانيان مبدأ استعمال الحكاية الشعبية في الأدب الأرمني لأنها بـرأيه أسـاس الأدب، وبـناء علـيه كتب (AKHTAMAR) " أختمار " 1892 و(HSGAN) "العمـلاق " 1908 و (MI GATIL MEGHR) قطـرة العسل " 1909. وألـف أكـثر مـن عشرين حكاية شعبية أرمنية من أهمها( DERN OU TZARAN) " السـيد والخـادم" عـام 1908 و (KATSH NAZAR) "ناظار الشجاع" عام 1912. وتعتبر حكايات تومانيان من أفضل صفحات النثر في الأدب الأرمنـي الـذي اسـتقاه من الطبيعة والحياة الريفيين ومن أبرزها (GIGOR) "كيكور" 1907 وهي حكاية ولد ريفي في مدينة برجوازية.

مـن أروع كـتاباته فـي أدب الأطفال (CHOUNN OU GADOUN) "الكلـب والقطة " 1892 و(ANPAKHD VADJARANNER )" تجار غير محظوظين" 1899.

لفـت تومانـيان الأنظـار إليه فكان أهم شخصية أدبية في السنوات العشرين الأولى من القرن العشرين . وغدا مؤسسا للعديد من الجمعيات الأدبية والاجتماعية، وتـرأس العديـد من لجان مساعدة المهجرين والأيتام أثناء المجازر الأرمنية ، كما انتخب رئيساً لاتحاد الكتاب الأرمن من عام 1912 ـ وحتى عام 1921.

كتــب تومانيان المقالات النقدية في الشعر الأرمني وترجم أعمالاً كثيرة من الأدب الروسي لبوشكين وسواه من عمالقة الأدب و تجدر الإشارة إلى أن شعوب الاتحــاد الســوفييتي ومــنظمة اليونسكو احتفلت في عام 1969 بالذكرى المئوية لميلاده على نطاق عالمي.

بقــي أن نقول إن قصائده ترجمت إلى كثير من اللغات الحية ومنها العربية، وأطلــق اســمه علــى عدد من المدارس والشوارع في يريفان كما يوجد متحف خاص مكرس لآثاره . نختار من شعره ثلاث قصائد هي على التوالي:

## رباعيات

رأيت كثيراً من الحزن ، وكثيراً من الشرور،
ورغم هذا فإن روحي ما تزال مشرقة.
إيه يا نور روحي ، أنت وحدك تنير
دربي الذي يمتد تحت قدميّ

• • •

من هناك وبأيدي كثير من الأغصان
يلوح لي ، كي أعود سريعاً
أعرف: أنك تنادينني ،
يا غابات ويا غياض وطني !

• • •

جرحتُ طيراً ، فعلت شراً
ومع أنها مضت سنوات ليست بالقليلة منذ ذلك
فأنا لا أزال أحلم بهذا الطير
وجناحه الملطخ بالدّم

• • •

أضحى العالم أكثر تقدماً :
أصبح قاتلاً فقط آكل لحوم البشر السابق ،
إنه ــ نصف حيوان، ولكي يصير إنساناً
فإنه بحاجة إلى ما لا يقل عن مليون سنة أخرى

### الدعاء القديم

هناك ، تحت شجرة جوز ، منتشرة الأوراق ،
جلس الشيوخ القرفصاء، كلّ حسب قدره
في دائرة ملتزمين بالتقاليد،
يضحكون ، ويشربون
ويمزحون،
كان أهل القرية ــ آباؤنا وأجدادنا
يطلقون الأحاديث الطويلة مع الكؤوس

• • •

وثلاثة من تلاميذ المدرسة ، كنا نقف إلى جانبهم،
وقد نزعنا قبعاتنا، وغضضنا من طرفنا،
وواضعين أيدينا على صدورنا أدباً
وبأصوات جهورية
كنا نحن ــ ثلاثة أقران ــ
نسليهم بأغانينا

• • •

وها قدْ انتهينا . عندها،
وقف عريف الحفل فاتلاً شاربيه

وبعده كلّ الباقين ،
رافعين الكؤوس الملأى .
قالوا لنا وهم يباركوننا:
"عيشوا يا أولادنا ، لكن ليس كما عشنا"

* * *

مرت سنون ن ورحل أولئك الناس...
أغانيّ القديمة حزينة ...
تذكرت ، ساقياً الحاضر بدموعي،
لمَ يومها ، كانوا يدعون لنا،
ويقولون : "عيشوا ، يا أولادنا، لكن ليس كما عشنا...

* * *

آه يا أجدادنا ! يالكم من مساكين ! سلام عليكم!
كلّ مصائبكم حلت بنا،
والآن، في استقبال ساعة الأسى أو الفرح،
ندعو لأولادنا في طريقهم،
نقول كلماتكم:
"عيشوا ، يا أولادنا ، لكن ليس كما عشنا

* * *

## في الجبال الأرمنية

دربنا ما كان سهلاً ، دربنا كان ظلاماً
نحن كنا فيه نحيا
عبر المصاعب والظلام

نمضي إلى الذرا، كي نتنفس بحرية
في الجبال الأرمنية،
في الجبال القاسية.

* * *

منذ أمد بعيد ونحن نحمل كنزنا،
الذي ولد في الروح العميقة،
روح الشعب في درب البقاء،
في الجبال الأرمنية،
في الجبال العالية.

* * *

كانت تنقض علينا من الصحاري الملتهبة
عصابة إثر عصابة،
تفجع بالمصيبة،
قافلتنا الممزقة غير مرة
في الجبال الأرمنية،
في الجبال المضخمة بالدم.

* * *

كانت قافلتنا منهوبة ومحطمة
وخاوية الوفاض بين الصخور
تبحث عن الطريق،
تحسب ندوب الجراح التي لا تعد ولا تحصى،

في الجبال الأرمنية،

*في الجبال الحزينة.*

* * *

وعيوننا تنظر بحزن

على الأرض في الظلام

إلى النجوم البعيدة :

آه قريباً يحل الصباح ويبرق الفجر

في الجبال الأرمنية،

في الجبال الخضراء

* * *

## أفيتيك إساهاكيان ( 1875. 1957)

وهــو شــاعر وناثر أرمني ولد في لينيناغان ، وعمل في عدد من المجلات والصــحف الأدبية . تابع دراساته العليا في جامعات زيوريخ بألمانيا . عاش فترة طويلة من حياته موزعة بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

كان موضوع الحب من المواضيع الأساسية التي شغلت إساهاكيان وبات من أهم المواضيع في شعره

عــايش الشــاعر مشــاكل الحــياة اليومية وعاين تقلبات الأزمان في حقبة تاريخــية/ اجتماعــية صعبة. وكتب في بداياته: "كلّ ليلة في حديقتي" و"أعطيك روحي ، أعطني روحك " وتعتبر قصيدة " أبو العلاء المعري " 1909ـ1911 من أكبر إنجازاته في مجال الشعر.

اســتمد مواضــيع ملاحمــه من تراث الشعوب في الشرق والغرب: "الحب الأبدي" 1919، "قلب الأم" 1919و"ليليت"1921..

كتب إساهاكيان قصائد ذات طابع سياسي تعظم الشعوب السوفيتية مثل "أغنية الشعب" 1943 و"يوم الانتصار الكبير "1945" حيث مجد انتصار الشعوب السوفيتية وشهداءها.

تعد مذكراته ومقالاته الأدبية والنقدية مرجعاً أدبياً ذا أهمية كبيرة لدى الأدب الأرمني الحديث.

توفي أفيتيك إساهاكيان في يريفان. من قصائده:

**أسمع في حديقتي ليلاً**

تبكي لديّ في البستان
ليلاً شجرة الصفصاف
وهي بلا مواساة،
صفصافتي الصغيرة ، صفصافتي الحزينة .

• • •

سينبلج الصباح الباكر—
وستمسح الفتاة الحنونة التي هي الفجر
دموع الصفصافة التي تبكي بكاءً مريراً ،
بغدائر شعرها .

• • •

مؤرخونا وشعراؤنا الجوّالون

**1**

في الصوامع المعتمة المنعزلة ، وجدران المعبد الصمّاء،
ينحني المؤرخون كمداً، أمام مصابيحهم

بلا نوم ، في الليالي ، يزدردون الخبز العفن بالماء ،ـــ
ويكتبون سير الأحداث على لفافة الورق الأصفر الجاف:
هجوم العصابات المدمّى ، مصائب الحرب
وانتقام الأعداء القاسي ، انهيار وطننا الغالي .
كانوا يبكون " هاياسدان " وحظها القاسي
وكانوا يؤمنون بلا كلل ، بأن الله سيستجيب لدعائهم.

2

وفي أكواخ القرى الصغيرة ، لدى المواقد أمام النار،
كان شعراؤنا يغنون أغاني يزدردونها بالخمر
وبالأغاني يمجدون الانتصارات ن وينشدون أناشيد الأبطال ،
ويتنبؤون للأعداء بالمصائب والهزيمة والعار.
في حكاياتهم عن القتال المدمّر كان الشعب الذي لا يموت،
كانوا يوصوننا بأن ننقل المجد من جيل إلى جيل،
ولقد استطاعوا أن يصونوا الروح الحرة من أجل سعادة حياتنا
وباستعداد كانوا يحملون السيف البّراق كرمي للوطن.

## تشارينتس يغيشة (1897ـ 1937)

اسمه الحقيقي يغيشة صوغو مونيان تشارينتس YEGHISHE TSHARENTS SOGHOMONIAN شـاعر وناقد وناثر ومترجم أرمني بارز . ولد في مدينة قـارص فـي أرمينـيا الغربية وتلقى تعليمه الابتدائي فيها وفيها كانت محاولاته الشـعرية الأولى. سافر عام 1916 إلى موسكو حيث غذت أجواء موسكو الثورية تكوينة الثوري ، فالتحق بالجيش الروسي ثم عاد إلى أرمينيا أواخر عام 1919.

بـدأ منهجه في الشعر متأثر بالرمزية المتأصلة لدى الأرمن . كتب مجموعته الشـعرية " DESILAJAMER" (سـاعات رؤيـة ) 1915 و(TZIATZAN)" قوس قزح" 1917 ، حيث تطرق إلى موضوع معاناة الإنسان باحثاً عن المثالية في الحـياة . كـان الشـعراء الأرمن في فترة 1910 وما بعدها يلجؤون إلى الأساطير والـرؤى لـيجدوا فـيها حلاً لمعضلة الوجود الأرمني ، وكتعبير عن ذلك ظهرت القصـيدة الغنائية المسّماة (GABOUDATSHYA HAYRENIK) "وطن ذو عـيون زرق " 1915 في تبليسي TIFLIS، حيث نسج فيها تشارينتس حلم أرمينيا المستقبلي إلى جانب صورة الوطن المدمّر ومصيره التاريخي وحياة الفرد الإبداعية.

لـم يكـن بإمكـان تشـارينتس الوقوف في إطار الإبداع فقط أمام اللحظة المصرية في تاريخ الأرمن ، بل شارك فعلياً في فرق التطوع على الجبهة 1915 ، فكـان شـاهد عيان على تجهيز ألوف الأرمن ومآسيهم وقد تسربت إلى شعره صـور معانـاة ومجـازر الشعب الأرمني وتجسدت في قصائد (VAHAKN) "فاهاكن" 1916 و(MAHVAN DESIL) رؤيا الموت 1922 و (Dantea gan arasbel) "أسـطورة دانتـيه" 1916 التـي نشرت في تبليسي. ومن الملاحظ أن شعره كان مفعما بالشكوك والحسرة والألم.

بـرع شـاعر الثورة تشاريتس في كتابة الشعر الملحمي وشعر البطولات ، فكتب ملحمة AMPOKHNERE KHELAKARVATZ "الجماهير المجنونة " 1919 والتـي يمجـد من خلالها الإرادة الثورية لدى الجماهير المناضلة والثائرة وسمو أهدافها.

أسـس تشارينتس مدرسة شعرية في الأدب الأرمني خاصة والسوفيتي عامة بمضمون ثوري جديد.

وصدرت عام 1926رواية (YERGIR NAYIRI) "بلاد نابيري " والمؤلفة من ثلاثة أجزاء . وتعد هذه الرواية الحجر الأساس لفن الكتابة الأرمنية.

وتعتبر من أكثر الروايات الأرمنية تعقيداً حيث يتناول تشارينتس أحداث احتلال قارص عام 1919 ، وقد استخدم مصير المدينة الأليم ليصف للعالم معاناة الشعب الأرمني.

وتعتبر قصيدة (YES IM ANOUSH HAYASDANI) "أحب في حلوتي أرمينيا". في مجموعته (DAGHRAN) "كتاب الأغاني " 1922 ، والتي نقدمها اليوم لقراء الآداب الأجنبية ، قمّة الشعر الوطني عند تشارينتس ، وهي مهداة إلى القيم الروحية لأرمينيا . إنها بمثابة وصية شعرية للحفاظ على مقدسات الوطن ، وما تزال تحظى بمكانة خاصة في الأدب الأرمني.

من الملاحظ أن مسحة من التشاؤم تطغى على قصائد تشارينتس . ومعلوم أنه أدخل أنواعاً جديدة من الشعر في الأدب الأرمني مثل الأنشودة والنصائح والنشيد. كما استخدم عدداً من المقاييس الفنية الشعرية الشرقية مثل الرباعيات والمخمّسات والبيت . وترجم الكثير من الآداب الأجنبية لأمثال غوتة وبوشكين وسواهما.

أطلق اسم تشارينتس على عدد كبير من الشوارع والمدارس في أرمينيا وسميت مدينة باسمه (TSHARENTSAVAN) "تشارينتس أفان " تخليداً لذكراه. وثمة أيضاً متحف خاص بأغراضه وأوراقه موجود في يريفان YEREVAN.وقد ترجمت مختارات من أعماله الشعرية إلى كثير من لغات العالم كالروسية والعربية وغيرها.

### أحب في حلوتي أرمينيا

أحب لسان أرمينيا ، الذي غذي بالشمس ،

أحب تنهدات قيثاراتها القديمة ونغماتها الشجية وشكاتها المريرة ،

أحب زهورها الملتهبة وشذاها المسكر،

أحب رقصات الغانيات ، وسحرهن ورشاقتهن،

أحب سماءها الزرقاء الغامقة ن وبحيراتها الرقراقة ، وصفاء مياهها
شمس صيفها ، عواصفها الشتائية الجبلية المرعدة،
أكواخها المظلمة الكئيبة ، وجدرانها التي سخَمها الدخان،
أحب مدنها الحجرية المعمرة مدنها الدائمة الشباب.

أينما كنت ، فلن أنسى أغانيها الحزينة،
ولا كتبها المزينة بالذهب والتي توقظ القلب للصلاة.
هي تنزف ، وأنا أنزف أيضاً ، جراحها جراحي،
لكلّ معاناتها ، أرضي اليتيمة ، أحبها .

ليس لقلبي المفعم بالحزن في الحياة سوى أمنية.
وليس ثمة في العالم من هو أسطع ذكاء من كوتشاك، وناريكاتسي
طف العالم ، فلن تجد كالقمم التي وخطها الشيب من أرارات.
كم أحب طريق المجد الصعب، جبل "ماسيس "!

□□

**هوامش:**

1 ـ هاياسدان: أرمينيا

2 ـ كوتشاك وناريكاتسي : شاعران أرمنيان معروفان من شعراء القرون الوسطى.

3 ـ ماسيس : اسم موضع مرتفع في جبال أرمينيا .

# المسرح

- من الأدب الأرمني الساخر

....... المسرحي والقاص: هاكوب بارونيان .......... ت. نورا أريسيان

- الأديب والمسرحي ليون شانط

.............................................. بقلم: خاتشيك أرسلانيان

- مسرحية رعاة ماسيس

...... بقلم: بيدروس توريان ........ ت. هدى انتيبا ووارطان درمنجيان

# من الأدب الأرمني الساخر

## هاكوب بارونيان (1843– 1891)

■ ترجمة: نورا أريسيان ■

*لو لم يملك هاكوب بارونيان ذلك الأرق للنفاذ إلى أعماق الظواهر الصارخة في القيم الاجتماعية والسياسية والدينية لما أبدع كل تلك السخرية. وأفضل وصف للفترة التي عاشها الكاتب الساخر الكبير في القرن التاسع عشر هو الذي جاء بعبارته (الفترة حيث وُضِعت الحقيقة في القبر).*

يعتبر هاكوب بارونيان (1843- 1891) رائد الأدب الأرمني الساخر، وأحد وجوه الأدب الكلاسيكي في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر.

لقد أسس النثر والمسرح الواقعي في الأدب الأرمني الغربي، ونشير إلى وجود أدب أرمني شرقي في أرمينيا وأدب أرمني غربي لدى الأرمن في المهجر.

دخل بارونيان عالم الأدب مسرحي وتطورت موهبته في المجال الصحفي، وأخذ ينشر مقالات ذات طابع ساخر كأصداء للحياة الاجتماعية والوطنية ويفضح سياسة المصلحة.

لم يعط هاكوب بارونيان بكتاباته وإبداعاته دفعاً للحركة الأدبية في تلك الفترة فقط بل لتطور الفكر أيضاً كأحد ممثلي تيار الفكر الديموقراطي. لقد أبدع بارونيان كتابات على مستوى رفيع في النثر الساخر والمسرح، إلى حد أنها أثرت على تطور الفكر الفني لدى الشعب الأرمني.

يتميز المستوى الفني في الإبداع لديه في الدرجة الأولى بأنه يرصد بصدق وعمق أحداثاً تتصف بها الحياة الأرمنية اجتماعياً وسياسياً في فترة 1870-1880. وهكذا استطاع بارونيان أن ينفذ وبشكل مدهش إلى صميم ظواهر الحياة الاجتماعية والسياسية سواء لدى الأرمن أو غيرهم في العالم، ويبيّن الجوانب الساخرة والهزلية من الحقيقة في صور معينة، فذلك هو أساس سخريته.

ولد بارونيان في القسم الأوروبي من تركيا في مدينة أدرنة عام 1843. كان يتقن عدا عن الأرمنية اللغة الفرنسية واليونانية ممًا أتاح له الفرصة للتعرف على المسرح الفرنسي واليوناني.

انتقل إلى القسطنطينية عام 1863 وعمل في مجالات مختلفة كموظف بريد وأستاذ وممثل. واحتك بالمثقفين وأصحاب القلم في جريدة (النحلة). ثمَّ بدأ حياته الأدبية بالمسرحيات، إذ كتب مسرحية (خادم واحد لمعلمين) لكنها لم تنشر، وفي عام 1868 أصدر المسرحية الساخرة (طبيب الأسنان الشرقي) حيث وضع بها أساس المسرح الأرمني الواقعي. وبعدها وضع بارونيان جل جهده في الأدب والصحافة فاستلم تحرير جريدة (النحلة).

أصدر دوريات ساخرة مثل (المسرح) و(السفسطائي) بعدما أقفلت (النحلة) حيث بدأ ينشر كتاباته فيها مثل (أعيان وطنيون) و(دفتر الأبله). وبعد إقفال جريدة (السفسطائي) الساخرة ساءت أحوال بارونيان وأصيب بداء السل وتوفي عام 1891.

لقد طرق بارونيان أنواعاً عديدة من الأجناس الأدبية. كانت غالبية كتاباته نثرية ولكن يمكننا القول أنه في طبيعته الإبداعية كاتب مسرحي بامتياز.

من الجدير ذكره أن كتاباته كانت غنية بالحدث والحوار النشيط المفاجئ حتّى وإن كانت مشاهد بسيطة أو قصصاً قصيرة. وبذلك، يتحول أغلب نثره إلى مسرحيات يمكن أن تقدم على المسرح، والجدير ذكره أنه تمَّ عرض أغلب أعماله على خشبة المسارح في أرمينيا وخارجها.

## الهجاء السياسي عند بارونيان

النوع الأساسي للسخرية لدى بارونيان هو الهجاء حيث يشكل مضمونه كافة الظواهر وخبايا الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الأرمني في ذلك الوقت. وقـد توجـه هجـاؤه إلـى الظلم الذي يقع على الجماهير المقهورة وإلى طغيان البورجوازية ونظام السلطان الوحشي وضد السياسة المخادعة للدول الغربية.

لقـد لفتَ بارونيان الأنظار في السبعينات بشعبيته ووطنيته، فقد ظهر بوعي عالٍ لقوة السخرية. وقد كتب في مقدمة عمله الشهير (دفتر الأبله): (أنا أيها السادة سأسْـخر ولست بحاجة إلى لحن أو بيانو كي أسخر...). هذه الأسطر موجهة ضد الرومانتيكـية الوطنية وتبيّن أن الساخر الكبير مستعد لإراقة الدماء من أجل خير المجـتمع، وأن سخريته لها طابع أصيل و مقاتل. كان بارونيان يرغب من صميم روحـه بـتحرير الشعب من استبداد السلطان. ويجب أن نعتبر أن الخدمة الكبيرة التي أسداها في هذه الفترة هي أن سخريته قدمت للشعب الحقائق والأحداث بواقعية عميقة، وكان يعمل من أجل التنبيه وتوعية الأفكار لكي لا تعقد آمال التحرر على وعود كاذبة من السلطان والأعيان الوطنيين.

حقـاً، لقـد كانت إحدى جوانب الهجاء الأساسية لدى بارونيان النقد اللاذع للأعيان الوطنيين أي ممثلي التيارات المحافظة الأرمنية.

إن الملاحظـات السـاخرة التـي كـان يـبديها بارونيان تحافظ على معناها ومصداقيتها حتّى يومنا هذا وتبيّن عباراته اللاذعة القيمة الفنية للهجاء السياسي لديه.

## الهجاء الاجتماعي

يعتبر إطار الحياة الاجتماعية الواسع أحد أبرز القيم للسخرية لدى بارونيان. لقـد طرح إلى جانب المسائل السياسية العديد من المسائل المتعلقة بظواهر الحياة الاجتماعية وقد نجح برسم الوجوه الفنية لكافة الفئات الاجتماعية في تلك الفترة.

مـن العبارات المعروفة في عمله (نزهة في أحياء استنبول) الذي يصف فيه حـي الأغنـياء: (يحـدّه من الشرق الولع بالقمار ومن الغرب حب التبرج ومن الجنوب الإسراف ومن الشمال الخداع).

لقــد احتل موضوع الجوانب السلبية من الحياة الأخلاقية في المجتمع آنذاك حـيّزاً كبـيراً فـي إبداعـات بارونيان. إنه ينتقد بشدة الطبائع المتجذرة في حياة الأغنـياء والطبقة الوسطى مثل الآداب المزورة الباطلة والولع بالموضة والتبرج التي بدأت تتفشى وتسيء إلى سلوكيات طبقة الفقراء. كان الكاتب الساخر يرى في التعابـير السـلبية للحـياة مصيبة اجتماعية كبيرة لأنه ونتيجة لذلك يصبح العالم النفسـي للنسـاء فقـيراً ويـنقطع عـن الحياة الاجتماعية ليفكرن فقط بجمالهن والتبرج والزينة.

الهجاء لدى بارونيان غني بنقد رجال الدين، فهو لا يرى أي نفع من عملهم ويقول إنهم كانوا ينفعون مجتمعهم بكلامهم أمّا الآن فببطونهم.

تعتـبر (المتسولون الشرفاء) والمسرحية الساخرة (الأخ باغداسار) من أبرز أعمال بارونيان في الهجاء الاجتماعي أو بشكل أعم الساخر.

الإحســاس بالآنية قوي لدى بارونيان. فهو أول من يلاحظ الظواهر الجديدة في الحياة ويكتب عن صداها في أعماله. فتعتبر أعماله المسرحية التعبير الواضح عــن بصيرته. أتى هذا الكاتب الثاقب النظر بنفس جديد إلى المسرح. إن مسرحية (الأخ باغداســار) تعتبر جوهرة ليس فقط بالنسبة للأدب الأرمني إذ أنها نوع فريد في الجنس الأدبي في الأدب العالمي.

يحمل بارونيان في داخله حكمة الشعب وروحه النبيلة. وبقناعته (أنه لا يوجد فــي العالم شيء ساخر أكثر من السخرية التي تنقصها العدالة). كان ينتقد الكتّاب الذيــن يســعون إلــى تغطية فقر المضمون بجمالية الشكل الخارجي ويقول: (إن البســاطة والصدق تمثلان جمالاً نبحث عنهما قبل كل شيء). لقد خرجت أعمال بارونيان من الإطار القومي ودخلت إطار كنوز القيم في الأدب العالمي.

إن بارونــيان كاتــب خالد ومبدع. وقد أدرك عظمته فقال مرّة: (أيّها الموت أنت لم تستطع دحري وإماتتي. هاهو اسمي خالد في البلاد. هاهم يتحدثون عني... ويحكون...)

## أعماله وعالم أفكاره

كان قلمه غزيراً فقد كتب العديد من المسرحيات نذكر منها: (طبيب الأسنان الشرقي) (1868) حيث ينتقد الزواج المبني على المصالح. فيتزوج طبيب الأسنان الشـاب مـن سيدة عمرها 60 سنة طمعاً بمالها. والمسرحية الهزلية (خادم واحد لمعلمين) حيث يسخر من تاجرين غنيين يشغلان معاً خادماً واحداً.

وفـي مسـرحية (المـتملّق) يسـخر من الطبائع والأخلاق العائلية للطبقة الـبرجوازية في استنبول. وتعتبر (الأخ باغداسار) من أقوى أعماله حيث يتناول صـورة مـن عـدم الوفـاء العائلي. وباغداسار رجل ساذج وهو ضحية زوجته وعشيقها ودسائس أعضاء مجلس القضاء.

أمّـا (ضـريبة اللباقة) التي كتبها عام 1886 في استنبول، فهي عبارة عن قصـص مسـرحية سـاخرة، شخصياتها ضحايا الغش، وهم محكومون بالقواعد الـزائفة لـلأدب واللـباقة. وقـد تناول برؤية ساخرة نماذج مختلفة من المجتمع كالـثرثار والساذج والوطني والدخيل والإنسان السوي، فتارة يسخر من العلاقات الزوجـية وتسلّط الزوجة وتارة أخرى يفضح العلاقة بين التاجر والزبون وطرق الغش التي يتّبعها التجار.

تولـد مـن صـفحات بارونيان الأفكار التالية التي كان يطرحها في أعماله وبقيت قريبة من روح الكاتب الساخر:

ـ الحرية: كان بارونيان يناضل من أجل الحرية وضد وسائل التقييد.

ـ موقفـه مـن الطبقات الاجتماعية: بارونيان دائماً مع الطبقة المتواضعة والمقهـورة بشـكل صريح، ويندد بأخلاقيات الأغنياء الفاسدة. على الرغم من أنه كان يوضح سلبيات الناس فقد كان يقدر صدقهم وروحهم البسيطة.

ـ العائلة والزوجة: كان بارونيان حريصاً على قدسية الحياة العائلية. فالحب الطاهر والزواج المبني على أساس جيد هما كنزان لا يمكن تعويضهما. فهو يدافع عن الاحترام المتبادل بين الزوجين.

ـ الديـن ورجـال الدين: تناول بارونيان في مواضيعه نقائص رجال الدين والتفكير الضيّق. إلا أنه ثمّن رجال الدين الذين يكرسون أنفسهم من أجل العالم.

ـ الوطـــن: يظهـــر بارونيان خلف سخريته حساً عالياً بالوطنية ويقف إلى جانب الأرمني الذي هضم حقه.

## الخصائص الأدبية

تمحـــورت مواضيع بارونيان حول الطبقات الاجتماعية للأرمن في استنبول والمواضـــيع الاجتماعـــية والوطنـــية وحتى السياسية. إنه يسخر من الميالين إلى الغـــرب والأجانب. فنجد لدى بارونيان قيم الإنسان الصادق والجريء، فقد ناضل دائماً من أجل المُثل العليا الجميلة.

فيكتب في مقدمة (أضحوكة) التي تدور أحداثها حول الحياة الوطنية والفكرية والعلاقـــات الدولـــية من خلال شخصياتها وهي ليست أناساً بل حيوانات، كالقطة والضـــفدع والذئـــب والنمل: "أنا أصنع كل هذا ومرشدي هو الصدق، الذي تبعته حتى الآن والذي يتبعني حتى اليوم...".

إنه الكاتب الساخر الذي يسيطر على الحياة الأدبية الأرمنية حتى اليوم. فهو أول من عبّر عن السخرية بأجناس أدبية مختلفة، كالقصة واليوميات والمسرحية وغيرها.

مـــن أعمالـــه الضـــخمة: (المتســـولون الشرفاء) 1882، و(نزهة في أحياء اســـتنبول) 1880، و(دفـــتر الأبله) 1880، و(أعيان وطنيون) 1874، ومسرحية (طبيـــب الأســـنان الشرقي) 1868، و(خادم ومعلمان) 1865، و(المتملق) و(الأخ باغداسار) 1886.

نشـــر بارونـــيان (دفتر الأبله) عام 1880 في القسطنطينية. وهو عبارة عن قصـــص قصيرة جداً وحوادث يومية قصيرة يرويها بارونيان على شكل يوميات، وتتضمن مقابلاته وأحاديثه مع الناس ووصفه لكل ما يدور حوله من حياة سياسية واجتماعية، لكن على طريقته الخاصة. وهو إذ يسخر وينتقد الحكومة والدبلوماسية الأوروبـــية. فقـــد كان هدفه كما كتب في المقدمة، أن يصحح السلبيات والنقائص بالسخرية منها. لقد دافع عن قضايا الضعفاء وتمرّد على الظواهر البالية والفاسدة إذ قال: "هناك أموات يجب قتلهم".

## دفتري اليومي

"أيهــا الســادة، لا تظــنوا وأنتم تقرؤون هذا العنوان أنني تاجر مفلس أقدم حســاباتي للعامــة. يشرفني أن أعلن أنني لم أكن تاجراً في حياتي ولا أرغب في ذلــك، لأنَّ ضميري لا يسمح لي ببيع البضاعة بقيمة ليرة ونصف لشخص غيري وقد اشتريتها بليرة واحدة.

قــررت أن يكــون لي دفتري اليومي دون أن أكون تاجراً، لكي أسجل فيه الأحــداث اليومــية، وأحــياناً وانطلاقاً من الأحداث أسخر من الجرائد المعرضة للموت.

لتتشكل أنهر من دموع ذرفتها عيون هرقل، وليقدم الشعراء الوطنيون الفرات ودجلــة كعينــي أرمينيا ويشرعون بالبكاء، وليقم السيد شوخادجيان بتأليف ألحان تبكيهم. أمَّا أنا أيها السادة فسأسخر، ولست بحاجة إلى ألحان أو بيانو كي أسخر.

إن الــبكاء علــى الــنقائص قمّة النقائص. وإن ذرف الدمع على البؤس هو بــرهان علــى أننا لا نملك إهراق الدماء. فالدمع من اختصاص الأطفال والنساء، أرجوكم لا تقتربوا من اختصاصهم.

لا يمكــن أن تتصــوروا كم سأشعر بالبهجة والسرور عندما أنجح وأجعلكم تضحكون من الأحداث والأشخاص التي سأتناولها في دفتري اليومي.

عندما نسخر من الميالين إلى الرذائل يفترض أن نكون على طريق الفضيلة. وبهذا، بقدر ما أحصد من الضحكات يقل عدد الناس الميالين إلى الرذائل.

ويجــب أن لا ننسى تلك الفئة من الناس التي أقسمت ألا تضحك أبداً. فأنا لا أتعــاطى معهم، ذلك لأنَّ اغتصاب ابتسامة من شفاههم أصعب من الحصول على الإصــلاحات من الحكومة. وخاصة أنني لا أملك أية إعلانات ولا مشاورات ولا أســطول كــي أمــارس الضغط. ولكي تثقوا بالحياد الذي أتمتع به، أبيّن أنني في موقف لا يفرض علي التحيز.

المجــد للعــناية الإلهــية فأنا لا أملك أصدقاء كي أتحيّز. لكي لا تظنوا أني سأتحدث بغرائزية، معاذ الله... المجد للشيطان، ولا أملك حتّى أعداء. لا تندهشوا، أيها السادة، فأنا أعيش في هذا العالم كما تعيشون أنتم أحياناً على المسرح، أصبح

فقــط متفرجاً على العرض دون التدخل في شؤون الممثلين. بشكل عام، أنا أعيش بعيداً عن المجتمعات، وهذا هو سبب سعادتي.

ويدرج بارونيان تحت تواريخ مختلفة اليوميات التالية لتكون الكلمة الساخرة القوية والطيّعة في آن واحد.

.1.

عندما كانوا يأخذون سيدة أرمنية لدفنها، جلست فجأة في التابوت وطلبت ماء لتشرب. فأشارت جريدة (ماسيس) إلى الحادث بقولها: "هل يعقل أن يظن الإنسان الحي ميتاً في القرن التاسع عشر". وأنا أقول: "ولماذا إذاً وفي القرن التاسع عشر، يعتقد أن جريدة (ماسيس) حية وهي ميتة".

.2.

ــ كنت تقول يا أبي إن الاحمرار دليل على الخجل.

ــ نعــم، عــندما يخجــل الإنسان من فعلته ويحمر وجهه فهذا يدل على أنه فاضل.

ــ إذاً أمي فاضلة جداً.

ــ لماذا.

ــ لأنها تجعل وجهها أحمر كل صباح.

آه، أيتها الألوان، وهل أنت تغيّرين من معناك إلى هذا الحد.

.3.

يتزايد عدد الأطباء في مدينتي يوماً بعد يوم. حتّى أن لكل شخص طبيبين.

والحــق أن كثــيراً مــن الفقراء يموتون دون طبيب، ولكن كم من الأطباء يموتون دون مرضى.

## 4

ـ ألم تقدم الفحص يا بني

ـ نعم قدمته يا أبي.

ـ ألم يهد إليك أستاذك كتابا يوم توزيع الشهادات

ـ كلا يا أبي.

ـ ولماذا.

ـ لأنني أنا أيضاً لم أعط أستاذي شيئاً في عيد رأس السنة يا أبي.

## . 5 .

عقـد اليوم أيضاً اجتماع للنواب. وتغيب اليوم أيضاً العديد من النواب بسبب صـحي. وحضـر فقط من أصابه رشح خفيف. فالوصول إلى منصب في مجلس النواب له أساليبه، كشرب القهوة أو الشاي في البيوت.

ـ تفضلوا الشاي.

ـ شكراً، أنا لا أريد.

ـ أرجوك أن تقبل.

ـ تفضل أنت.

ـ وأنا أيضاً سأشرب.

ـ إذا شربت أنت، أقبل أنا أيضاً.

وأخيراً، يشرب الشاي.

## . 6 .

الـيوم اقتنعت أن المسرح مدرسة للأشخاص الكبار. لكن ماذا يدرس الكبار في تلك المدرسة. هنا تكمن المشكلة. فليصر الآخرون على أنهم يدرسون الأخلاق هـناك، وأنا أصر على أنه بالرغم من وجود درس الأخلاق لكن الطلاب يأخذون

درس تكوين الجسد حيث أن المشاهدين يركزون انتباههم أكثر على ذراعي الممثلة ورقبتها وساقيها أكثر من الكلمات التي ستلقيها، وعندما يجدون ذراعي الممثلة جميلتين يقولون:

ـ كان عرضاً رائعاً جداً...

مساكين هؤلاء المؤلفون... يظنون أن الجمهور يصفق لأعمالهم... بينما في أغلب الأحيان يصفق لمؤلِّف الممثلة...

## .7.

أرى اليوم أن الغذاء له تأثير كبير على أفكار الإنسان. فأنا أعرف شخصياً كان يقضي حياته قبل سنة على الخبز والجبنة، وكل يوم كان يتكلم عن المواضيع الوطنية ولكن الآن بالرغم من أنه يتغذى على اللحم فإنه يلوم من يتحدث عن المسائل الوطنية.

## .8.

ليست النساء فقط من يرغبن في تجديد ملابسهن، فهناك على الساحة نقاد يرغبون التحدث بشكل جديد.

أقدّم إليكم السيد كاتب آدوم الذي يشغل منصب ناقد لمنشورات (ماسيس) القديمة والحديثة. ذوقه رفيع، ويملك رأس المال المفروض على النقاد، ولكن في الكثير من الأحيان يسمعنا أحزانه أثناء نقده لكتاب ما.

وأحياناً عندما يتحدث، يقفز فيكتور هيغو في حديثه. وقبل إنهاء حديثه يدخل فولتير ولامارتين ومئات الكتّاب غيرهم في الحديث، فيضطر المستمع إلى أن يقول:

ـ إما أن تصمتوا جميعاً أو تتحدثوا واحداً واحداً كي نفهم.

فعلى سبيل المثال إن قلت: "استيقظت في الصباح، ووضعت ثيابي وأكلت الخبز".

أعط هذا السطر لآدوم وسترى أنه يقول لك السطر الآتي:

"اســتيقظت في الصباح، ووضعت ثيابي حيث تستعمل لتغطية عيوبي فقط، كما يقول جان جاك روسو، وأكلت الخبز، على الرغم من أن الكتاب المقدس يقول أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله".

لماذا تقاوم عكس اتجاه الفكرة، ولماذا تعذب القارئ يا آدوم، اذهب بطريقك الصحيح، ما الداعي كي تقوم مع كل خطوة بطرق باب الكتّاب الواحد تلو الآخر.

## .9.

عندما يكون الشيء جميلاً بطبيعته، يليق به كل ما تضيف عليه من زينة.

فعلــى ســبيل المثال، لغة الصحفي (شاهنور) في جريدة (صحافة الشرق)، جميلة ومزخرفة.

وأنـــا أيضـــاً حاولت يوماً ما أن أزخرف لغتي، لكن فيما بعد انتابني اليأس عندما رأيت امرأة بشعة ازدادت بشاعتها عندما تبرجت وزادت من زينتها.

لماذا تترك بعض الألسنة البشعة البساطة وتذهب نحو الزخرفة وتصبح أقبح.

متى سنتوقف عن قراءة مقالات فارغة من الكلام ومليئة بالزخرفة.

ألفت انتباه رؤساء التحرير لهذه النقطة.

قاموس صغير

الجسم: مُلك الأطباء.

اللباس: صفة تدل على حال الإنسان.

التبرع: تسول نبيل.

السوق: معمل الكذب.

الأمل: فن خداع الذات.

الثمالة: حماقة مؤقتة.

قِصَر القامة: اختصار للإنسان.

الخير: والدة نكران الجميل.

القبلة: فواصل منقوطة في قواعد الحب.

القرار: مرفأ يرمي فيه الفكر مرساته.

الرقص: احتضان رسمي.

الاحتضان: كلمة معقدة.

المسمار: حروف عطف للأبنية.

التاريخ: انظر خلفك كي ترى أمامك.

القبر: محطة لنفق يأخذك إلى العالم الآخر.

الحلم: سفرة للفكر دون بوصلة أو دفة.

الشتيمة: جدب للبراهين.

الصورة: متملق، يقول أنت جميل حتّى للأكثر بشاعة.

**الخاتمة**

سخر هاكوب بارونيان من الأغنياء أصحاب السيادة والتجار والأطباء الماديين والمفكرين المزورين ورجال الدين. إنه يكتب بلغة بسيطة، لغة الناس المحكية. وهو يعدّ علماً من أعلام الأدب الأرمني الساخر. ومع أن أعماله لم تأخذ فرصتها في الوسط الثقافي العربي، إلا أن سخرية بارونيان الخالدة جعلت أعماله لا منافس لها في السخرية السياسية والاجتماعية في المسرح.

تحمل أعماله الساخرة بصمة العبقرية. إنه ليس فقط أحد الوجوه السائدة في الأدب الساخر الأرمني بل والعالمي. ومن أكبر خصائص هاكوب بارونيان قدرته الاستثنائية على رؤية الحياة وتقديمها، فهو يشاهد ويصف. ولأنه يعتبر البكاء على سلبيات ونقائص الحياة ضعفاً، لذلك يفضل الضحك مقدماً الجوانب الساخرة. وكما يقول هو "فالحياة مسرح وهو المتفرج".

□□

# الأديب والمسرحي ليون شانط

# من الفلسفي والنفسي إلى التاريخي وبالعكس

■ بقلم: خاتشيك أرسلانيان ■

*قبل مائة عام على وجه التقريب، باستقبال منقطع النظير وبنجاح استثنائي وبتصفيق عاصف دخلت إلى الأدب الأرمني مسرحية "الآلهة القديمة" التي لفتت الانتباه في كل مكان من يريفان إلى تفليس حتى باكو وصولاً إلى اسطنبول وحتى الولايات الأرمنية البعيدة وقد فوجئت المجتمعات الأرمنية والمبدعون والمثقفون الأرمن بهذه الظاهرة التي كانت بمثابة معجزة في تلك الظروف فوجهوا أنظارهم إلى الأدب الأرمني عموماً والفن المسرحي خصوصاً.*

فقد نظمت أمسيات أدبية خاصة وتجمعات للجدل والنقاش والنقد والتقييم ومحاضرات وحوارات، وظهرت في الصحف والمجلات مقالات تسلط الضوء على المسرحية بجوانبها الأخلاقية والنفسية والفلسفية والاجتماعية والقومية. فالطبقات المثقفة والملتزمة كانت تشعر بالعجز إزاء التخلف الفكري والثقافي والأحداث والتطورات السياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بمعظم الطبقات الاجتماعية للشعب، وقد رأت في هذه المسرحية نقطة البداية لمرحلة سياسة واجتماعية وفكرية وثقافية جديدة والتي يمكن من خلالها التخلص من اليأس والإحباط والذل والتشاؤم فمسرحية "الآلهة القديمة" جاءت بهذه الرؤية إلى الحياة.

وهكــذا وبعد المسرحيات الواقعية للأديبين "شيرفانزادة" و"سوندوكيان" تظهر علــى الخشــبة مسرحية كانت مختلفة اختلافاً تاماً بالموضوع وبالعناصر والبناء والشخصيات وبالعوالم الخارجية والداخلية للشخصيات.

فالكاتــب وبعــبقرية مدهشة اخترق العوالم النفسية للناس حتى البسطاء منهم بتخــيلات إبداعية، وبنى مشاهد موضوعية كانت نابعة من خصائص وشكل تلقي الإنسان للواقع وهكذا أبدع المسرحية ذات النزوع الفلسفي.

"الآلهة القديمة" مسرحية مشاعر وأحاسيس نفسية ذات ظلال مرضية وغالباً مــا تعيش شخصياتها في أزمات وسلوك مغرق في الأحلام والشاعرية والمثاليات الطوباوية "إنها صفحة جديدة في المسرح الأرمني.

وبهذه المسرحية تبدأ قصة حياة ليون شانط الأدبية، حيث لم يكن له أن يسجل اسمه الذهبي في سجلات الأدباء لولا رائعته تلك.

بهــذه المســرحية وبكل مسرحياته عموماً يتبين أن شانط يستخدم المسرحية كوســيلة خارقــة للتنقيــب والإفصــاح عن التكوين الداخلي للإنسان، عن القدر المأســاوي فــي أشد الأوقات تأزماً وتحولاً في حياة الإنسان وباحتواء كامل وتام لخفايــا الــنفس وبانكسارات في الزمان والمكان المتناسبين للوصول إلى الحقائق الإنسانية.

فالمســرحية تذكــرنا بالمسرحيات التراجيدية لــ "اسخيليوس" و"سوفوكليس" التــي تقــدم الإنسان بنشأة إنسانية يسعى إلى أن يكون إلهاً، وتقدمه بتكوين رباني يسعى إلى أن يكون إنساناً وبتساؤلات عديدة محتملة وبرؤى شاملة وبشمس الوعي والمــنطق وبــرياح خفيفة من الغريزة والإلهام وبمعرفة عميقة للواقع المر، أنشأ شانط أسلوباً ومضموناً جديداً وفلسفة جديدة للمسرح.

أقــام الكاتــب مسرحياته على ثلاثة أعمدة (التمركز ــ الحركة ــ التبسيط) يقول شانط: (المرغوب والمؤثر بدون شك على الخشبة هو تمركز كلّ الأشعة في نقطة واحدة).

الرغــبة الأولــى (التمركز) في مسرحية "الآلهة القديمة" قائمة بالفكرة التي تعطــي أسباب لأحداث تجري قبل ألف عام. فالبطل في هذه المسرحية يتوق إلى

الربانية وعلى هذا الطريق الشاق يتعب من مواجهة القوانين والضغوطات النفسية والقـيود العديدة فيحلم ويتمنى الوصول إلى الحرية البدائية بدون قيود أو شروط، يعني الوصول إلى الآلهة القديمة.

هـذه المسرحية تعالج الانفصام والازدواجية والتناقض في نفس هذا الإنسان وشـانط يمـيز نوعيـن من الحركة في المسرح: داخلي وخارجي، هذا النوعان مرتـبطان بشـدة ببروز هذا أو ذاك على الآخر مع طغيان للداخلي أحياناً كما في "الآلهة القديمة".

ومـن الغـوص في النفس البشرية ينتقل شانط إلى دراما الحياة غير العادية حيـث مسـرحية القيصر تعبر بنا إلى الأحداث والحركة المتدفقة لتتمركز بمهارة داخل النص وعلى الخشبة.

القيصـر مسـرحية مـن العصور البيزنطية، كتبت عام 1914، بعد موت القيصـر رومان يتولى فوكاس الحكم في الإمبراطورية البيزنطية بتشجيع من قائد الجـيوش الشرقية الأرمني الأصل أوهان كوركين. يتزوج القيصر فوكاس الملكة الأرملـة تيوفانـي بنت الخمار، أي أنها آتية من أصول متواضعة متدنية منحطة، فهي فقيرة الروح ولكن مطامحها كبيرة إلى المال والشهرة والمجد وتريد أن تكون هي الحاكمة المطلقة مهما تعدد القياصرة على عرش بيزنطة.

وبتوليه الحكم يفقد القيصر فوكاس الاستقرار النفسي والإيمان بالذات ويعتريه الخـوف والشـك حـتى في أقرب المقربين منه وفي النهاية يذهب ضحية ضعفه النفسـي فيـبعد عن الحكم بالقتل ويتولى مقاليد الحكم أوهان كوركين قائد الجيش الذي كان مرغوباً ومحبوباً من كل الناس ولكن أوهان يحب فقط امرأة واحدة هي آنا وهنا تتمركز الحركات الداخلية والخارجية للدراما المسرحية.

يترقى أوهان المنتصر إلى المنصب بمجد عارم ولكن يفقد حبه وولعه بالحياة ويتحول إلى إنسان مرتبك وبائس.

يقـول القـائد: (الكل يتبعونني بإعجاب منقطع النظير ويباركونني لانتصاراتي الجريئة، أنا واقف فوق صخرة شاهقة وصخرة في داخلي. كل الأبطال تحت قدمي وكل شيء أيضاً، ولكن فجأة شاهدت أن انتصاراتي كانت وحشية وهزيلة وفارغة).

يسقط القائد ببعده عن الحب العفيف والطاهر لآنا إلى أسفل الدنيا، إلى العالم الأرضـــي، ويتذكر كلام فاسيل ليكابي: (الذين يعيشون برغبة في التسلط والهيمنة هـــم فقط الأناس السفليون الذين يعيشون في قاع الحياة). يسقط أوهان إلى الهاوية بفقدانه إلى الأبد الحب الحقيقي والرغبة في الوصول إلى القمم الحقيقية ويصل إلى قناعة "كل شيء فارغ وبدون معنى".

في عام 1921 يبدع ليون شانط عملاً فنياً كلاسيكياً آخر كتب له العيش إلى الأبـد. وزيّـن بأكالـيل المجد الأدب والفن المسرحي الأرمني وهو (أميرة القلعة المهدّمــة). فهــذه المسرحية استثنائية بحركاتها الداخلية والخارجية وبقدرتها على التأسيس لفضاء مسرحي وأيضاً الرغبة الثالثة في المسرح وهي التبسيط.

فوجود الأعمدة الثلاثة في المسرحية ووصولها إلى حد الكمال تجعل من هذه المسرحية استثنائية وترفعها إلى مستوى كلاسيكي كمسرحيات شكسبير المأساوية. فمحــور الــتمركز هــنا هو ثأر الأميرة آنا وتغيّر شخصيتها الدرامية تحت تأثير الحقد الجنوني.

فالتغــير الجــذري لشخصية الأمير فرض عليها الذل والخنوع والعذاب مما قادها في النهاية إلى التعويض عن خسائرها عبر رغبة جامحة بالانتقام.

ســبب هذه المأساة هو الأمير فاسيل المعروف بفاسيل اللص والمشهور بميله الشــديد للسلطة والمال والشهوات والذي يغزو بأعوانه قلعة الأميرة حيث يقتلون زوجــا وولديهــا الاثنيــن ثم يأخذونها خليلة للأمير. هذا هو أصل الشر والوجه الحقيقــي لفاسيل اللص والذي طبعاً له مبرراته الزائفة والمصطنعة لتبرير أفعاله الشــنيعة والبربرية عندما يقول: إن الأرمن والمسيحيين المنطوين في هذه الجبال يدينون لي بحياتهم ووجودهم.

هاجســان متطرفان الأول ظاهرة نفسية دائمة، أما الثاني فمؤقت ومفروض. فالأميرة آنا تصل إلى مبتغاها ولكن لا تصل إلى التعويض العادل.

يقتل فاسيل الأب ولديه بوحشية بدون أدنى ألم. بتأثير بسيط وضعيف يقول: (أمرائي سيسامحونني عن هذا الحادث غير المنتظر والثقيل... غداً صباحاً سوف يتحرك الجيش... الموت بطريقه... والحياة بطريقها).

الأبــرياء يقــتلون، الأمــيرة آنا أيضاً، أما الشرير فيبقى دون عقاب ويصل الــتوتر المــتفاقم بالحــركة الداخلية والخارجية للمسرحية إلى فك العقدة ولكن لا تتوازن كفّتا الميزان: الثأر والتعويض مثلما يحدث في مآسي شكسبير.

مسرحية (أوشين بايل) المكتوبة عام 1929 مسرحية مأساوية ودرامية بشكل معمــق وكــامل، لعلهــا ليست مليئة بالهواجس والتوترات النفسية ولكن أحداثها التاريخية معطاة بشكل واضح وجلي وبحقائق ملهمة.

تشع الحكمة والنضج الفكري والنفسي للأديب من خلال الخيوط الناعمة لنسيج هــذه المســرحية والتــي فكرتها الأساسية الصراع القومي للبقاء والوجود والنضال المريــر للشــعب الأرمني على مر العصور للحفاظ على وحدته وخصوصيته. هذه المسرحية مزينة بالرغبات الثلاث للأديب: التمركز، الحركة والتبسيط.

يقــبل الأمــير أوشين نزولاً عند رغبات الأمراء الأرمن وبغير رغبة رتبة (الــبايل) فــي مملكــة كيليكــيا الأرمنية وأن يكون وصياً على الملك ليفون حتى سن الرشد.

أمــا ريــتا المرتبطة بأوشين بحب عميق فتوافقه وفي رأيها أن ذلك سيفتح الطريق نحو العرش ولكن الأحداث تجري بما لا تشتهي السفن. يسير أوشين بايل بطــريقة المليء بالأشواك والعقبات بتنازلات كبيرة فيزوج ابنته للملك ليفون الذي يجلب لابنته الألم والعذاب، هاهي الضحية الأولى.

التــنازل الثاني: يتزوج أوشين من الملكة والدة ولي العهد ويفقد حبيبته ريتا. أما القوى النافرة واللا مركزية الموالية للاّتين فتعمل ضده، فمبادرته لإنشاء جيش موحد قوي لا يتلقاها الأمراء حتى المقربون منه برحابة صدر. يُهزم أوشين بايل، أما حلم تقوية وتعظيم الدولة الأرمنية في كيليكيا فيتحطم. تحاول ريتا التي تضحي بنفسها من أجل هذا الحلم محاولة يائسة لإنقاذ الحلم الذي تلقى حكماً بالموت.

يــرد أوشــين على اقتراح ريتا بالهروب معه لإحياء الحلم من جديد بقوله: (يا إلهي، إن الإنسان قصير الرؤية وبائس، ناديت وقرّبت وحاولت أن أربط كلّ الناس بــي وبأفكــاري وأبعــدت عني الإنسانة الوحيدة، تلك الروح القريبة التي كانت لي).

وهكـــذا فإن مسرحية أوشين بابل بأحداثها النفسية الغنية والتاريخية ليس لها مثيل في الفن والأدب المسرحي الأرمني.

وبمســـرحية أشـــوين بابل يضع المسرحي والأديب ليون شانط نقطة النهاية لإبداعاتـــه الخلاقـــة الباهرة والاستثنائية بإعطائه الأدب والفن المسرحي الأرمني كـــنزاً لا يفنـــي ومنبعاً فكرياً ونفسياً لا ينضب تنبض فيه القضايا الدائمة للإنسانية جمعاء وحلم الإنسان المكافح للوصول إلى الحياة الفاضلة والعيش الكريم.

فالمســـرحي العظـــيم باسمه المضيء وبأدبه العريق سيبقى خالداً في الأدب والفن المسرحي الأرمني وسيبقى سنداً للخير والفضيلة وأحلام الإنسان وأمانيه في العدالة والحرية والكرامة.

❑❑

# رعاة ماسيس[1]
# أو
# فارت[2] وشوشان[3]
## (1867م)
## للشاعر والمسرحي
# "بيدروس توريان"

■ ترجمة: هدى انتيبا وارطان درمنجيان ■

*مسرحية غنائية تتألف من أربعة فصول تتخللها موسيقا فولكلورية من القرن التاسع عشر ترافق الأحداث*

## لمحة عن حياة

بيدروس توريان

(1851 ـ 1872)

ولد بيدروس زمبايان بن أبراهام (المعروف بـ "توريان") في "اسكيودار" تركيا حالياً (أرمينية الغربية سابقاً) عام 1851 وتوفي شاباً في القسطنطينية (استنبول) عام 1872م.

---

(1) ماسيس: لقب آخر لجبل آرارات.

(2) فارت: ورد.

(3) شوشان: زهرة السوسن.

وهو شاعر وكاتب مسرحي درامي أرمني.

أنهى دراسته في ثانوية "اسكيودار" عام 1867م.

عمل في مجالات مختلفة منها: في صيدلية ثم كاتب ومدرس خاص وممثل. كتب الشعر، والدراما وعمل كمراسل صحفي حتى أصبح معاون رئيس تحرير جريدة يومية "برعم آفارير". كذلك اشتغل بترجمة أعمال كبار الأدباء العالميين منهم "فيكتور هوغو" و"شكسبير" إلى اللغة الأرمنية، معظم أعماله المترجمة مفقودة.

أما أعماله المسرحية، فساهمت في تطوير الدراما المسرحية الأرمنية بشكل كبير. كان "توريان" أول كاتب أرمني من القرن التاسع عشر، يتطرق إلى التاريخ القديم من منظار عامة الناس، حيث كان يظهر غضبهم وامتعاضهم من الممارسات الخاطئة للسياسات التي تنتهج من قبل الحكام والملوك.

من أعماله المسرحية "فارت وشوشان" أو "رعاة ماسيس" (1867م)، و"الملك أرادشيس" (1869م)، وغيرها.

دشن "توريان" منهجاً حداثياً للدراما الرومانسية الأرمنية، متجاوزاً القيود الكلاسيكية المتعارف عليها.

وصلنا من أعماله الشعرية تسعة وثلاثون عملاً منها ستة وعشرون كتبت عام 1871م. ولأعماله الشعرية قيمة إنسانية وشعبية كبيرة. يتحول إلى بطل لقصائده العاطفية. وبخاصة عندما يتعاطى مع الطبيعة التي يراها عذراء نضرة، وكان دائم الاهتمام بمضمون الأشياء وليس بشكلها الخارجي.

من أعماله: "يجب الموت"، "أحببتك"، "البنفسج" وغيرها.

كان دائم البحث عن إنسانية الإنسان وكيفية الحفاظ عليها وتطويرها، وكان يناهض مشاعر ومواقف اللامبالاة واللاإنسانية...

رعاة :ماسيس"...

**الشخصيات:**

- باريد: صاحب المزرعة ومالكها.
- فارت: نجل "باريد".
- شوشان: ابنة "باريد" بالتبني.
- مريم: المرأة المتسولة.
- سورماك: اللص.
- كيغام: ابن سورماك.
- كوركين: فلاح من القرية.
- ديران: صديق سورماك.
- أحد الرعاة.

## الفصل الأول

الزمـــن منتصـــف الليل... صدى خرير مياه نبع، في الجانب الأيمن من المشهد يضيء المكان قمر شاحب... هناك حفرة على الجانب الأيسر من المكان

## المشهد الأول:

**يظهر "سورماك" بمفرده (مونولوج)**

يـــا لهـــا مـــن ليلة ساحرة... لا بل رائعة.. وأوقات هادئة بالنسبة لمجـــرم من طينتي... القمر، كالأحلام تغفو على هديه الضمائر... قمـــر يخطـــب ودّ لـــيلة حبلى باستراحة الأبرياء... حتى لتبدو أية حورية جميلة تنزل من السماء جلادة في أعين جزار من ثوبي قتل أبـــيه... علمـــاً أن تلك الحورية ترمز لآلهة الحب في نظر إنسان بـــريء. أين حلقت يا طفولتي؟! رحلت بعيداً عني... حملتك طاقية الإخفاء... زرعتِ التعاسة في دروب حياتي!!...

عندما كنت طفلاً عرفت ملاكين: الحياة والموت... جناحاهما النور ابتسما لي وجلبا معهما الحظ... عندما اجتزت مرحلة الشباب، لبس المــوت قناعه الرهيب... كرهته... وأحببت الحياة لتتفجر في قلبي ينابــيع مفعمة بالمآسي، يا له من وشاح أسود يحجب ضميري!!.. أحــياناً تعذبنـــي مخيلتـــي... أرى تحـــت أقدامـــي امرأة بريئة... مقهــورة... وأســمع أحياناً لعنات أصوات تتمتم يائسة... لكن ماذا تعني الخبطة السهلة؟ نسمة تنساب كالبرق فتثلج القلب وتنثر خلفها دمعــاً لا يدوم لحظات معدودة... مهما يكن، أتوق لتلك النسمات... أنـــا أحـــب.. دعوني أشعر أن هناك من يحبني... آه... أسمع وقع أقدام... إن القادم حتماً مسافر... لأتشجع...

...فاصل موسيقي...

## المشهد الثاني

## "سورماك" و"كيغام"

**كيغام:** **(يدخل من جهة اليمين)**... آه نعم... إنها مرارة الحب...

**سورماك:** **(يقترب وبيده خنجر)** حياتك أو مالك؟!.

**كيغام:** أي مـــال تطلـــبه منـــي أيها اللص البائس؟! أنا لا أملك سوى قلب حزين!!.

**سورماك:** أنا لن أصغي إلى تلك الكلمات.. مالك أو حياتك؟.

**كيغام:** إذن اقتلنـــي.. لكـــن اعلم أني لا أملك شيئاً.. إذا كنت متعطشاً لدم شـــاب مسكين ومشرد تخلص مني وابسط عند أقدام تلك التي أحب جسداً يقطر دماً...

**سورماك:** **(علـــى انفـــراد)** يـــا للفتى المسكين... أقواله هزت كياني وحركت مشـــاعري... لا أجرؤ على رفع قبضتي في وجهه، كأن يداً خفية تمنعني وتلجم حركتي...

**كيغام:** ماذا قررت أيها اللص؟.

**سورماك:** انطلق... ترأفت بك.

**كيغام:** ترأفت؟! آه شكراً... إذن مازلت أملك بصيصاً من الأمل في صفحة سمائي المظلمة.. أمل يقودني من جبل إلى جبل... بالله عليك... إذا رأيت امرأة تدعى "مريم" تبحث عن ابنها "كيغام"... قل لها: إنه يائس... سيقضي نحبه قريباً لاعناً والده كما أوصته أمه...

**سورماك:** **(بهلع وعلى انفراد)** يا للسماء هذا ولدي... قبل قليل كنت سأقدم على سفك دم ابني أيضاً... **(بصوت مرتفع)** اذهب، اذهب أيها الفتى المسكين لكن لا تلعن والدك أي درس!؟... **(يتمتم بصوت منخفض)** فهو رجل يائس وملعون أيضاً...

**كيغام:** شوشان... شوشان: من أجلك أريد أن أموت!

**سورماك:** قلت "شوشان"؟!....

**كيغام:** إنه اسم تلك الراعية التي أحب!.

**سورماك:** **(على انفراد)** إن ولدي هو غريمي... **(وبصوت مرتفع)** ارحل بسرعة من هنا قبل أن يحصل لك مكروه... **(يبتعد كيغام حزيناً)**.... آه!! من أنا في هذه الدنيا؟! غاية اللعنات... الجميع يلعنني... لكن مع ذلك لا يرتجف قلبي عندما أقدم على عمل إجرامي... هناك أصوات وقع أقدام تقترب... إنه بالتأكيد مسافر آخر أختبئ هذه المرة؟!.

## المشهد الثالث

## سورماك (في المخبأ) وديران (في العلن)

[يظهر "ديران" في الجانب الأيسر للخشبة "يلتفت ويعاين الجهات الأربع" لا يرى "سورماك"]

**ديران:** إنه لم يأت بعد... سأشي به... منذ فترة وهم يبحثون عن هذا المجرم: قاتل الوزير، ولا يعلمون أنه هو نجل ذاك الوزير... لقد خصّ الملك مكافأة كبيرة لمن ينجح في إلقاء القبض عليه... ها...

من يرفض اليوم هذا المبلغ الجاهز بدون تعب؟.

سورماك: (يخـرج إلـيه)... يـا طاعـن القسم ونكّاث اليمين.. أيها الرجل السيء... كنت أعتقد أنك الصديق المخلص الأمين والوفي...

ديران: هاهو... (يهرب منزوياً لشدة ذعره)... لقد افتضح أمري...

سورماك: ديـران؟! أمـن أجل حفنة من الدراهم... تشي بصديق عمرك؟... تذكـر كـيف أقسـمت اليمين بحرمة ألف كنيسة وكنيسة في مدينة "آنـي"؟!.. ألست أنت أيضاً شريكي في الجريمة؟! لاسيما أنك أنت مـن حرضني على القتل العمد؟. إذا كنت تريد أن تزج في السجن برفقتي أو أن يحكم عليك بالموت فقم بالوشاية بي للملك!!..

ديران: (انقلـب مازحـاً) بـالفعل أنت صديق حقيقي... كنت أمتحنك بهذه المناسـبة لـيس إلا... فأنا أتشوق لأشاهد وأعرف إن كان بإمكانك خيانة صديقك لمجرد التطرق إلى هذا الموضوع!!

سورماك: (يـتكلم علـى انفراد) افتضح أمرك أيها الغبي "ديران" (ثم بصوت مـرتفع) يـا صديقي أنت السبب في شقائي.. لو لم تكن يا ديران موجـوداً لكنـت أنام الآن قرير العين... لقد جعلتني مجرماً... في سـبيل راحـتك تحولت أنا إلى قاتل أبيه... دفعتني إلى السرقة من أجـل السـرقة والتي لا طائل أجنيه منها لتصبح حياتي في نهاية المطاف شبيهة بحياتك الآن... تبدو لي السماء وكأنها جلاد يتربص بي... في كلّ مبادرة أخطوها أرى بوابات الجحيم تنقض علي تريد ابتلاعـي حـتى بـدأت أجـد الورود تنفث السموم... أيها الجاحد الوضـيع... دفعتني لقتل والدي... بددت الأموال التي ورثتها عنه مـذ صـحبتك في ملاهي الميسر والمجون حيث المأكل والمشرب و... ديران!... ديران! يا ناكر الجميل... من أجلك استبدلت دعاء والدي بلعناته.. أنا شقي الآن وسأبقى كذلك... لأنني من

أجـل إرضاء نزوات جاحد مثلك قضيت على والدي... كنت ذات يوم نجل الوزير، أصبحت اليوم لصاً طريداً...

ديران: دعك من هذا الكلام الفارغ وكن صلب الشكيمة قاسي القلب لا تكن رعديداً كالأطفال... واعلم أن العيش سيان للمجرم الشقي وللمستقيم البريء... السعادة تقرع القلوب دون استئذان... أكانت حقلاً شائكاً أو مزهــراً... يشهد على ذلك ندى الصباح تنيره شمس الحياة. قد تذبــل أزهــاره عند المساء لتنتعش صباح اليوم التالي... هكذا هي حــياة الإنســان: بـؤسٌ اليوم وسعادة في الغد... الحياة في نهاية المطاف أشبه بنهر تارة تنساب مياهه بين الحقول والزهور وطوراً بين الصخور... والآن لنهتم بعملنا!. ما الهدف من لقاء اليوم؟.

سورماك: ســنعمل علــى خطف "شوشان" ابنة "باريد" بالتبني... مع العلم أن نجــل هــذا "الــباريد" يحبها... وفي الليالي المقمرة يخرج الثنائي للــتجوال فــي الحقول... يبدو لي أن هناك صعوبة في تحقيق هذا المشــروع... لكني مستعد للموت في سبيل احتضان "شوشان" بين ذراعي لمرة واحدة ليس إلا....

ديران: لا تقلــق كثــيراً... لا أتوقــع مواجهــة أي خطر... سننهي هذا الموضوع دون إثارة أية ضجة وبهدوء... أنت تعلم مقدار مهارتي فــي هذه الأمور... تشجّع... رأيتهما وأنا في طريقي إليك يتجولان بين أشجار الكرمة... كانا على بعد من منزلهما...

سورماك: هذا خبر سار... أخيراً أصبحت "يا شوشان" في قبضتي... سأحول نظــراتك المتعالية تلك إلى ابتسامة.. سوف أجعل قلبك يخفق رغماً عنك على وقع دقات قلبي....

ديران: تمهل قليلاً... هل سأتقاضى أجرة مقابل هذا العمل؟.

سورماك: بالتأكيد... (ثم على انفراد: أجرتك هي الموت الليلة إذا نجحت في مساعيّ)!!

ديران: فلنذهب إذن... لا تتردد بقلب شجاع وضربة لا تخيب...

سورماك: لنذهــب علــى الفــور... أنت تنفذ عملية القتل وأنا أقوم بالحراسة والمراقبة.. أحسنت يا ديران.. إذا نجحت الخطة...

ديران: ألا تـزال الشكوك تساورك بالنسبة لهذا الأمر؟ **(يتمتم على انفراد: "بـددت شـكوكه" قـبل أن يتابع بصوت مرتفع)** لنتجه من هنا... انتـبه.. القمـر هـذه اللـيلة متخف يساندنا.. إن كنت تريد سماع الحقيقة: القمر أيضاً يشاركنا في جرمنا.

سورماك: **(يقف بمفرده)** يعتقد هذا الغبي أن تصريحه السابق عن الوشاية بي طوي إلى غير رجعة... فليعتقد ذلك... **(يبتعد الرجلان من الجانب الأيسر للمسرح)**...

## المشهد الرابع

**يدخل "فارت" و"شوشان" متشابكي الأيدي.**

فارت: حبيبتـي شوشـان، لقد تعبت!! استميحك عذراً!! هل نجلس بعض الوقت عند تلك الساقية؟.

شوشان: أنت تعلم أني لا أشعر بالتعب طالما أنا بقربك يا فارتي...

فارت: "شوشـان" ما أن داعبت أصابع الحب الناعمة قيثارة قلبي، ولأول مرة في حياتي حتى رحت أتصور حضنك الدافئ ويديك الرقيقتين. وقلـت لنفسـي: مـتى ستأتي لحظات السعادة المرتقبة فتهمسي يا حبيبتـي في أذني وببساطة كلمة: "احملني يا فارت"... ها أنذا بين أحضـانك يا شوشان... كم هي سعيدة تلك الزهرة المرسومة فوق شـفتيك وتلـك النسمة التي تداعب وجنتيك؟!. وكم هي سعيدة تلك الأشـعة المتغلغلة بين ضفائر شعرك والأكثر سعادة هو ذاك الذي يحبك من كلّ قلبه!..

شوشان: حقاً ما أحلى الحب؟! "فارت".. الحب ربيع أزلي يغار عليه قلب كلّ منا.. انظر يا فارت الطبيعة كلها معبأة بمشاعر الحب... القمر يشع حباً... والزهرة تفوح حباً... آه كلّ شيء غارق في الحب...

فارت: شوشـان... كم أنت جميلة... ثنايا قلبك طاهرة كأوراق السوسن.. نظـراتك حلـوة كـبريق أول شعاع للفجر... روحك عليلة كنسمة

الصباح... آه لو لم تكوني في هذا الوجود لأصبحت كبرعم وردة تغلفها الأشواك يذبل قبل تفتحه.

**شوشان:** يعلم الباري أننا لا نستطيع العيش منفصلين لذلك دفعنا إلى حضن واحد... لنلتقط أنفاسنا من الحب... أليس كذلك؟... "فارت" سنظل عاشقين كما تحب الزهرة النسيم... آه... أنظر كيف يدق قلبي بشدة كأنه يريد الخروج من صدري والتحليق على مقربة من قلبك!! اقترب مني حبيبي "فارت" وضمني هكذا على الدوام بين ذراعيك... هل ترى كيف يبتسم لنا القمر وكأنه يريد هو أيضاً القفز من هالته المزينة بالنجوم لينضم إلينا... إنه مولع بنا... ويسهر على حراستنا ويتبعنا حيثما نذهب... أيها القمر! سوف تنير دروبنا ليس فقط خلال حياتنا وإنما كذلك عندما نموت... سوف تظلل ثرانا.. يومها سينهمر الدمع فوق هذا الثرى عوضاً عن الحب... لأنه الآن يبتسم عندما نمر من هنا بالطبع سيحزن لموتنا... أيها القمر المسكين... مثواك عبارة عن غيمة كثيفة...

**فارت:** لا تقولي هذا شوشان! لماذا تذكرين الموت؟! من الأفضل أن نستمر في العيش معاً بمحبة وسعادة أبدية... ألا تعرفين ما أكنه لك من مكانة، حياتي أنت، أولى ابتساماتك لي تحولت إلى شمس مشرقة في حياتي...

**شوشان:** هذا القلب النابض الذي اقترب من جسدي هو قيثارة محبة، فأنا كذلك لم أكن أفقه الحياة قبل تعارفنا، فإثر حرماني من أسرتي كنت أعيش بهذا القليل الذي ورثته عنهما... اعتقدت أني سأظل بائسة إلى الأبد... لكني كنت مخطئة... فنظراتك الأولى أزاحت وشاح الحزن الذي أحاط بقلبي... قبل التعرف عليك كنت أمضي النهار بين السهول والغابات حزينة أنتظر حلول الظلام... وما أن يطل الغروب وتصبح خيوط الأفق ذهبية حتى أشعر بالبهجة لأني اعتقدت يومئذ أن حياتي ستنتهي.. اعذرني يا حبيبي لم أكن أعرفك آنذاك... ولم أقاسِ آنذاك من لهيب الحب، أما الآن فقد اكتشفت أني كنت عقيمة التفكير.

**فارت:** مـــاذا تعتقديـــن يا شوشان؟... لو أن سائر الناس أحبوا على طريقتنا لامتنعـــت الأزهار عن الذبول من شدة غيرتها... يا شوشان يا هدية الحب الصافي... هل ستتوقف الطيور عن التغريد لشدة غيرتها منا؟ ومن سيوقظنا لنتبادل القبل مع إطلالة أول شعاع كلّ صباح؟ ما ألذ تلك اللحظات...

**شوشان:** يـــبدو الوقت قدْ أدركنا لنعد إلى المنزل... "فارت" غداً في الصباح الباكر نأخذ الماشية ونصعد على سفح جبل "ماسيس".... أليس كذلك يا فارت؟.

**فارت:** حسناً شوشان... ولكن ما هذه الأصوات؟ أنصتي!.

**(تتردد كلمات مرثية غنائية تنبعث عن بعد تنشد):**

أيها الليل الساجي المضاء
امنحني ما يكفي من الوقت
لأذرف الدمع السخي بأسى
أنت فقط من يواسي آلامي
وأنت يا سماء الرحمة والعظمة،
أطلب منك أن تتمتم شفتاي،
اللعنة، لأطلقها على ذاك الذي أدمعني
وخدعني وأفرغ حياتي من الأمل...
بائسة أنا، بؤسي لا يعرف النهاية،
إذاً فلتسقط اللعنة على "سورماك"،
ولتُسحقَ روحي لأني خائنة للحب،
الرحمة أيتها السماء ولتتذكري دموعي.

**شوشان:** ما هذه المرثية التي تستجدي الشفقة... لمن تكون يا ترى؟.

**فارت:** لامرأة يائسة بالتأكيد... من يدري أية مصيبة ألمت بها؟.

**شوشان:** هل تبكي يا "فارت"؟ لكن لماذا؟ أتوسل إليك أن تخبرني!.

**فارت:** هـذا الصـوت "هذا الرثاء أثر في وجداني... لا أعلم كيف سالت دموعي بشكل لا إرادي...

**شوشان:** آه!!.. يـا لهـا مـن امرأة مسكينة!... أي حزن أصابها يا ترى؟ "فارت"... هل نستطيع مساعدتها؟.

**فارت:** ربما... ما أثقل حزنها!! إنّها تحاول التخفيف عن ألمها... يبدو أنها تفـتقد لمـن تبـث إلـيه شكواها... فاضطرت لاتخاذ هجعة الليل سلواها... علها تبحث عمن يواسيها... يا لها من امرأة بائسة!!.

**شوشان:** مـا هذا القلب الذي تملكه المدجج بالمشاعر الجياشة يا فارت؟! كيف ذرفت عيناك الجميلتان الدمع هكذا بسرعة؟ **(تضع شوشان يدها فوق قلـبه)**.... كـيف يخفق قلبك بهذه القوة؟! اهدأ يا حبيبي!!... بالطبع يمكننا مساعدتها قدر المستطاع.... هيا بنا لنذهب بهذا الاتجاه!.

**فارت:** توقفـي... هاهـي أصوات أقدام صماء تقترب... يبدو أنها هي... فلننتظرها!!.

**شوشان:** لكن اهدأ أرجوك...

## المشهد الخامس

### "مريم" بالإضافة إلى الشخصيات السابقة

**مريم:** **(تدخـل من الجهة اليسرى للخشبة.)** ندبي ذهب أدراج الرياح... ليس هناك من يسمعني.. حتى رب العالمين أدار وجهه عني... أنا بائسة... امرأة مجنونة لا تعلم أين طريقها... تبحث باستمرار عن قـبر تحت أقدامها... يا موت لماذا أبطأت المجيء؟ فقدت الأمل... لا حـدود لشقائي... "سورماك" لتطاردك اللعنات إلى الأبد ولتظل لعنتي حياتك بوشاح من الحزن!!....

**شوشان:** ماذا أصابك يا امرأة؟ وأية كوارث ألمت بك؟ هل أنت مز كانت تترنم بمرثية الرحمة؟...

**مريم:** لكن من أنت أيتها الشابة الحسناء؟ وماذا تفعلين في هذا الوقت من الليل؟.

**شوشان:** أنا راعية القرية اليتيمة الأبوين... تبناني فلاح طيب القلب... خرجت مع هذا الشاب نضرب في الحقول الغافية... نحن عاشقان...

**مريم:** شابان ستحابان؟ إذن أتمنى لكما السعادة.. ودعاني أرثي حالتي البائسة... أنتما لا تعلمان ما هو الشقاء؟

**فارت:** تشجعي أيتها المرأة البائسة... قولي لنا ما المصيبة التي تعانين منها وسترين أننا سنساعدك قدر المستطاع.

**شوشان:** اعلمي أني كنت على غرارك مسكينة ووحيدة في الحياة... وعندما استضافني هذا الشاب النبيل في منزله أنعمت عليّ محبته منتهى السعادة

**مريم:** عندما أروي لكما مصيبتي ستعلمان أن الحب يكمن وراءها...

**الشابان:** الحب!!.

**فارت:** هل يمكن لهذا الإحساس النبيل أن يؤدي إلى الشقاء؟!.

**شوشان:** لكن أخبريني، كيف وقعت في شباكه وأصبحت بائسة؟!.

**فارت:** نعم أخبريني أتوسل إليك!.

**مريم:** إن رويت لكما قصتي لن تلوماني؟.

**الشابان:** لا إطلاقاً!!

**مريم:** قبل تسعة عشر عاماً من الآن تزوجت فلاحاً أحببته كثيراً وهام بي عشقاً. رزقنا الله بعد فترة طفلاً وحيداً ونشيطاً... لننعم بالسعادة لبعض الوقت.. وفي أحد الأيام (ذاك المشؤوم) بينما كنت هائمة على وجهي في الحقول عند غروب الشمس وقلبي فرح غارق

بالحـــب... مــرت دقائق معدودة إختفت على أثرها أشعة الشمس ليتربع قمر ذهبي في صحن السماء متسلقاً الأفق... وأنا في طريق عودتـــي إلـــى المـــنزل أجمع الأزهار... سمعت فجأة صوتاً يتلفظ اســـمي.. أصابني ارتعاش خفيف... استدرت نحو مصدر الصوت لكنـــي لم أجد أحداً.. راح قلبي يخفق بشدة.. تابعت طريقي ليصل إلى مسامعي الصوت ذاته من جديد، التفت إلى الوراء لأشاهد شاباً جاثياً على ركبتيه يناديني...

**شوشان:** من كان صاحب ذاك الصوت؟.

**مريم:** عرفـــته منذ الوهلة الأولى.. إنه شاب أقسمت له ذات يوم أن أبادله حباً بحب عندما كنت مراهقة... أصابتني القشعريرة ساعتئذ... ولم أتمكـــن مـــن متابعة سيرى، استوقفني الحب... سرت إليه خطوات معـــدودات.. وأنا في حالة فقدان الشعور... لأجده خلال ثوان بين ذراعـــي.. حـــباً مأســـاوياً كـــان.. انفصلنا أخيراً.. لتمر عدة أيام أخرى... ثم هربت برفقته واختبأنا في الجبال المجاورة...

هـــناك عرفت معنى الحزن وذرف الدموع... وأنجبت طفلاً أسميته "كـــيغام"... والده ذاك المجرم الخسيس... حملت رضيعي ذات يوم وابتعدت عن ذاك المكان لأعيش بصحبة طفلي... حتى أضعته قبل شـــهر، وبعدها فقدت حملاني وشاتي التي أقتات من حليبها... وها أنـــا أعـــيش شـــقية منذئذ... وفيما بعد اضطررت للتسول بين هذه القـــرية وتلـــك، وبيـــن ذاك الجبل وجاره.. انتقل بين تلك الأماكن كالمتشـــردين... إنني مذنبة، استميحكما عذراً. لقد دفعتماني للبوح بأسراري...

**فارت:** سامحناك أيتها المرأة المسكينة!!...

**شوشان:** ونتضرع إلى الله تعالى، عله يغفر لك.

**فارت:** لكن من هو زوجك الشرعي؟! بالطبع لابد أن نكون قد سمعنا عنه، إن كان من سكان قريتنا...

مريم: إنه الفلاح الملقب "باريد".. لو شاهدته الآن لما عرفته... لأنه مضى سبعة عشر عاماً على انفصالي عنه...

فارت: قلت الفلاح "باريد" أيتها السماء!!

شوشان: هل أنجب أولاداً؟

مريم: لكـــن لماذا ظهر الحزن على وجهيكما؟! نعم عنده ولد وحيد يدعى "فارت" وهو ابني أنا!!.

فارت: يا إلهي ماذا أسمع؟ إذن أنت والدتي التي فقدتها منذ طفولتي؟!

مريم: أمك أنت.. آه!!

فارت: نعم أمي!! أنا "فارت" ولدك ولازلت أحبك!!

مريم: وتسامح أمك.. أليس كذلك؟! **(يتعانق الاثنان)**...

شوشان: يا لمحاسن تلك الصدفة السعيدة!!.

فارت: أمي أنت سعيدة الآن لأن ابنك بين ذراعيك؟!

مريم: نعم أنا سعيدة يا بني!.

فارت: لو أخذتك إلى والدي.. لن تحزني أليس كذلك؟!

مريم: إلى والدك!! آه لا... لا... لست أهلاً لمحبته واحترامه... ربما يكنّ لي اليوم الكراهية والبغضاء، وإن طرقت بابه قدْ يطردني!!.

فارت: أنـــت مخطـــئة يا والدتي... فوالدي لا يزال يحبك... وهو لا يعلم تفاصـــيل القصـــة التي رويتها قبل قليل... ويعتقد أنك ضائعة ليس إلاّ... ولو أخذتك إليه سيستقبلك بالأحضان.

مريم: لكن إذا علم بقصتي تلك... سوف...

فارت: **(مقاطعاً)**: يصفح عنك... شوشان" أحضني أمي أيضاً... بعد أيام يا والدتي سوف تكوني شاهدة على حفل زفافنا... أنت أيضاً ستباركين هذا الزواج السعيد...

(يُسمع عندئذٍ صوت يصرخ من بعيد: ساعدوني، ساعدوني... انجدوني...)

**فارت:** آه... هذا صوت صبي.. لأذهب وأتبين الأمر!.. (يخرج فارت)

**مريم:** (تسعى وراء فارت): توقف... توقف... قدْ يتربص بك الخطر! (تغادر الخشبة في أعقابه)...

**شوشان:** ما معنى هذه الكلمات التي خرجت من فم "فارت"؟ العرس.. آه... بعد وقت قصير سأزف إلى "فارت"!! سيصبح زوجي!... هكذا سأدعوه بعد قليل... يا لسعادة هذا القران.

## المشهد السادس

### شوشان وكيغام

**كيغام:** (يسير حزيناً... يلتقي شوشان...) هذه شوشان! (يركع على الأرض)...

**شوشان:** شاب أمامي جاثياً على ركبتيه! قف على قدميك! ماذا تريد؟ (تساعده على الوقوف).

**كيغام:** نظرة... ابتسامة... كلمة...

**شوشان:** لم أفهم ما تقول... أفصح!! ماذا دهاك؟.

**كيغام:** إن نطقت قدْ يعجز لساني عن البوح... آه... أحبك يا شوشان!.

**شوشان:** فارت... فارت... تعال....

**كيغام:** ها.... اصمتي... اصمتي... أرجوك ارحميني!

**شوشان:** لكن كلامك يخيفني.. اعلم أن...

**كيغام:** اسمعيني... إنك تمرغين قلباً تحت قدميك.. ينزف في كلِّ خطوة دماً... أملك هذا القلب لكنني أهديه لك وأنت ترفضينه.. إذن اطعنيه في الصميم لأنه يخفق كل لحظة من أجلك... أزيلي بالخنجر ذاك الاسم الذي حفره الحب عميقاً في قلبي... لتذبلِ هذه الشفاه لأنها

تـنطق اسـمك كـلَّ لحظة... إن كنت لست أهلاً لحبك.. اقتليني أرجـوك قـبل أن تقولـي "لا أحبك"... أنت لا تعرفين الرحمة يا شوشـان... اعتقدت أنك سترأفين لحالي... لكني كنت مخدوعاً... أجيبينـي بكلمـة "نعـم" أو "لا"!! أنت تبكين! إذن هل أصدق أنك تحبينني؟ أديري وجهك باتجاهي! تكلمي!! لا ترهقي قلبي!!.

**شوشان:** (**علـى انفـراد**) نعم أبكي "فارت".. يا لهذا الشاب المسكين!! لأني أعلم ماذا يعني أن يقع الإنسان في الحب وألا يبادله الطرف الآخر مشاعره تلك...

**كيغام:** بمـاذا تفكريـن؟ مـاذا يجول في خاطرك؟ ستحبينني أليس كذلك؟ ضـميني إلـى صدرك لنكون سعيدين!! قولي لي كلمات تعبر عن حـبك لـي لـيزول التشاؤم عن نفسي كي يغرد البلبل في الصباح الباكر ليمحي كآبة الليل عن الغابة.

**شوشان:** لكنـي لا أستطيع أن أبادلك الحب... أيها الشاب المسكين.. تعهدت للسـماء ألا أمـنح حبي سوى لـ "فارت"... فكيف أنكث عهدي؟ لا...لا... لا أسـتطيع التخلي عن "فارت" من أجل شخص غريب، لا أعرفه وبإمكانه الارتباط بفتاة أخرى.

**كيغام:** إذن حكمت عليّ بالموت... اعلمي أني لن أنعم بالسعادة بعد اليوم، حياتي ستكون حزينة... سيجلد الحب قلبي بسوطه... ذكراك ستظل تطاردنـي حـتى القبر... وعندما سألفظ اسمك شوشان شوشان... سـتدق الأشـواك في قلبي كالمسامير... وعند أية تنهيدة سيتوارى جثمانـي أكـثر فأكـثر... وفي نهاية الأمر ولدت مجبولاً بالآلام وسـأحملها معـي إلـى القبر... لأن طريقي شائك من المهد إلى اللحـد... إذن هكـذا تريدين الموت للذي أحبك أكثر من روحه... شوشان... ترغبين موتي!!.

**شوشان:** لا أستطيع أن أحبك (**تبتعد عنه**).

## المشهد السابع

**ينضم فارت إلى الشخصيات المذكورة سابقاً**

**فارت:** (**يدخل ويتكلم مع حبيبته**) لنذهب يا شوشان.. والدتي تنتظرنا...

**شوشان:** من أصدر صوت الاستغاثة؟...

**فارت:** إنه صبي وقع في البحيرة عندما كان يلعب على ضفافها!..

**شوشان:** هل تمكنت من إنقاذه؟.

**فارت:** نعم... وحملته إلى منزل والديه القريب من المكان.

**شوشان:** فـارت... أنـت ملاك حارس... (**ينسحب الاثنان من المنصة إلى خلفيتها**).

**كيغام:** آه... آه... (**يبتعد يائساً**)...

## المشهد الثامن

**يطل "سورماك" و"ديران" من الجانب الأيسر**

**سورماك:** كـيف اقتفيـنا أثرهما ولم نجدهما؟... ديران... ربما أقدمت على خداعي!!..

**ديران:** ولِـمَ أخدعـك؟! كان المسكينان يتجولان عندما جئت للقائك.. وإن وجدتهما الآن وأنا على هذه الحالة من الغضب الشديد سينال الشاب ضربة تشطره إلى نصفين.

**سورماك:** اخـرس أيهـا المنافق!... يجب أن نعثر عليهما لأن منتصف الليل شارف على الاقتراب... ربما وليا بوجهيهما شطر المنزل...

**ديران:** إذن لـنؤجل تنفـيذ العملـية إلـى الغد... بالتأكيد سننجزها غداً وسننجح.

**سورماك:** هـل أنتظر حتى الغد؟!... قرن من القلق واللهفة؟ لا... لا أستطيع مقاومة هذا الشوق... ألا تعلم كيف يشتعل قلبي هياماً؟.

**ديران:** إذن... لأذهب هذه المرة للبحث بالقرب من منزلهما.. ابق أنت هنا... وفي حال احتجت لمساعدتك أطلق إشارة لتوافيني على جناح السرعة.

**سورماك:** إذن... اذهب يا ديران ولا تعد خالي الوفاض. **(يبتعد ديران من الجهة اليمين للمسرح).**

## المشهد التاسع

## سورماك (لوحده)

**سورماك:** أيتها الشهوة الآثمة!! ألن تخمدي؟ هل سيظل لهيب نارك الجهنمية ينهش قلبي؟ كم أرقت من الدموع وسفكت من الدماء البريئة بهاتين اليدين اللتين لا تعرفان الشفقة فوق هذا اللهيب الذي لم ينطفئ بعد؟!. أيها القلب! ألم تسمع صوتها قبل قليل؟ ألست أنت من علمها تلك المرثية المأساوية؟ كيف تتقن لحن البراءة ليس إلا... أنت لقنتها كيف يكون الحزن؟! وكيف تكون الخطيئة؟ لا يزال أنين صوتها يتردد في أعماق قلبي.

لا يزال منظرها يزرع الحزن في روحي... حين أخرج أحياناً في وضح النهار تنتابني المخاوف من أن أجد مبررات لجرائمي التي تفترسني كما يفعل النمر مع طريدته... اتخذت من الليل ستاراً كثيفاً لإخفاء جرائمي... تخيفني إشراقة الشمس التي تبعث البهجة في نفوس الأبرياء أهرب منها لأختبئ في أعماق الغابة... تؤرقني جرائمي.. ماذا أسمع؟ وقع أقدام... هناك من يركض في هذا الاتجاه! **(يلتفت إلى جهة اليمين)**... هذا ديران لقد نجح.. هاهي "شوشان" بين ذراعيه.. **(على انفراد)** تشجع يا سورماك!! ويا ساعدي لا ترتجفا... يجب أن يموت "ديران"... هذه الحفرة ستصبح قبره... لن يستطيع النجاة والخروج منها... كي لا يبقى كاشف أسراري وشريك أقداري على قيد الحياة.

## المشهد العاشر

**سورماك، ديران، شوشان (مغمى عليها).**

**سورماك:** أحسنت ديران... أنت شجاع...

**ديران:** (حاملاً شوشان بين ذراعيه)... انقطعت أنفاسي... أنا منهك من التعب....

**سورماك:** هل أغمي عليها؟!

**ديران:** نعم...

**سورماك:** كيف نجحت؟.

**ديران:** ما أن ابتعدت عن هذا المكان حتى شاهدتهما يسيران أمامي. وضعت المعطف على رأسي كي لا يتعرفا علي... واقتربت قليلاً فشاهدت "مريم" ـ خليلتك ـ تتحدث إليهما....

**سورماك:** خليلتي "مريم"؟ (بصوت خافت) عن أي موضوع كانوا يتحدثون؟!

**ديران:** لم أصغ! هجمت بغتة على "فارت" وطرحته أرضاً بضربة من خنجري.

**سورماك:** هل كانت الضربة قاضية؟.

**ديران:** لا... لكنها عميقة الأثر... عندما هممت بحمل "شوشان" بين ذراعي ومغادرة المكان... شعرت بيد تمسك بي، وبصوت يتوسل ويقول "ولدي" استدرت لأجد "مريم" أمامي.. ركلتها بشدة ورميتها أرضاً دون حراك... وهكذا جئت إليك دون إزعاجات أخرى.. إذن ماذا سنفعل الآن؟ قل بسرعة كي لا يداهمنا أي خطر.

**سورماك:** هاتها (يتناول "شوشان" بإحدى ذراعيه ويطعن بالأخرى ديران)، مت أنت كي أستطيع التفكير جيداً.

**ديران:** آه.. يا لك من ناكر للجميل... مجرم

**سورماك:** الآن بإمكانك أن تشي بي! فلتنعم بالراحة يا قلبي، لم يعد هناك واشٍ يعرف أسراري.

**ديران:** (**يصرخ بصوت متقطع**) هذا الرجل قتل أباه الوزير "فاهرام"...

**سورماك:** ديران المسكين... النيل فقط يستطيع سماع صوتك...

**ديران:** لا... الله يسمعني... (**يقضي نحبه ويستعد "سورماك" للرحيل حاملاً "شوشان" بين ذراعيه**).

**مريم:** (**تأتي من الخارج وهي تردد**): من قتل ولدي؟!.

**سورماك:** يــا للسماء... هذه هي... يا ركبتَيّ... لا تضعفا.. هيا إلى الأمام!! وأنــت أيها القلب الدنيء، لماذا تخاف من امرأة وأنت صاحب هذا الكم من الجرائم... لماذا أصابك الذعر؟... اهدأ.

## المشهد الحادي عشر

### الشخصيات المذكورة في المشهد العاشر

**مريم:** (**تهرع إليه**): أيها المجرم!! ماذا فعلت بولدي؟.

**سورماك:** مــريم... كفى... اتركيني... ولا تقفي في طريقي وإلا قتلتك أنت أيضا!!

**مريم:** هذا الصوت... ليس غريباً... أعرف صاحبه... من أنت؟.

**سورماك:** لا تســألي عــن اسمي... فقد طاردتني ذكراك مراراً... لم ينقطع صوتك عن مسامي صباحاً مساءاً... تكفي اللعنات...

**مريم:** (**تقترب من "سورماك" وتحدق فيه**) "سورماك"... (**ثم تصرخ**) آه... أيها المجرم... أنت مرة أخرى!! لتلعنك السماء إلى الأبد... (**تجثو علــى ركبتــيها بيأس**) يبتعد "سورماك" عنها حاملاً "شوشان" بين ذراعيه ويسدل الستار.

## نهاية الفصل الأول

## الفصل الثاني

### المشهد الأول

**يدخل "باريد" و"كوركين"**

**باريد:** ما هي طلباتك أيها العجوز "كوركين" تكلم؟ أنت تعلم أني لم أرفض لك طلباً إطلاقاً!!.

**كوركين:** أتعلم كم هو عزيز الابن على قلب أبيه؟.

**باريد:** دون أدنى شك... الابن هو مستقبل والده...

**كوركين:** ودموع فلذة الكبد، ماذا تعني؟.

**باريد:** كأنها تحفر قبر هذا الوالد، هكذا حدثت الأمور معي... منذ ذاك المساء يوم وجدت ابني جريحاً على قارعة الطريق حملته وجئت به إلى المنزل، وهو لا يتوقف عن البكاء على فراق حبيبته "شوشان"... وقد عثرت عليها يوم كانت طفلة يتيمة الأبوين... فتبنيتها لتقاسمنا الحياة... في هذا المنزل... وإن كنت تريد الحقيقة أنا كذلك أذرف الدموع على فراق تلك الفتاة البريئة لأنني أحببتها كما أحب ابني... وكنت أزمع تزويجهما بعد أسابيع قليلة.. لكن للأسف...

**كوركين:** بما أنك عانيت من مرارة الحزن... إذن اسمعني، عندما عدت ليلة البارحة إلى المنزل... ارتمت ابنتي بين ذراعي... لم أنتبه لمقلتيها الدامعتين.. لكن بعد برهة شعرت برطوبة تنساب إلى صدري، فخاطبتها بلهجة تأنيب: ماذا أصابك يا فتاتي؟ فأجابت: "أنا بائسة يا والدي"... أحزنني كلامها... ضممت وجهها الجميل إلى صدري بقوة وسألتها: ما بك تكلمي! أجابتني: "أحبه"! ودموعها تنهمر فوق وجنتيها... أخيراً استطعت انتزاع سر حزنها... إنها مغرمة بابنك "فارت"!!...

**باريد:** ابني أنا؟!

**كوركين:** نعــم.. ثم قالت لي: "إن لم أتزوجه سأعيش بائسة طوال حياتي"... آه... حاولت إقناعها بغير ذلك لكني فشلت ولست أدري ماذا أفعل؟ وأفكــر الآن كــيف سأتصــرف وماذا أصنع عندما تصبح غاليتي بائســة؟... وضعت أملي فيك يا "باريد" أنت فقط من يستطيع إنقاذ ابنتــي مــن الشقاء الذي سيصيبها... أيها النبيل "باريد"... انا على اســتعداد للمــوت فداء لابنتي... إنني أحيا من أجلها، حياتي كلها مرهونة بابتسامتها... شعر رأسي هذا الذي زحف إليه الشيب أنثره شــعرة شــعرة عند قدميها إن كان هذا الأمر يسعدها... أصبحت منهمك التفكير بها حتى رحت أخشى أن تشعر شفتاي يوماً ببرودة الموت تسري إلى جسد ابنتي...

**باريد:** تشــجع أيهــا العجــوز "كوركين"... لا تستسلم لليأس هكذا بالتأكيد تشــفق الســماء علــى أب مــثلك فتحول دون رؤيته لابنته تذرف الدموع... انظر كيف أتجلد أنا أمام تنهدات ولدي التي تمزق القلب وهــو يذرف الدمع وحيداً ليل نهار... وقد ابتعد عني. اللعنة على ذاك الــذي جعــل ابنــي فــتىً بائساً... هذه حالة كلٍ منا... لكني سأعرض عليه ابنتك التي تحبه... فإن استحسن الفكرة أصبحنا كلنا سعداء...

**كوركين:** ليــباركك الــرب... كم أنت نبيل يا "باريد" وطيب القلب... تأخر الوقــت الآن... ســأذهب إلــى الحقل وقد نلتقي عند المساء. إلى اللقاء... **(يبتعد من الجانب الأيسر للمسرح).**

**باريد:** لتذهب بسلام **(ينصرف إلى الداخل).**

## المشهد الثاني

### مونولوج "فارت" بمفرده

**فارت:** مـا أن يطـل الفجـر حـتى تسـاورني تخيلات أن "شوشان" في أحضاني... لكني أخدع نفسي باستمرار... انتظر وكلي أمل وبكل جوارحـي... رسول الحب: نسمة الصباح... ربما تأتي بسلام... حاملـة قـبلة من "شوشانتي"... لكنها تنساب بهدوء وتمر بصمت وكأنهـا تسـير إثـر جنازة... إذن "شوشان" توفيت أجيبيني أيتها الغابـات والسهول!! هل ذبلت تلك الزهرة الناعمة؟ كيف تصمتين ولا تجيبيننـي؟ آه... فهمـت إلى ما ترمين؟ تباً لتلك الليلة... يوم اكـتمل الـبدر الحديـث الـولادة... ربما هي الآن في السماء... تنتظرنـي كـي أتـبعها وأحضنها وأقبل تلك الشفاه التي ما برحت تـنطق بالحـب الأبدي... لم أعد أستطيع تحمل هذا الشوق... تمر أيامي المتبقية مخلفة حزناً كبيراً في قلبي... ندى الصباح تحول إلى دمـوع تـنهمر من عيني نقطة نقطة... أما الأزهار فليست سوى ذكـريات حزينة... ذكرى حبيبتي ما برحت تعذبني... الثرى فقط يستطيع أن يضع حداً لأحزاني **(يخرج خنجراً من جعبته)** فليخترق هـذا الخنجر قلبي... ولأمت!!... **(يهـم بطعن نفسه عندما يدركه "باريد" فيمسك بيده)**...

## المشهد الثالث

### فارت وباريد

**باريد:** **توقـف! ماذا تفعل يا بني؟ هل نسيت أباك المسكين، ألا تعلم مدى الضرر الذي تلحقه به؟.**

**فارت:** آه دعنـي أمـوت يـا أبت!!.. دعني أغادر فأدرك تلك التي رحلت قبلي!.

**باريد:** **إذن أنت تحبها أكثر من أبيك العجوز؟.**

فارت: لا يا أبت! لكن من دونها لن أشعر بطعم الحياة!...

باريد: موتــك سـيجلب لك السعادة؟! ماذا سيفعل عندها والدك وقد أصبح وحـيداً في هذه الحياة؟ من سيضم إلى صدره ليعزيه؟! وهو لا ولد لـه سواك، أنت وحيده! عندما سيمرض من يريحه من آلامه؟ تجلد يا بني!! ربما لا تزال "شوشان" على قيد الحياة؟! ربما عادت يوماً تبحث عـنك!! فـإذا ما وجدتك قد فارقت الحياة ستغدو بائسة... تجلـد!! ربما ستستجيب السماء لتضرعاتنا... لكن يا بني إن كنت تحـب والـدك... أبعد ذكرى "شوشان" عن مخيلتك وعندها ستجد السعادة مع أية فتاة أخرى...

فارت: كيف ذلك؟.

باريد: ابـنة "كوركين" تحبك وهي تنتحب ليل نهار من أجلك.. وأنت تعلم كم هي فتاة جميلة و...

فارت: هـل رحـت تهـذي يا والدي؟ أنا أمحي ذكرى "شوشان" من قلبي وأعشق سواها؟ عندها ستصمني الغابات والسهول "بالمحب الخائن" وسـتفرش الأرض بالأشـواك تحت أقدامي أينما توجهت احتقاراً لفعلتي تلك... هذا القمر الفضي الشاهد على حبنا سيكن لي كراهية لا حـدود لها وهو مختبئ خلف الغيوم... آه لا أستطيع أن أنساها وأنسى حبها... لماذا وقفت يا والدي بيني وبين الموت؟ ربما كانت أرواحنا في هذه اللحظات تتعانق هناك في السماء؟ ربما كنت الآن في أحضان "شوشان"؟!.

باريد: ووالـدك؟!... عندها سيقف والدك الحزين أمام حجر قبرك الجامد يـرتعش من شدة الصقيع... آه الآن فقط اكتشفت أنك لم تعد تحبني يا "فارت"!!.

فارت: آه لا... إني أحبك يا أبت... اطلب دمي... أمنحك حياتي... لكن لا تطـب منــي قلبــي... دع هــذا القلــب يذوب ويتلاشى في حب "شوشــان"... لا أستطيع أن أغرم بفتاة سواها.. صوت "شوشان"

الحزيـن لا يفـارق مسامعي وهي تهمس: "أحبك على الدوام"، لا أسـتطيع... إذا كانـت "شوشـان" على قيد الحياة فأسقيها كؤوس "أشاف" وإن كانت ميتة سأحمل حزني عليها إلى القبر... إن أحببت سواها ستصل تنهداتها إلى أذني خلال رقادي وأنين دموعها سيصم مسـامعي... ستغدو كل قطرة من دمها عذابا وندما ينهش قلبي... شـفاه "شوشان" التي كانت نبع القبلات ستصطبغ باللعنات... يومها يا أبت ستضيئ بروق الكراهية سمائي... آه كيف أستطيع أن أغرم بسواها؟...

**باريد:** إن كنـت لا تحب سواها توقف عن النحيب كي يتوقف والدك عن الحـزن... لا أرغمك على التعلق بامرأة أخرى يا بني... لكني لا أرغب رؤيتك فاقد الأمل وحزيناً!! منذ اليوم إن شاهدت بارقة دمعة حزن في عينيك أو صعد من بين شفتيك أنين خافت فاعلم أن والدك العجوز سيبدأ عدّ درج السلالم المؤدية إلى قبره...

**فارت:** **(دامـع العينيـن)** آه... مسـتحيل يا والدي... إن حدث هذا الأمر عندها إذن سأترك هذه الدار وأتشرد من جبل إلى آخر كي لا تراني فـاقد الأمـل... سأظل أنوح وحيداً في أعماق القبور حتى تنقطع دموعي وتغطي رأسي أتربة سوداء...

**باريد:** آه... لا... يـا حبيبـي... ابـق بين أحضاني... واذرف الدموع وسأبكي أنا بجانبك... بدموعك سأروي جبهتي المعذبة... وبقبلاتي الممزوجة بالدمع سوف أغمر وجهك الجميل... لا تبتعد عني آه... أبداً أبداً يا ولدي...

**فارت:** لا... لا... يا أبت... سأظل إلى جانبك على الدوام...

**باريد:** بوركـت يـا ولدي الجميل... لكن أقسم لي أنك لن تذرف الدموع عندما أكون بجانبك...

**فارت:** أعدك يا أبت كن على ثقة!...

**باريد:** حسـناً جـداً... يـا ولدي! هكذا تسعد والدك، **(يدخل إلى المنزل)** مسكين كوركين...

## المشهد الرابع

### فارت بمفرده

**فارت:** والدي المسكين!... كم أحزنته!... شوشان... انظري من أجل حبك أدمعت عيني والدي العجوزتين... أعلمُ أنك في ناظري أجمل من والدي عندما تخلدين للنوم بهدوء في أحضاني وعندما ترددين على مسامعي "أنا أحبك"... أنت جميلة جداً... آه... وحلوة جداً... **(يجلس على مقعد ويغطي وجهه بيديه).**

## المشهد الخامس

### فارت وسورماك (يدخل هذا الأخير من الجانب الأيسر وهو يتظاهر بالتسول)...

**سورماك:** لننته هذه المرة التسول... احتراف هذه المهنة أسهل من اللصوصية وأكثر أمناً من الإجرام.. رغم هيامي بـ "شوشان" إلا أنني لا أستطيع الابتعاد عن الذهب... منذعدة أيام تنتابني هواجس بخل غريبة **(يشاهد فارت)** أعتقد أن هذا الشاب هو "فارت"... كم هو بائس!... هيا بنا... لنقم بواجبنا "فارت" غني بما فيه الكفاية... والآن لأختلق قصة مأساوية... عندها لن أحرك مشاعر الجالس أمامي فقط وإنما سأعمل على إفراغ جيوبه كذلك. هذه مهنة تجلب السعادة، يصبح المرء صاحب ثروة بدون تعب... **(يقترب من فارت)**...

**فارت:** لماذا أنت هنا، أيها الرجل الطيب، ماذا تريد؟.

**سورماك:** **(يتظاهر بالبكاء)**... إذا نظرت إليّ بإمعان ستعرف سبب مجيئي إلى هنا!!.

**فارت:** أعتقد أنك فقير وجئت تطلب حسنة...

**سورماك:** أنظر كيف يعطف إنسان محب للشفقة، على رجل بائس مثلي. ولدي الحبيب... أولادي ثلاثة لا أم لهم.. كسرت يدي اليمنى قبل

ثلاثـــة أيــام... ولــم يعد بإمكاني تامين الطعام لهم. أنا جائع منذ يوميــن... تعانــي أســرتي مــن الفقر والجوع... تجمّع الصغار المســاكين حولي وهم يرددون: "أبي نحن جياع"... كم مرة حاولت الانــتحار بعــد أن فقــدت الأمل لكني تراجعت خوفاً على مستقبل أطفالــي... ورحــت أتســول مــن مــنزل إلى آخر طالباً الشفقة والإحســان... طردني الكثيرون... وما أن حصلت على قليل من النقود حتى سرقني اللصوص خلال العودة إلى المنزل... آه... أنت فقط أيها الفتى النبيل تعرف معنى الرحمة... امنحني قليلاً من المال إرضاءً لحبيبتك.. انقذ هذه العائلة البائسة...

**فارت:** أيهــا الــرجل المسكين.. خذ هذا المبلغ وانصرف بسرعة لتعتني بأطفالك... هذا المبلغ الذي أعطيتك إياه هو كلّ ما أملكِ... (**يعطيه النقود...**)

**سورماك:** (**يأخذهــا**) شــكراً لك أيها الفتى النبيل... أرجو من الله ألا يحرمك ممــن تحــب إلى اللقاء (**بمفرده وهو ينصرف**) فارت المسكين... بعدمــا ســرقت حبيبــته، ها أنا أسرق ماله. بدأ عملنا يثمر بشكل جــيد... لنــتابع... (**عند انصرافه تطل أمامه "مريم" وجهاً لوجه فيسرع الخطى... تصرخ "مريم" بفزع ويغمى عليها**)...

## المشهد السادس

### فارت ومريم

**فارت:** مــاذا جــرى لهــذه المرأة؟ لابد أني أعرفها... أمي؟... نعم هذه أمــي!... يــا له مــن مشهد يهز المشاعر!! من كان يا ترى هذا العابــر؟! (**يحمــل مــريم ويــتابع**) أمي... أمي... ماذا حدث لك فجأة؟!... تماسكي... كلميني؟!.

**مريم:** (**تعود لوعيها وتنظر إلى فارت**) يا إلهي ماذا أرى؟!.

**فارت:** لا تتفاجئي أمي... أنا "فارت" ابنك بين يديك!!

**مريم:** أنت تكذب! ألم يفارق "فارت" الحياة في تلك الليلة اللعينة؟!

**فارت:** لا... لا... اسـتطاع "فارت" النجاة من طعنة ذاك اللئيم... ويا ليته لقـي حـتفه يومـئذ... لكن أخبريني يا أمي من هو هذا المتسول؟ ولماذا حزنت عندما رأيته؟.

**مريم:** **(بمفـردها)** أيها الفتى المسكين! إنه لا يعرف غريمه!! **(ثم بصوت مرتفع)** إنه وحش اتخذ شكل ذاك الإنسان الذي يثير الشفقة...

**فارت:** وحش... هل تقولين الحقيقة؟!

**مريم:** ولماذا جاء إلى هنا؟

**فارت:** جاء يتسول طالباً الحسنة... أخذ مالي ورحل...

**مريم:** **(تلعن سوروماك)** أيها الخارج عن القانون، ألم يصبك الهلع من أن تطـأ قدماك هذا المكان حيث تنتظرك اللعنة؟ آه!!! ألم تحطم لعنات هؤلاء الأبرياء رأسك عندما خطفت الحبيبة من حضن حبيبها؟ بتّ منـبوذاً ومحـتقراً حتى من قبرك! تقف قدمك فوق جثث الأبرياء والأخرى تتطلع إلى أفمام الجحيم... لم يعد برق السماء يخيفك! لا تزال تدمى هذه الحياة بما تقترفه يداك دون شعور بالندم!!..

**فارت:** آه... خطف "شوشان" **(يهرع إلى الجانب الأيسر من الخشبة)**...

**مريم:** توقـف، توقـف... آه لقد ذهب **(تعود لرشدها)**... هل يا ترى هذا ولدي الذي رأيته؟! حتماً إنه هو... وربما... يكون شبحاً لم يعرف الراحة فهرب من قبره للبحث عن حبيبته؟.

## المشهد السابع

## باريد ومريم

**مريم:** فارت... إياك أن تقتله... ماذا أفعل؟.

**باريد:** **(يدخل)** ماذا تقولين أيتها المرأة؟ ولدي يقدم على القتل؟...

**مريم:** إن ولدي يهرع للوقوع في أيدي مجرم... أنقذوه!!

**باريد:** ماذا حصل يا إلهي؟ لكن من أنت؟

**مريم:** (دامعة العينين) أمه

**باريد:** (بدهشة) مريم!!

مريم، تجثو على ركبتيها أمام زوجها...

(يسدل الستار)...

**نهاية الفصل الثاني**

## الفصل الثالث

**في المشهد: حقل زاهر... وتلة في الجانب الأيمن خلفها جبال مرتفعة... يتهاوى شلال فوق سفحها**

### المشهد الأول

**فارت (بمفرده)**

**فارت:** حتى متى سأتشرد في البراري أبحث عنك وقد تقطعت أنفاسي بعيداً عن دارُ أهلي. "شوشان" أطارد اللص الذي اختطفك؟. آه... لو صعدت إلى السماء دعيني أرَ وجهك لو مرة واحدة من وراء الغيوم... لأنظر إليك... لأتطلع إليه ثم أموت... لأصعد إليك وأضمك، آه يا حب... ليتني لم أذق يوماً طعم حلاوتك وحزنك؟! لكن بماذا أتفوه الآن؟... وقعت في غرام "شوشان" وفي سبيل هذا الحب كانت أول قبلة وبسمة وتنهيدة ودمعة... عندما تراودني ذكريات تلك الأيام كيف نمضيها متعانقين نلتقط أنفاسنا معاً... تبدو لي الآن الليالي التي أمضيتها بعيداً عنها كأنها عاصفة لا تعرف شروق الشمس!... يا ملاك الرحمة انزل من أهاليل السماء واجمع دموعي بين راحتيك لتقدمها إلى العلي القدير... وأخبره أني لن أنساها ما حييت...

## المشهد الثاني

فارت وكيغام (يبدو الأخير نحيلاً، شاحباً ومرهقاً)

**فارت:** (يرى كيغام يسير بخطوات بطيئة مثقلاً بالهم)... هاهو شاب آخر فاقد الأمل... أعتقد أنه هو أيضاً أضاع حبيبته، ويشعر بالشقاء مثلي... ولشدة معاناته يبدو شبيهاً بالأشباح..

**كيغام:** اعتقيني أيتها الذكرى الظالمة ولو لفترة قصيرة!! ألا يكفي وقوع القلب أسير حبك؟... لكنك لا تصغي إلي!... أنت لن تهجريني حتى يغشى الظلام عيني.. أيها الحب إلى متى ستلعق دماء فؤادي كما تفعل الأفعى؟ "شوشان"! يا ليت عينيّ لم ترياك قط...

**فارت:** (على انفراد): شوشان! يا للسماء! ما هذا الاسم الذي انطلق من فم هذا الغريب؟ (يتقرب من كيغام)... الفتاة التي تلفظت باسمها قبل برهة... هل تعرفها؟ هل رأيتها؟ تكلم بسرعة تكلم؟!

**كيغام:** تلك الفتاة... آه... إني احبها...

**فارت:** تحبها؟! لكن هي، هل تبادلك مشاعرك؟!

**كيغام:** رفضت حبي...

**فارت:** لكن متى؟ وأين رأيتها؟

**كيغام:** منذ أكثر من شهر، خلال إحدى الأمسيات عند أطراف الغابة... هناك صارحتها بحبي... لكنها أبَت أن تبادلني مشاعري... لأنها تحب شاباً آخر يدعى "فارت"... كانت لا تنقطع عن ترديد اسمه...

**فارت:** آه يا "شوشان".... كنت أعلم أنك تحبينني بكل جوارحك...

**كيغام:** ماذا؟ تحبك؟ إذن أنت هو "فارت"!! لكن أين هي الآن؟ اعمل معي معروفاً... دعني أشاهدها للمرة الأخيرة،، كما ترى سأفارق الحياة قريباً!!.

**فارت:** وأنت، ألا ترى دموعي؟.

**كيغام:** آه... لقيت حتفها؟.

**فارت:** كلا... تم اختطافها.

**كيغام:** اختطافها؟

**فارت:** الآن أنا أيضاً أريد رؤية وجهها حتى لو للحظة... لكنها غير موجودة هنا...

**كيغام:** إذن سأموت دون أن أشاهدها ثانية؟

**فارت:** وستلعن "شوشان"؟ لأنها رفضت حبك.

**كيغام:** آه... كلا... سأباركها قبل أن ألفظ أنفاسي الأخيرة... فأنا لا أزال أحبها... سألعن ذاك اليوم الذي رأيتها فيه في الحقل جالسة قرب ضفة النهر تنظر إلى مياهه... لم أدر يومئذٍ من هو الأكثر نقاء، هي أم الجدول؟.

**فارت:** آه... يا "شوشان"! ألست أنقى من الجدول؟

**كيغام:** نعم... كانت تنقصني هذه اللطمة الأخيرة.. هل سأقضي نحبي؟ **(يتوارى وراء التلة).**

## المشهد الثالث

### فارت (بمفرده)

**فارت:** منذ الصباح يثقل علي النعاس... مرت ثلاثة أيام ولم يغمض لي جفن... آه لأغفو هنا قليلاً... ربما تتراءى لي "شوشان" في الأحلام فيزول شوقي إليها... شوشان لا تنسيني أبداً... **(يهم بالرقاد مستنداً إلى شجرة تسمع الأغنية التالية، فينصت إليها بقلق ودهشة...)**

أغنية حب

1 ــ آه أيها الفجر الشهي اللذيذ

انثر فوق الأرض الندى والشذرات

وظلال الغابة الحالمة،

لتسمع زغاريد الطيور الجميلة.

2ـ هيا استيقظ بسرعة يا فارت،

مع حقول وغابات آرارات،

هناك لنذرف الدموع حتى المساء،

قلباً لقلب ويداً بيد.

3 ـ قبلة، مقابل ألف مصيبة،

هناك ننعى الحب،

نذراً للمحبة الأبدية،

بالشفاه، بالقلب وبالروح.

**فارت:** هذه الأغنية؟! وهذا الصوت؟ يجب أن أتذكرهما.. إني أرتجف وقلبي يخفق بشدة... نعم... هذا صوت "شوشان"... لكن أين أنا؟ في السماء، على الأرض؟! نعم، نعم تلك الأغنية التي كنت أسمعها يوم كانت تجلس قرب سريري... أيتها السماء، أيتها الأرض أجيباني؟ أين شوشان؟ من أين جاء صوتها؟ "شوشان" أنا هنا، هنا... لكن أين أنت؟... لأحملك وأضم يديك إلى قلبي؟! **(يرحل مسرعاً من الجهة اليسرى)...**

## المشهد الرابع

**يطل باريد وبرفقته "مريم" (من الجهة اليمنى)**

**باريد:** آه كم أنا تعب... نعم... سرنا مسافات طويلة!! متى سنجده؟ هل غادرنا "فارت"؟ ولدي الحبيب وأملي الوحيد... كان السند لشيخوختي...

**مريم:** تحلَّ بالصبر يا زوجي العزيز!!

**باريد:** ألصبر؟!.. نعم سأتجلد... لكن ها قدْ مرت أيام عدة على مغادرته المنزل، ابتعد وترك والده العجوز يائساً... فراق "فارت" عاصفة

اقتلعت كياني... هبّت ولن تهدأ إلا يوم رحيلي عن هذا العالم... لا يذرف الولد إلا دمعة عند وفاة والده...، أما الأب فيذرف كلّ لحظة دموعاً ليظل ابنه على قيد الحياة... آه لا يعلم الأبناء ما معنى الأبوة... فارت، فارت... كم أنت قليل الوفاء لوالدك؟ والدك الدائم التفكير في كيفية إسعادك... أنت نسيته من أجل حبيبتك!!.

**مريم:** زوجي العزيز... أنت لا تعلم كيف يتغلغل تأثير الحب في قلب شاب يافع لم يتجاوز السبعة عشر عاماً من عمره... عندما تزهر بذور الحب في فؤاده ينطفئ وهج عاطفته نحو أبويه... ورغم ذلك فإن دمعة واحدة من عين أب تكفي لإخماد مشاعر ذاك الهيام... تجلد سنجده حتماً ونعود إلى منزلنا لننعم بحياة سعيدة هادئة... **(على انفراد)** لكن ماذا بالنسبة لولدي "كيغام"؟ لا أستطيع أن أكون سعيدة بدونه.

**باريد:** نعم سأتحلى بالصبر... لكن إن لم نجده، ماذا سأفعل؟... آه هل أقدمَ على إزهاق روحه في لحظة يأس؟ يا لهذه الشكوك التي تساورني!! أي نهر ابتلع جسده؟، فأسكنه مياهه، أي مكان اصطبغ بدمه الأحمر القاني؟! فارت!، فارت! هل أذبلك الموت، كما تذبل عاصفة الشتاء الورود؟ آه، هل يبشر أحدهم الوالد الثاكل أنه قدْ يجد وحيده على قيد الحياة؟! كأن الطبيعة حزينة على بني **(يلتفت إلى الجهة اليسرى)** ماذا أرى؟! هاهو أحدهم يطوف في الغابة؟ هل هو فارت؟!... يا لسعادتي إن كان هو **(ينصرف)**!!.

**مريم:** اذهب لملاقاته قدْ يكون "فارت".

## المشهد الخامس

### مريم (بمفردها)

**مريم:** لكن من سيعيد إليّ ولدي "كيغام"؟! بالرغم من أنه ثمرة جريمة خيانة العهد لمن أحبه... لقد فقدت ولديَ... عندما أجد أياً منهما ربما سأتمكن من نيسان الآخر... زوجي المسكين، كم هو بائس؟!

ربما وجد "فارت" **(تنصرف من جهة اليسار).**

المشهد السادس

كيغام **(يفتش عن أحدهم)**

**كيغام:** لقـد رحلـت... سـأموت.. هاهي المنية تنشب مخالبها تنتظر أن أضـمها.... ليدفن حبي وأملي تحت تلك الأزهار.. ما أنا؟ وكيف أصـبحت؟ تحولت إلى خيط وصوت مرثي... يد خفية تدفعني إلى قـبر حفـره الحـب بسـواعده المدماة... سأنزل إلى هذا الرمس "شوشان"... أحبك كثيراً!! ليكن قاعك عميقاً أيها القبر كي لا تتسلل أصـوات وكلمات وقبلات الحب من سطح الأرض... أيها الحب، جـلاد الشـبيبة!! أنت من يشحذ سكينه باستمرار! إلى اللقاء أيتها الغابـات والحقـول... ومرابع الطفولة... وداعاً يا أمي... لتجتمع الدمـوع التـي تذرفينها فوق قبري... انهارت قواي... قدماي لم تعودا تحملاني **(يسقط أرضاً)** شوشان!! أمي!!..

**المشهد السابع**

**"كيغام" و"مريم"**

**مريم:** مـا هـذا الصوت الذي سمعته؟ كأن أحدهم يناديني "أمي"! **(تشاهد "كيغام" فتقترب وتمعن النظر إليه ثم تصرخ)**... كيغام!!.

**كيغام:** أمي! أهذه أنت؟!

**مريم:** قف على قدميك، قم انتصب.. ضم أمك يا ولدي!

**كيغام:** آه لا أستطيع!

**مريم:** مـاذا جـرى لك يا بني؟ يا لوجهك النحيل والشاحب... يا لهاتين الركبتين الضعيفتين!

**كيغام:** أحببت فتاة، لكنها رفضت أن تبادلني مشاعري!!.

**مريم:** الحب، مرة أخرى؟

**كيغام:** فرميـت نفسي صوب الجبال... لم أكن راغباً في الطعام والشراب

ولا حتى في تنفس الهواء... عبثاً حاولت أن أنساها... نسيتك ولم أتمكن من نسياتها... طيفها كان يطاردني كما يطارد الجلاد ضحيته... كان يدفعني لإطلاق الزفرات والتنهدات... امي كانت تضعف قواي بحيث لم أعد قادراً على وداعك للمرة الأخيرة اليوم...

**مريم:** بني... سأحرم من وجودك بقربي... لن أتمكن من تحطيم أبواب ستفصلني عنك اعتباراً من اليوم... تلك التي تحول دون الابن وأمه وقد اغرورقت مقلتاها بالدموع...

**كيغام:** أمي لا تغرقي قلبي المحترق بالدموع لأنها عوضاً عن أن تطفئه ستذكي لهيبه... دعيني أذرف الدموع الأخيرة في الدقائق المتبقية لي من عمري... لأنها ليست كالدموع التي ذرفتها خلال طفولتي... إنها اليوم قطرات من دماء فؤادي تخرج من مقلتي بعد أن نضبت دموعي...

**مريم:** آه ثم آه... أهكذا هي الحياة؟ وهكذا يكون الإنجاب؟ لتتمتع الأم بولد يجب أن تنعم بقلب لا يكل ولا يتعب!!..

**كيغام:** إذن لماذا جئت بي إلى هذه الدنيا؟ إن كنا سنبقى أنت وأنا هكذا يائسين؟.

**مريم:** ألا ترى أنه الحب!!...

**كيغام:** كملاك جميل تراءى الحب لأول وهلة.. استقبلته لشدة روعته لكن فيما بعد وجدت أنه يفتقد لتلك الروعة... وجدت الحب جلاداً يتعقبني بدون هوادة والهراوة بين يديه... وأخيراً أمسك بي وأصابني في مقتل... لكن لتتبارك السماء، إنها لم تحرم شاباً مثلي من رؤية والدته... ضميني إلى صدرك للمرة الأخيرة يا أمي!...

**مريم:** آه هل ستترك أمك هكذا يا ولدي؟

**كيغام:** أسدل الظلام أمام ناظري... هاهو شبح الموت أمامي يقف منتظراً... وداعاً يا أمي... **(يلفظ أنفاسه الأخيرة ويموت)**...

مريم: ساعدوني... ساعدوني... ابني يقضي نحبه... آه لقد مات... أصبح جثة هامدة... لم يعد "كيغام" حياً... سأقضي بقية حياتي أنتحب فوق قبره...

المشهد الثامن

"مريم" و"باريد"

باريد: **(يبدو فاقد الأمل)** عبثاً... ليس هو...

مريم: **(ترى باريد)** آه...

باريد: من هذا؟... إنه ليس "فارت" **(يقترب من الجثة)**

مريم: هذا ولدي... **(يسدل الستار)**...

**نهاية الفصل الثالث.**

## الفصل الرابع

**توزيع الديكور: كهف مظلم، أقواس، حفيرة في جداره، قنديل يتدلى من القوس....**

## المشهد الأول

"سورماك" **(يغط فوق المقعد ويسمع شخيره)** و"شوشان" **(نائمة داخل الحفيرة)**

سورماك: **(يهب منتفضاً عكر المزاج يتلفت حوله... ينظر باتجاه الحفيرة، فيهدأ)**... لازلت طليقاً وسعيداً... ولا تزال شوشان في قبضتي... آه! ما هذا الحلم المزعج الذي رأيته؟... لا يزال قلبي يخفق من شدة الخوف... هاأنا أرتجف كلما تذكرت ما حصل... لماذا لا أستطيع أن أنعم بحب هادئ؟! أيتها السماء الظالمة، لماذا سلبتني راحة الفؤاد؟ ما أن يحل المساء حتى أستشعر جلادين يحومون حول رأسي... يتربصون بي... لباسهم أسود، يرمقونني بنظرات مدججة بالتهديد والوعيد... تمر ذكريات الماضي أمام ناظري، أما

خلال النهار فأشعر أني لستُ على ما يرام... خيال والدي المسكين لا يبرح مخيلتي وقد وضع يده الباردة فوق صدري وراح يضغط لجهة قلبي!!. أتذكر ذاك المساء الرهيب حين قفزت من فراشي وأنا أرتعد خوفاً... التفت حولي فزعاً... رفعت عينيّ إلى السماء لأشاهد القمر يرمقني بوجهٍ عابس... تسمرت في مكاني كتمثال جامد...، ثم تقدمت بتردد... تراءت لي حبيبتي آنذاك فتشجعت... لأني كنت أمني النفس بالعيش إلى جانبها طليقاً، وصلت ساعتها أمام غرفة والدي... دخلت... وجثوت أمام فراشه... رغماً عني انطلقت زفرات حسرة من أعماق قلبي، رحت أتصبب عرقاً بارداً... عندها، انتهى كلّ شيء... فقد أقدمت بيدي هاتين على إزهاق روح أب كان يقف حجر عثرة أمام مشاريعي المريبة... لا تزال نظراته الأخيرة ترافقني...

**شوشان:** **(تحاول خداعه)** كم أحبك!!

**سورماك:** عندما أسمع هذا الصوت الرقيق أشعر بالسعادة. وعندما أحضن "شوشان" تسكن نفسي وتهدأ... كنت قاسياً معها مراراً... وما أن استغاثت حتى ركنت تلك القساوة جانباً كي لا يخرج والدي من قبره وينضم إلى صفها... كانت نائمة كما هي عليه الآن في حالة إغماء... اجتاحتني رغبة همجية... كرهتني على إثرها وراحت تبكي... لكنها بدأت تحبني وتعطف عليّ... كم هي جميلة؟... كأنها ملاك هبط من السماء وحط على الأرض من أجل الحب!....

**شوشان:** **(تعيد ترديد الكلمات اللاحقة)** أنا أحب "سوماك"؟! هذا الخارج على القانون؟! مستحيل، أنا أكرهه!!.. أتظاهر أني أكن له الحب كي يثق بي ويخرجني من هذا الكهف المظلم...

**سورماك:** أيتها الشقية! افتضح أمرك... ابتساماتك إذن كانت كاذبة؟! ستدفعين غالياً ثمن تلك الاعترافات!...

**شوشان:** **(تصحو حزينة وتقترب من سورماك)** هل لا يزال الظلام يخيم على النهار؟ سورماك... أشرق الفجر كما أعتقد... لأني أسمع

زقزقة العصافير عن بعد.قلت لي: أنك سوف تدعني أشاهد شروق الشمس اليوم وقد حرمت منها منذ زمن... كم أنت طيب القلب؟!... وكم أحبك يا سورماك؟

**سورماك:** اتركينـــي أيتها المنافقة اللعينة! أنت تخدعينني... أعرف ماذا وراء بارقـــة البسمة في عينيك؟ إنها تخفي كرهك لي يا ناكرة الجميل... أنا أحبك وأنت تعمئين على ابتزازي بابتسامتك غير المبالية!!.

**شوشان:** مـــاذا تقـــول سورماك؟ هل جننت أم أنك تمزح؟! **(على انفراد)** يا إلهي لم أعد لأفهم؟ يا ترى ما الذي جرى له؟!

**سورماك:** لا... لا... أدرك جيداً ما أقوله!! كنت أستمع لتنهداتك خلال نومك وأتلمـــس الدمـــوع المنهمرة في الظلام فوق وجنتيك... وأرى قلبك محـــزوناً تنعكس فوق صفحات وجهك الصفراء أمواجه المتلاطمة كأنها في المرآة!! لا تعقدي الآمال على حبك المخادع لأنه ليس له أي تأثير على قراراتي القادمة!....

**شوشان:** أخطـــأت سورماك بشكوكك تلك أخطأت بحق مشاعري... هل تعلم أن كلماتك كالسهام تصيبني في قلبي؟!....

**سورماك:** إن كان الأمر هكذا فأقسمي أن قلبك يحمل الحب الصادق... ها أنت صـــامتة لا تريديـــن الـــتفوه بكلمة! هل جعلك هذا الكلام تصابين بـــالهلع؟... إذن استنشـــقي عـــبق ظلمات هذا الكهف! وبللي هذه الحجـــارة بدموعـــك! أو فجـــري هـــذه الأقواس بتنهداتك، لا أحد سيسمعك ويعطف عليك... ليس في الجوار سوى سورماك!

**شوشان:** آه... إنك تعذبني بقسوة... سورماك! من عهد إليك أمر طعن قلب نذر بهذه الطريقة؟ كنت بدأت للتو أقطف الزهور من بستان الحب وأصـــنع مـــنها باقة؟ لتعمل على خطف تلك الباقة من يدي فتضع مكانهـــا باقة من الشوك... كنت قد بدأت أشعر للتو بالحب والحيرة فـــي ظل بساط السماء الأزرق المطرز بالنجوم... لكنك فتحت أمام أقدامي هاوية دفعتني إليها قسراً... أنتحب الآن تحت ظلال أقواس

مظلمــــة... نعم... أكرهك "سورماك"! فلتذرف دموعي تحت جناح هذا الظلام بسكينة... هنا لن يرأف بحالي أحد؟!

**سورماك:** لا تتكلمـــي هكـــذا يـــا "شوشان"!! بادليني الحب لتعرفي السعادة! واعلمي ما أن ترسم وجنتاك ابتسامة الحب الصادق حتى يفيض هذا الكيف المظلم بالنور... وتتحول تلك الابتسامة إلى شمس تنير قلبي وقلـــبك... مـــا أن تبتسمي حتى تلبس تلك الأقواس السوداء اللون الذهبـــي... سيتوارى كل منا كالزهرة في هذا المكان الموحش أما عندما ستمنحني شفتاك قبلة الرضا فستجول تمتماتها كموسيقا قيثارة طرية في تلك الأرجاء... ماذا تريدين أكثر من هذا؟!

**شوشان:** أمراً واحداً فقط! لا تعرفه أنت!...

**سورماك:** لكن عندما ستحبينني بصدق سأدعك ترينه شخصياً دون قبره.

**شوشان:** هل "فارت" حي يرزق؟... لا... من غير المعقول! ألم تقض عليه؟ يـــا ظالم إنك تعذبني باستمرار... توقظ في مخيلتي ذكريات حزينة دفنـــت في أعماق قلبي... أنت تخدعني... تخبرني أنه حي يرزق كي أعتقد أنك لست قاتله!!.

**سورماك:** أقسم، إن بادلتني الحب سترينه!

**شوشان:** لســـت أثق بقسمك، حتى وإن رأيته بأم عيني سأصرخ أني في حلم كـــاذب لـــيس إلا... وإن رؤيته محض خيال **(بيأس تغطي وجهها بيديها ثم تتجه لتجلس جانباً)**...

**سورماك:** **(علـــى انفراد)** يجب أن أدعها وحيدة لتعاني مزيداً من اليأس... ثم أعود فتضمني إليها... لأذهب وأحضر قليلاً من الطعام**)**.

## المشهد الثاني

### "شوشان" (وحيدة)

**شوشان:** لقـــد خـــرج... أنا وحيدة مع الظلام والصمت مرة أخرى! حاولت مـــراراً الهـــروب مـــن هذا المكان الرهيب لكني لم أعثر على أي

مخرج! عبثاً توجهت من هنا إلى هناك.. ارتطم رأسي بالأقواس... لكنـــي لن أستمر في هذا البحث بسبب مخاوفي ويأسي... آه كم أنا شـــقية! لـــو تعلـــم يا فارت، كيف تنهمر دموع قيثارة حبي قطرة، قطـــرة... قيثارة كانت تعزف ألحان الحب السعيدة... لماذا أنا على قيد الحياة؟ إني أقبع وسط هذا الظلام لا أرى بصيص أمل؟! سوف يمنحني الموت جناحين قويين أحلق بهما في طريقي إلى السماء... هـــناك ســـأبحث عـــن "فارت"... سوف أجده في الجنة جالساً بين الزهور يبكي من أجلي... سأمسح دموعه وسنتبادل الحب إلى ما لا نهاية.. فهناك لا وجود للأعداء... سأبتعد عن هذا المكان الجهنمي لا مبالـــية بهذه الحجارة التي امتصت دموعي... لا مبالية بأقواس تسخر أصداؤها مني كلما تنهدت يائسة **(تصـــطدم قدمها بخنجر)**... مـــا هـــذا؟ **(تلتقطه)** آه! لقد وجدت سلاحي!!. ابتعدي عن دربي يا ذكرياتـــي الســـعيدة؟!!! ابـــتعدي عـــن ناظـــري يا ظلال الطبيعة العجائبـــية!! عبـــثاً تســـحرينني! الأرض ليست سوى وردة مليئة بالأشـــواك... أمـــا الســـماء فهي وردة دون أشواك... هناك وقع أقـــدام... هـــاهو قادم... آه... لا أريد رؤية وجهه الشيطاني مرة أخرى **(تطعن صدرها بالخنجر)**.

## المشهد الثالث

### "فارت" و"شوشان"

**فارت:** **(يأتي متلمساً طريقه)** يا لرهبة هذا الظلام والصمت... "شوشان"؟، "شوشان"؟ أين أنت؟...

**شوشان:** يـــا إلهـــي... هذا الصوت... هل هي الهلوسات؟ هل يا ترى كنت أحلم؟.

**فارت:** "شوشان"! أصدري صوتاً! أنا "فارت"!...

**شوشان:** يــا للســماء!! سوف أجن الآن... لكن هل هذه خدعة أخرى؟ لقد توفي...

**فارت:** "شوشان"... **(يقترب)** أين أنت؟ آه **(يحملها بين ذراعيه)**.

**شوشان:** **(تتأمله)** آه! هل أنت هو حقاً؟

**فارت:** ألا تعرفينني؟ هل نسيتني؟ "شوشان"؟

**شوشان:** لا... لا... نسيت لون السماء والورد ولم أنس وجهك... لكنه ليس سوى حلم... سراب!!... لأن فارت قتل...

**فارت:** اهــدأي "شوشـــان"! لم أزل على قيد الحياة!!... نجوت من ضربة "سورماك"... لكن لنذهب لنبتعد عن هذا المكان المخيف.

**شوشان:** لكن، كيف وصلت إلى هنا؟ كيف علمت أني حبيسة هذا المكان؟!.

**فارت:** قــبل بضعة أيام... عندما كنت أتنقل مشرداً حزيناً بين هذه الجبال الوعــرة ســمعت فجــأة صــوت غناء... عرفت أن الصوت كان صــوتك... فأســرعت كالمجنون أتتبع مصدره... أفتش عنك هنا وهــناك... لكن عبثاً بحثت!! تضاعفت أوجاع قلبي... لكن بفضل العناية الإلهية ومساعدتها عثرت البارحة على مدخل هذا الكهف... ورحــت أنصت للأصوات الصادرة من داخله!!... لأسمع صوت "سورماك"، ثم صوتك... فاختبأت بعيداً بين الأدغال من شدة فرحي منتظراً خروج "سورماك" لأدخل... لكنه لم يخرج... قضيت ليلتي هــناك ثــم نهضــت عــند الفجر ورحت أراقب المكان... رأيت "ســورماك" يهــم بالخروج، أردت الهجوم عليه، لكني عرفت أنه يحمــل ســلاحاً فلــم أجرؤ على ذلك... خفت أن يقضي عليّ هذه المــرّة... فــلا أتمكــن من إنقاذك... تركته يبتعد وبصعوبة بالغة تسـلقت إلــى هــنا... وهاأنا إلى جانبك... لكن لماذا لا تسرعين؟ لنذهب!!... لكن ما هذه اللزوجة التي بين يدي؟... ما هذا؟ خنجر!! **(يصــرخ مــرتعداً)** يــا إلهــي! "شوشان" بكاؤك يخيفني... كذلك صــراخك؟!... آهِ قولــي لي، ماذا هنالك؟ ماذا يجري لك؟ سوف

أصاب بالجنون؟ إني أرتجف رعباً... آه.. الدماء تسيل من قلبك!! ماذا فعلت "شوشان"؟! ساعدوني!... ساعدوني!...

**شوشان:** حاولت... "فارت"... الطعنة في قلبي **(كلماتها متقطعة)**...

**فارت:** آه! أعطني الخنجر على الأقل كي أموت معك!!...

**شوشان:** لا... لا... سوف تعيش...

**فارت:** لماذا؟

**شوشان:** لتثأر لي!

**فارت:** ربما "سورماك"... ذاك الوحش.

**شوشان:** بخبثه، انتزع مني كنزاً كنت قدْ خبأته لك!

**فارت:** ماذا تقولين؟ "شوشان" هل تريدين أن أدفن حياً.؟ تلك الكلمة أخافتني أكثر من الموت... جمدت دمعي...

**شوشان:** ها أنذا أريد الموت من أجل ذلك... لأني كنت أعلم أني لا أستحق حبك.. وأعلمُ أنك ستلومني... لكن.. لو تعلم كم تعذبت وتألمت بعيدة عنك... دون أن أرى بصيص شمس... دون أن أستنشق نسمة عليلة... إذن أنت تكرهني؟ "فارت" ألا تشفق علي؟ ألا تسامحني؟.

**فارت:** لا أستطيع أن أكرهك "شوشان" لكنني فقط ألعن ذاك الذي جعلنا بائسين... آه إن غيّبك الثرى "شوشان" ماذا سأفعل أنا في هذه الدنيا وحيداً؟ أنا أيضاً أريد أن أموت!!

**شوشان:** لا...لا يا "فارت"... سوف تصلي وحيداً حتى توافيك المنية، فوق الجبال، من أجل روحينا كي نكون سعيدين في السماء إلى الأبد! لا تبك من أجلي! لكن اعلم أن الملائكة، عندما نصل إلى السماء ستمسح لنا دموعنا... هناك سنستمر في الابتسام وسوف أسألك وتسألني: ما هو الدمع؟ سوف نرتاح بين الزهور ونغفو لأنه ليس هناك من يستطيع التفريق بيننا!...

**فارت:** لكــن حياتــي بدونــك ســتكون عبارة عن دموع لا تنقطع.. أنت ستكونين سعيدة في السماء أما أنا فسأظل يائساً باستمرار على هذه الأرض...

**شوشان:** ســوف أركــع وأصــلي دائماً أمام كرسي العلي القدير كي يعيدك بسرعة إلى أحضاني... وتلك الباقة المعبأة بالدموع سأقدمها للعلي القدير...

**فارت:** لكــن عــندما سأصحو من تلك الأحلام الجميلة سأعاني من مرارة الحرمان وسأظل أطلب الرقاد كي أحلم بك...

**شوشان:** كــيف أفــارقك "فارت"؟ هاقد أزفت الدقائق الأخيرة في حياتي... ليقــترب هــذا القلب الدامي لآخر مرة من صدرك لأنه سيجمد بعد قليل.. هات جبينك ليلمس شفتي قبل أن تذبلا... قبلة أخيرة أطبعها فوقه... حبيبي "فارت" لا تبعد تفكيرك عني حتى لو للحظة... وإلا ستمسي تلك اللحظة بالنسبة لي ليلة حزينة... لا تتركني "فارت"... ضمني أكثر فأكثر إليك... وداعاً... **(تنطفئ "شوشان")**...

**فارت:** آه... هــل مت يا "شوشان"؟ ذبلت أيتها الزهرة الجميلة!! أغمضت عينــيك إلى الأبد!! آه افتحيهما مرة أخيرة لأرى وجهي من خلال مقلتــيك الســوداوين.. عبــثاً أصــرخ بعد الآن.. لم تعد "شوشان" موجــودة... "شوشان" الرقيقة أصبحت جسداً بارداً دون إحساس... ســرق المــوت القبلة من شفتيها بيديه الباردتين... لم يعد قلبي ــ "شوشــان" ــ يشعر بالنشاط يدب فيه... كأن ظلال الموت أسدلت فــوق جســدي... هــناك وقــع أقدام تقترب! من القادم يا ترى؟! **(أصوات من الخارج)**.

**الراعي:** نعم رأيت فارت بأم عيني يدخل إلى هذا الكهف!!

**فارت:** من يبحث عني؟

## المشهد الرابع

**الشخصيات المذكورة سابقاً يضاف إليها "باريد" و"مريم" و"الراعي" يحمل فانوساً**

باريد: احمل الفانوس إلى هذا الاتجاه! (**يتكلم مع الراعي**).

فارت: أبي؟

باريد: ماذا؟ هل سمعتم صوتاً؟

مريم: نعم صدر من هذا الاتجاه!.

فارت: أنا هو... أنا هنا.. يا والدي... أمي...

باريد: نعم إنه صوت وحيدي (**يقترب ويحمل فارت**)، أخيراً وجدت ولدي الحبيب...

مريم: ماذا تفعل في هذا السجن القفر يا بني؟

فارت: (**يريهم الجثة**) انظروا!...

**الجميع بصوت واحد** "شوشان" ميتة؟!

فارت: كنت أبكي عليها...

الراعي: هناك صوت أقدام قادمة من هذه الجهة!! أحدهم يقترب!!

## المشهد الخامس

**الشخصيات المذكورة يدخل "سومارك"**

**سومارك:** الموت واللعنة... من هناك؟ من يجرؤ على أن تطأ أقدامه كهفي؟!

**مريم:** (**على انفراد**) هذا هو

**فارت:** (**يتقدم نحوه**) أنا جئت لأنتقم منك.. هذا الجسد يطلب دماً أيها السافل

**سورماك:** "شوشان" ميتة (**بعد أن يشاهد الجثة**)... **الويل لكم أيها البؤساء (يهاجم "سورماك" فارت والخنجر بيده، فتلتقط مريم خنجراً من الأرض وتطعن "سورماك")**.

**مريم:** توقف أيها الخارج على القانون!!..

**سورماك:** لقـد ضـعت **(يضع يده فوق صدره)**... أخذت بثأرك أخيراً **(يقع متدحرجاً على الأرض)**...

**فارت:** أمي!!...

**باريد:** ماذا فعلت؟...

**سورماك:** ليست مذنبة.. أنا هو الملعون **(ينطفئ)**...

**فارت:** آه.. هاهـي ملائكـة السـماء تحلق فوق المكان مبتسمة... ستأخذ "شوشان"... خذوني أنا أيضاً... خذوني معكم!!.

**(يسدل الستار)**

**.... (النهاية)...**

□□

# Foreign Literature Quarterly No 123
# Summer 2005, Thirtieth year

## Contenes

# الآداب الأجنبية، العدد 123، صيف 2005

## السنة الثلاثون

## المحتويات

□□□

# AL – ADAB AL – AJNABIYYA

## (Foreign Literature Quarterly)

العدد 123 صيف 2005 السنة الثلاثون

General Manager
**Prof. Husein Juma'**
Editor in Chief
**Dr. Bouthaina Shaaban**
Executive Editor
**Dr. Nadia Khost**
Editorial Board
**Mr. Adnan Jamous**
**[illegible]**
**Mr. Khalid Haddad**

ARAB WRITERS UNION – DAMASCUS, SYRIA